NOVEL

ياسمينة صالح

لخضر

لخضر

لخضر / رواية عربيّة
ياسمينة صالح / مؤلّفة من الجزائر
الطبعة الأولى ، 2010
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :

لوحة الغلاف : **سلمان المالك / قطر**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN 978-9953-36-362-5

رواية
NOVEL

ياسمينة صالح

لخضر

أحداث وأشخاص الرواية من نسج الخيال

(الكاتبة)

yasminasalah@gmail.com

الإهداء

إلـــــــى الأمـــــــل . . . .
نـصـدق نورك مـهـمـا يكن!

ياسمينة

- ١ -

كان يريد أن يتحرر من عقد البداية ، ويرسم لنفسه جهة أخرى غير تلك التي يدافع عنها الناس! كان يدرك أنه بحاجة إلى قوة هلامية ليصبح شيئاً مغايراً عمّا كان من قبل ، أيام كان يخطط له والده مستقبلاً يصلح للبؤساء . .!

والده . . .!

تمنى لو يستطيع أن يبتسم لمجرد أن يتخيل شكل الابتسامة على شفتيه ، بعد عمر طويل من العبوس . . فكر بينه وبين نفسه : هل ثمة ما تغير حقاً؟ عندما استيقظ صباحاً وجد نفسه يريد النظر إلى وجهه! طلب من خادمه إحضار مرآة ، وبقي الخادم يبحلق فيه صامتاً ومرتبكاً ، قبل أن يقول بصوت مليء بالحيرة :

ـ سيدي . .! أنت من أمر بنزع المرايا من الجدران والأمكنة . .! أنت من أمرنا بعدم ترك مرآة واحدة في البيت . . !

نظر إلى خادمه وهو يشرح له أمراً بدا له خطيراً! لا مكان للمرايا في البيت؟ ألهذا الحد كره نفسه؟ تظاهر بعدم الاكتراث بما سمعه ووجد نفسه ينظر إلى وجهه على زجاج النافذة . . زجاج عكس له وجهاً لا يعرفه . مجرد تقاطيع متشابكة وعينين محاطتين بهالة سوداء قاتمة وشعر هزمه البياض من كل جهة . لعله ارتبك قليلا أمام عينيه . ارتبك وهو يبتعد

خطوة نحو الخلف ، وقبل أن يبتعد تمتم بكلمات مبهمة ودخل إلى الحمام ليستقبل يومه الجديد! فكر بينه وبين نفسه : لا بد أن الجميع حائرون بسبب مزاجه المفاجئ ، والتغيير الذي طرأ عليه منذ استيقظ من النوم . حتى إنه قال صباح الخير للخادمة التي دخلت عليه تحمل صينية القهوة . ذهلت وهو يقول لها بصوت هادئ وبسيط :

ـ سأشرب قهوتي في الصالة . .!

قالها وهو يصوب نظرته نحو النافذة : «يبدو اليوم مشمساً . . لقد حل الربيع أخيراً!» ولم ينتظر من خادمته العجوز تعليقاً ، كان يكفي أن يرى ملامحها من انعكاس زجاج النافذة ليفهم تلك الدهشة التي أبقت فمها مفتوحاً للحظات قبل أن تأخذ الصينية وتخرج مهرولة . .! لبس بذلته الخضراء الأنيقة وخرج إلى الصالة بخطوات أقلّ حدة . . كأنه ليس هو . . كأن شخصاً آخر تقمصه ليلعب دوراً مختلفاً عن الدور الذي لطالما أدّاه بطريقته الخاصة التي جعلت الجميع يخافون من مجرد النظر إليه . . يخافون من خطواته مثلما يخافون من صوته . . جلس يرتشف القهوة مستمتعاً بزقزقة العصافير في هذا الصباح المشرق ، وعندما انتهى من قهوته نهض نحو السيارة التي تنتظره في الخارج . . رأى سائقه الخاص يدنو منه مهرولاً ليتناول من يده الحقيبة الجلدية الصغيرة . . تلك حركة تعوّد عليها منذ سنين ، لكنه قال بصوته الحازم :

ـ سأبقي الحقيبة معي . .!

تدارك السائق ارتباكه وهو يفتح لسيده الباب الخلفي ، وبدل الجلوس في الخلف قال له بصوت بدا ودوداً :

ـ سأجلس في المقعد الأمامي!

ولم يعرف السائق كيف يتصرف وماذا يفعل؟ بقي واقفاً فاتحاً فاهه

مذهولاً ، ثم سرعان ما انتبه إلى وقفته تلك وأسرع نحو السيارة ، ركبها وانطلق بها مذهولا!

يا إلهي! ما الذي حدث للسيد؟!

قالها السائق بينه وبين نفسه ، كما قالها الخدم بينهم وبين أنفسهم . كل من رآه اليوم قالها في سرّه . . ما الذي حدث؟ كان هادئاً . .! لم يكن هدوءه مفتعلا هذه المرة . . لأول مرة يبدو هادئا عن قناعة وليس عن واجب . . بين الرجل الذي غادرهم أمس وهذا الذي جاء إلى مكتبه اليوم اختلاف كبير وخطير . مع هذا لا أحد كان ليجرؤ على سؤاله مباشرة . طرق سكرتيره الباب طرقاً خفيفاً ودخل حاملاً مجموعة من الملفات والرسائل ، وبعض الفاكسات التي وردت إليه من الخارج . كانت الفاكسات منسقة بإتقان شديد داخل ملف أخضر وقد قام السكرتير بترجمتها قبل حملها إليه ككل صباح . .

ـ جنرال . .!

رفع نظره إلى سكرتيره الذي كان يبحلق نحوه بنظرة غبية أثارت في نفسه رغبة في الابتسام . .

ـ العقيد «هيثم» اتصل بكم أكثر من مرة وطلب مني إبلاغه بقدومكم إلى المكتب يا سيدي . . هل أبلغه الآن؟

ـ لا . . . .!

قالها وهو يمد يده إلى الملف الأخضر . فتحه بلا رغبة في القراءة . بدا له لون الملف سخيفاً وهو يتأمله . . كل شيء كان أخضر هنا . . البذلة الرسمية التي يلبسها . . ديكور المكتب . . الكراسي والأريكة العريضة التي يستلقي عليها أحياناً . . السجاد أخضر ، متمازج بين الداكن والفاقع . . كان السجاد هدية من جنرال إيراني . قال له وهو يصف له قيمة هديته :

إهداء سجاد إلى صديق يعني محبة دائمة! لم يكن وقتها ليتقبل المحبة الدائمة ولكنه أحب ذلك السجاد كثيراً . . وجد له مكاناً في مكتبه الذي لا يدخله كل الناس ، فقط من يسمح لهم بالدهس على السجاد بأحذيتهم العسكرية الثقيلة . . كان أحياناً يتأمل الرسومات المتشابكة وكأنها كتابة هيروغليفية ، ويتأمل تلك الأحذية التي تأتيه لتدوس على النقوش . لم يكن ليكترث كثيراً بهذه التفاصيل الصغيرة . . خيل إليه اليوم أنه يستطيع أن يطلب من زائره ترك حذاءه خارج المكتب ، كما يفعل أي مصل قبل الدخول إلى المسجد! صحيح أن الفكرة بدت له سخيفة ، لكنه ابتسم أمام عيني السكرتير الذي كان يسترق النظر إليه بين الفينة والأخرى منتظراً أوامره الصباحية . كان يعرف أن السكرتير مستغرب أيضا ، ربما لأنه بادره بتحية أصابته بحالة تشبه الإغماء! نظر الجنرال إلى عيني سكرتيره الصغيرتين . . كان شابا في الثلاثينات من العمر ، أنيق ومهذب ومرتبك دائماً في حضور الغرباء . . ابتسم وهو يرى شحوب سكرتيره . . تساءل في سره : «هل أنا مخيف إلى هذا الحد؟» وابتسم من جديد ، وقبل أن يطلب منه الانصراف قال له بصوت أراده حازماً :

ـ أريد ملف الملازم «حسين زرياب» . .!

غادر السكرتير مسرعاً ، بينما أحنى الجنرال رأسه ليتأمل السجاد عن قرب . . تنهد مقتنعاً أن عليه نقله إلى مكان آخر كي لا تدوسه الأقدام السوداء!

- ٢ -

ماذا جرى؟

قالها السكرتير بينه وبين نفسه وهو يبحث عن الملف المطلوب؟ منذ انتقل - قبل ثلاثة أعوام - ليعمل سكرتيراً خاصاً في هذا المكتب وهو يراه بالوجه المكفهر نفسه ، العابس والمغلق . لم يره يبتسم إلا نادراً ، وعندما كان يضحك ، يحسّ بخوف أكبر . . كان يشعر أن في ضحكة الجنرال قدرة غريبة على الأذى . كلما ضحك ، اقتنع بذلك أكثر .

لم يأت السكرتير للعمل في هذا المكتب عن رغبة ، وحدها الصدفة من حملته إلى هنا . فأن يشتغل شاب فقير وبائس سكرتيراً في مكتب الجنرال لهو عطاء يهبه الله لشخص ما . . إنها النعمة التي لا يجوز التبطر عليها كما يقول والده الذي صار يفتخر به لأنه يعمل في مكتب الجنرال! لم يكن والده سوى الساعي الذي عاش حياته بين أجنحة وزارة الدفاع حاملاً البريد من مكتب إلى آخر . . كان يقول له : «البسطاء والتافهون هم أكثر الناس علماً بكل ما يجري في كواليس الوزارة يا بني ، ولكن أهم درس يجب أن تتعلمه هو أن تخفي لسانك داخل فمك ، بحيث لا يحق لك فتحه إلا لتقول : «حاضر» . .!

حاضر!

إستراتيجية الذين اشتغلوا في الوزارة منذ الاستقلال إلى يومنا ، إذ إن

أول اختبار يقومون به يبدأ أساساً من اللسان . .! حفظ اللسان أهم من حسن السلوك ومن الوفاء والوطنية التي لا تعدو كونها شعارات يضعها أصحاب العمل لإجبار العامل على الطاعة وعلى الولاء إليهم عبر الولاء للوطن . .! حتى والده لم يختر لنفسه العمل في هذه الوزارة ، لكنه شعر أن الله راض عنه عندما أوصلته الصدفة ليكون ساعياً قضى حياته بين المكاتب حاملاً الرسائل وفناجين القهوة من مكتب إلى آخر . . لم يكن والده من النوع الذي يثرثر ، لهذا بقي في عمله ، واستطاع أن يثير شفقة أحد الضباط الذي وعده بتعيين ابنه سكرتيراً في إحدى الدوائر التابعة لوزارة الدفاع ، وبعد سنة من تعيينه سكرتيراً استطاع أن يكسب ثقة الجميع وتعاطفهم . . صار معروفا بنشاطه الكبير وأناقته الزائدة ، مع أنه كان ابن ساع لا أكثر ولا أقل . .! إلى أن لمحه الجنرال ذات يوم ، وطلبه دون مقدمات ليشتغل عنده في المكتب ، وكان يعرف أن الجنرال لا يشغل سكرتيرات في مكتبه ، لأنه لا يثق في ألسنتهن ولا في ولائهن . .! كان ذلك أشبه بليلة القدر بالنسبة لوالده الذي شكر الله كثيراً أن حوّل ابنه من مجرد سكرتير مغمور إلى السكرتير الشخصي للجنرال . . لكن الابن لم يكن راضيا ولا راغباً في العمل في وظيفة صنعت منه أبكم عن واجب . . كان يحلم بشيء يختلف عن كل هذا . . في السابعة عشرة من العمر حلم بدخول كلية الفنون الجميلة . كان يشعر أن لديه موهبة يريد تفجيرها ، ربما لأن أساتذته أطلقوا عليه مسبقا لقب الفنان ، لأنه كان يرسم على الجدران ما يريده . . قال له أستاذ العربية ذات يوم وهو يتأمل رسمه على جدار المدرسة : ستكون رساماً كبيراً بل وأفضل من بيكاسو نفسه! لكنه فشل في الالتحاق بمعهد الفنون الجميلة لأنه لم يكن يملك المال ليشتري مكانه في المعهد ، فقد رسب في امتحان القبول ، ولأن والده اعتبر

«الرسم» قلة ذوق وغياب مسؤولية من ابنه . قال له يومها بصوت غاضب :

ـ بدل أن تبحث عن عمل تساعدني به على سد مصاريف البيت تريد أن تدرس الرسم؟ ما هذا العبث؟

ولكي لا يكون عبثيا قبل بالوظيفة التي وجدها له في الوزارة . في الشهور الأولى من العمل وجد نفسه يؤدي عملا روتينياً ومملاً أغرقه في عالم من الأوامر التي لم تكن تعنيه ، لكنه كان ينفذها عن خوف أشعره من البداية أنه دخل إلى قفص لن يخرج منه . . كان مجرد عامل في خلية من الموظفين الذين يركضون في كل اتجاه في سباق الوقت ، لأجل جنرال أو عقيد أو عميد . قال له أبوه وقتها :

ـ أنا في سن المعاش ، سيتخلون عن خدماتي قريباً وأشكر الله أنني زرعتك في الوزارة!

كانت عبارة «زرعتك» تعني جميلاً كبيراً عليه أن يحمد الله عليه صباحاً ومساءً ، ولم يكن ليقول أكثر من «حاضر» فهو يتقاضى راتباً جيداً ، ناهيك عن المزايا التي يمنحها له عمله . . فأن تكون لديك بطاقة عليها ختم وزارة الدفاع معناه أنك مواطن استثنائي في دولة تقدس كل ما هو مرتبط بالبذلة العسكرية والجزمة الغليظة ، التي يلبسها أولئك الذين يملكون الرغبة في إرهاب الآخر من باب إثبات سلطة شخصية أو رسمية . .! فهو يتذكر أن جارهم أرعب الحي كله لأنه التحق بوزارة الداخلية وصار شرطياً بسيطاً يلبس بذلة زرقاء كانت تثير فخر أسرته ورعب جيرانه منه . . كل بذلة رسمية تخيف الناس ، وكل شخص تقاس أهميته إزاء بذلته وليس إزاء شخصه ، لهذا بمجرد أن تنتهي مهامه الرسمية بالمعاش أو الفصل ، ينتهي وقاره ، وينتهي خوف الناس منه . . يتحول من شخص استثنائي إلى شخص عادي وأحياناً بائس ، وعندما جاء دوره بعد

عام من العمل وصارت له بذلته الخضراء الرسمية لبسها بإحساس غريب يشبه إحساس حية تغير جلدها إلى الأبد . . وحدها البذلة من حولت فشله إلى نجاح كبير في أعين الناس . . أصبح مخيفاً ومهمّاً . .!

عثر أخيراً على الملف المطلوب . سحبه ووجد نفسه يفتحه على عجل . انتبه إلى الصورة الملصقة بإتقان يمين الأوراق . رأى وجه شاب ووسيم . رأي عينين واثقتين ، وابتسامة ساخرة وحزينة . . فكر بينه وبين نفسه : ماذا سيفعل بهذا الملف؟ ثم هزّ كتفيه وهو يسرع نحو مكتب الجنرال الذي وجده واقفاً أمام النافذة ، سرعان ما التفت نحو سكرتيره المرتبك في وقفته ، ممسكاً بالملف . ابتسم وهو يفكر أن سكرتيره الساذج لا يعرف إخفاء أخطائه الصغيرة . كان واضحاً من ملامحه أنه ألقى نظرة فضولية على الملف الذي وضعه أمامه بيد فضحها الارتباك . عادة لا يتسامح مع جنحة كهذه . تمنى لو كانت له القدرة على سؤاله مباشرة عما رآه في الملف . .؟ ثم بنظرة سريعة منه جعلت السكرتير يغادر المكتب مسرعاً ، كمن يهرب من ورطة كبيرة! عاد الجنرال للجلوس خلف مكتبه . . فتح الملف على الصورة نفسها التي رآها سكرتيره قبل قليل . . صورة شعر بالدهشة قبالتها . صورة مدهشة حد الوجع . كم من الماء مر تحت الجسر منذ خمسة وعشرين عاماً؟ وكم يبدو واثقاً ووسيماً! قالها في نفسه . لكن تلك السخرية التي لفتت انتباهه جعلته يتململ فوق كرسيه كمن لسعته حية . سخرية موجعة لأنها مباشرة ، يكاد يتلمسها بيديه . مع أنه لا يعرفه ، إلا أنه شعر أن تلك الابتسامة في الصورة تسخر منه هو بالذات . شعر أن العينين تسخران منه أيضاً ، ولسبب ما أحسّ بشيء يقرص قلبه من الداخل . . فكر من جديد :

ـ كم يبدو واثقاً ووسيماً . . . ووقحاً!

ظل ينظر إلى الصورة ، مدققاً في كل تقاطعاتها كمن يبحث عن شيء ما . تماماً كما فعل أمس . . لكن أمس لم يطلب هذا الملف بالتحديد ، بل طلب مجموعة من الملفات أراد الاطلاع عليها كما يفعل عندما يرغب في تصفح تفاصيل المنتسبين الجدد إلى الوزارة ، وجد نفسه فجأة أمام هذا الملف الذي أصابه بالصدمة ، ثم الذهول ، وظل ينظر إلى الصورة التي لم يقدر على تصفح غيرها . . صورة شخص لا يعرفه . . لم يره . . لم يلتق به من قبل . . أليس هذا جنوناً؟ من عادته ألا يتوقف أمام صورة أكثر من دقيقتين كافيتين ليدرسها دراسة شاملة . أغمض عينيه ثم فتحهما . . شعر وقتها أن شيئا ما حدث في داخله . . شيئاً غريباً وخطيراً . .!

تساءل : هل يمكن لصورة أن تغير في شخص؟ هو الذي لم تهزّه المعارك ولم تغيّره الهزائم القديمة والدسائس التي كانت تحاك ضده في الظلام . كان يزداد قوة كلما زادت الحروب الخفية ، الباردة أو الساخنة . . كان يزداد جبروتاً أمام كل حرب يكسبها وعدو يهزمه . . مع ذلك ، مع كل ذلك . . . . . . هزمته صورة!

-٣-

كيف يمكن لحكاية أن تبدأ أو تنتهي بصورة؟

لا يدري . لكنه يعي أن الحكاية بدأت قبل أكثر من ثلاثين سنة خلت . . أيام كان للأشياء مسميات مغايرة ، أو ساذجة . . كان «الخضر» وقتها في سن يقال إنه عنفوان كل الأعمار التي يمكن لشخص ما أن يعيشها ، لم يشعر قط أنه يحمل عمراً يستحق أن يحتفي به داخل ما كان يحيطه من فراغ مهول و«لا جدوى» ظلت تطارده طويلا ، ربما لأنه في تلك السن اكتشف أنه آيل إلى بؤس فتح له أبواب مواربة كانت تصنع في يومياته ثقوباً لا حدود لها ، ولا مهرب من التسلسل فيها إلى مزيد من الكبت والجوع! في تلك السن ، كان الشباب يعتقدون أنهم في ذروة الحرية . يَطلبون ويُطالبون . . يثورون ويحتجون معتقدين أنهم سيغيرون وجه العالم . كان بعضهم يمارس السياسة ويرى فيها مخرجاً كشخص يتسلى بجريدة لا يقرأها إلى النهاية ، والبعض الآخر يكتفي بأنه يعيش شبابه فحسب . يحب ويُحَب ، يتسلى بالعشق . يتأبط ذراع فتاة يرى فيها طموحاً يعرف أنه لن يتحقق ، ويتأمل في خجلها حلماً يموت بالتدريج كلما مشى خطوة نحو الحقيقة التي تقفز إلى عينيه قائلة له : الحب للأثرياء الذين يستطيعون فتح بيت وتحمل مصاريف زوجة وأطفال يولدون جياعاً بالفطرة! لم يكن «الخضر» من هؤلاء الذين يحلمون بشيء

ملموس . . كان يرى نفسه فاقداً للطموح ، مثلما كان عاجزاً عن القول إنه سعيد بحياديته الضاربة بعيداً في الهباء!

نعم . . .! لم يكن سعيداً ، فلم يكن ثمة شاب في المدينة وفي مثل سنه يدّعي السعادة . كان الجميع يتفق على أن السعادة «كذبة قومية» جاهزة لشعار سخيف يكتب على شرف أولئك الذين يعرفون أنهم سعداء ؛ لأن التعاسة مرتبطة ببؤس الفقراء فقط . هذه هي سنة الحياة في نظرهم ، منذ بداية الخليقة . . منذ تحولت التعاسة إلى «بطاقة وطنية» يحملها الشعب عن فخر قديم كذب عليهم ، قائلا لهم إنهم ينتمون إلى بلد كبير تركه الشهداء خلفهم دون أن يلقوا نظرة أخيرة إلى الخلف ، لرؤية ما سوف تؤول إليه الأوضاع من بعدهم جيلاً بعد جيل ، بعد جيل . . بعد جيل! ماذا لو ألقى الشهداء نظرة إلى الخلف؟ هل كانوا سيتركون البلاد ويمضون . .! كل البؤساء كانوا فقراء ، وكلهم يترحمون دون غيرهم على بطن الوطن الذي أنجب أولئك الشهداء الذين تركوا لهم وطنا ، ويحتفون بأمجاد سرقها الأحياء واستولى عليها اللصوص ليصلوا إلى السعادة على أكتافهم . .! هل يحق له أن يكون سعيداً بعدئذ؟ كان يعتقد من الأول أنه لم يكن يستحق السعادة لأنه لم يفلح في الدارسة . فشله فتح هوة سحيقة بينه وبين أبيه الذي اعتبره فاشلا بامتياز ، مع أن والده لم يكن قادراً على مصاريف الكتب والدفاتر التي كان يعايره بفشله فيها .

لكم شعر باللا جدوى وقتها . . . . .! ثم ما معنى الجدوى أساسا؟ هو لم يختر في حياته شيئا . . لم يختر وضعه ولا العائلة التي عاش فيها وكبر . لم يختر أمه التي اكتشف مع الوقت أنه لم يعرفها تماما . فقد توفيت وهي تضع أخته الصغرى إلى الحياة . . كان في العاشرة من عمره عندما ماتت أمه بعد أسبوع من الولادة العصيبة . ماتت بسبب نقص في

الرعاية . كانت تحتاج إلى طبيب لم يستطع والده أن يأخذها إليه . . كان يسمع أنينها ليلاً ، ويرى في الصباح شحوبها وجفاف صدرها من الحليب . يومها ، طلب من أبيه أن يفعل شيئاً ، لكنه تفاجأ به ينهال عليه بالضرب صارخاً فيه :

- لا ينقصني إلا أن تملي علي واجباتي يا ابن الكلب . أمك تحتاج إلى الدواء والغذاء لتشفى ، أين لي بالمال لأشتري لها كل ذلك؟ أين لي بالمال . . ؟؟

أمه . .

يتذكرها كما لو أنها ماتت البارحة . يتذكر جسمها النحيف وابتسامتها التي لم تكن تفارقها قط ، ونشاطها في البيت حتى في حالة المرض . . يتذكر وجهها الذي كان يعيده إلى البيت كل يوم ، ويجبره على الإصغاء والطاعة لينجح ويحمل العبء عندما يكبر . . فهو الابن البكر الذي ستعود إليه مسؤولية الأسرة كلها . كان يصدق في وجهها تلك الأكاذيب الصغيرة والجميلة عن الغد والنجاح والفرح ، والمستقبل . . أمه نقيض مطلق عن والده . لم يكن والده سيئا ، بل كان حازما لأنه كادح ، ولأنه بائس وفقير . . لا وقت لديه ليفتح أحضانه المتعبة لأحد . كان يعود منهكاً وشاحباً . يرتمي على الفرشة الأرضية البالية وينام نوماً مليئا بأنين التعب اليومي الخالي من اليقين . . تلك الصورة أشعرته أن عليه أن يكبر بسرعة ليحمل المسؤولية ويأخذ نصيبه من العبء . لكن موت أمه أشعره ألاّ وقت للغد ، وأن النجاح كذبة لا يمكن لمثله أن يجتهد لأجلها ، لأنه لا يعرف ماذا سيصنع بها إن تحققت . . !

يتذكر جيداً ذلك اليوم الذي رجع فيه من المدرسة في مساء ماطر وكئيب . . عاد كما يعود كل يوم جائعا يرتعش من البرد . تفاجأ بجارتهم

وهي تمسكه من ذراعه وتجره إلى بيتها . لاحظ اجتماع النسوة في بيتهم . . سأل بصوت مليء بالدهشة :

ـ لماذا تتجمع النسوة في بيتنا؟

قالت الجارة بصوت غارق في الهدوء :

ـ يا لخضر يا ابني ، أمك المريضة ، ارتاحت الآن . .!

ـ هل أحضر لها أبي الدواء؟

ـ بل أخذها الله إليه . لأنه يحبها . الله يأخذ من يحبهم يا بني!

بعد ساعات من الانتظار ، فهم أن أمه ماتت . . أخذها الله إليه ليريحها من مرضها وأنينها الليلي . . . ماتت كما لو أنها تعاقبه على أشياء لم تكن له يد فيها وهو في تلك السن الصغيرة والغضة . . شعر وقتها أنه أصبح يتيماً كأشد ما يكون اليتم جرحاً . . لم يحاول والده أن يغطي غيابها ، فلم يكن له الوقت ولا الرغبة في أن يغطي غياب أمّ مريضة ومنهكة ، لهذا فكر في المستقبل كما يفكر رجل في مثل وضعه ، وحاجته إلى امرأة أخرى تعتني به وبطفليه . . لم يسأله عن رأيه عندما سافر إلى قرية أقاربه البعيدة ، وعاد بعد أسبوع حاملاً معه امرأة قال له أمامها :

ـ هذه أمك الجديدة !

لم يعلق . . ظل صامتاً ، حتى وهو يرى «أمه الجديدة» تسيء معاملة أخته الرضيعة وتنهرها حين تبكي ، وتشتكي منها لوالده الذي لم يكن يعلق كثيراً سوى بنفس العبارة ذاتها :

ـ احتمليها ولك الأجر عند الله!

ولم تكن لتحتمل أحداً ، ولا حتى والده حين تدخل معه في شجار ينتهي بخروجه من البيت غاضباً ، ليعود في آخر الليل بمزاج سيء ، منتظرا أية ردة فعل من ابنه ليهجم عليه بالضرب ويفرغ ما في جوفه من غضب

ومن استياء . .! اكتشف «لخضر» أن الضرب المبرح هو الطريقة الوحيدة التي تخفف من غيظ والده وترضي زوجته التي تهدأ بعدها لأيام طويلة . كان جسمه الصغير ساحة للمعارك التي تنفجر بين أبيه وزوجته ، ولم يكن يعرف كيف يعترض ولا كيف يقاوم . مع هذا كان يصدق أن والده لا يكرهه ، وأن ما يفعله ليس أكثر من ردة فعل إزاء وضعه . ربما لهذا لم يعد يشعر بالألم من الضرب . كان يشعر بالألم مما يخلفه الضرب من ضغينة صامتة كبرت بينه وبين أبيه وعتاب ظلّ ينخر العظام . . مسؤوليات والده ازدادت مع مرور الوقت ، بعد أن أنجبت زوجته ثلاثة أبناء احتلوا مكانه وفرشته ووجوده في البيت . . شيئا فشيئاً سكنته المسافة إزاء إخوته الذين حرصت أمهم على إبعادهم عنه ، وكان يبتعد عنهم برغبة في الابتعاد . فقط أخته الصغيرة من ارتبطت معه بذلك الشعور المبهم والإحساس المشترك باليتم . . أخته التي أصيبت بالحمى فجأة ، وظلّ الجميع يتفرج عليها . . كان في السابعة عشرة ، عندما خسر أخته أيضا . . يتذكر جسمها الصغير والنحيف وإحساسه بالعجز أمامها . شعر «لخضر» أن عليه أن يطلب من أبيه أخذها إلى الطبيب . قال له بصوت مليء بالرجاء :

ـ لا يجب أن نتركها تموت . .!

لم يجد والده سريراً شاغراً لها في المستوصف القريب ، ولا في المستشفى الذي رفض حالتها «لعدم خطورتها!» كانت عبارة «عدم خطورة الحالة» تعني بالأخص : «عدم أهمية المريض»! ذلك أن عبارة «عدم خطورة المرض» معناها الرفض المباشر لأولئك الذين يمرضون على حساب الدولة ، فتصبح الدولة «مجبرة» على الاعتناء بهم بصيغة التأجيل الذي يصبح مع الوقت إهمالاً متعمداً ، لكي يموت كل البؤساء تلك الميتة التي لا تحسسهم أنهم يخسرون الحياة لأنه لم يكن لهم الحق فيها أساساً . .!

ظلت أخته الصغيرة تصارع الحمى طوال أسبوع إلى أن استسلمت لها . . توقفت أنفاسها وتوقف جسمها عن الارتجاف . . كان «لخضر» يريد أن يكون حاضراً في تلك اللحظة الأخيرة ، حين أمسك يدها بقوة وظل يضغط عليها إلى أن تسربت برودة قاسية إلى جسمه . . فهم أنها النهاية . . انقطعت أنفاسها أمام عينيه ، ووجد نفسه يصرخ بقوة ليوقظ من في البيت . نهره أبوه ليكف عن الصراخ ، وقبل أن يستوعب الجميع ما يجري ، كان جسم أخته يزداد هدوءا وبرودة ، وانغماساً في ذلك الصمت القريب من النهاية . .!

فكر أن أخته ذهبت إلى الله لأن الله يأخذ من يحبهم . . فكر أنها لن تجوع ولن تبرد ولن تمرض بعد الآن! تساءل يومها وهو يضغط على أسنانه كي لا تغلبه صرخة محبوسة في حلقه : ماذا يشكل موت طفلة في السابعة من العمر لأب فقير وأسرة جائعة؟ ألا يعني الخلاص للبعض وراحة للبعض الآخر؟ اكتشف أن موت أخته لم يكن أكثر من صفحة قلبها الجميع بمن فيهم والده الذي عاد بعد الدفن ، ليستلقي في فرشته وينام نوماً عميقاً . .! هل كان سيشعر أن ثمة شيئاً يعنيه في هذه الحياة حقا؟ لا شيء ، ولا حتى العمر الذي قبالته ظل يشعر أنه فاشل ، قبل أن يصرخ فيه والده بالصوت ذاته المليء بالغضب والضغينة :

ـ أنت تتسكع في الشوارع منتظراً مني أن أصرف عليك وأنت بهذا الطول المخجل؟ ليتك تخجل من نفسك ولو مرة واحدة في حياتك!

كان خجلاً من نفسه فعلا . يعرف أنه لم تعد ثمة مساحة لشيء غير الخجل والخجل الأكيد ، ربما لأنه يشعر أنه لم يعد معنيا بشيء . كان حيادياً أمام كلام لم يكن يعنيه مباشرة رغم أنه يخجله . .!

ـ لو في عروقك دم لشعرت بالشفقة على أبيك وهو يكدح طوال اليوم

في الميناء حاملاً الأكياس على ظهره كالحمير لأجل إطعامك وإطعام إخوانك . . لكن ماذا أقول . . فعلا أنت لا تخجل من نفسك . .!

كان والده حمالاً في الميناء منذ جاء إلى العاصمة بحثاً عن لقمة العيش هاربا من قرية أكلها الفقر . . فأن يعثر على عمل بعد أشهر من وصوله أمر حسده عليه كل الذين جاءوا في القطار نفسه معه ، لهذا شعر أن العمل قيمة يجب الدفاع عنها مهما كان نوعها ، كان يرى في بطالة ابنه شيئاً مثيرا للتقزز والغثيان . لقد تحول في نظره إلى عالة يجب التخلص منها في أقرب وقت . قالت زوجة أبيه بصوت ضجر :

ـ يجب أن تجد حلاً لابنك ، لا يمكن أن يكون عالة على البيت بهذا الشكل!

ـ لكن الشغل غير متاح . أنا أعرف ظروف البلاد أكثر منك . الشغل غير متاح ، لو شفت عدد الشباب في سنه وهم يتسكعون في الشوارع بلا عمل!

ـ لا يهمني . . إما أن يشتغل أو يرحل . . .!

ـ أفكر في تشغيله في الميناء معي . . لقد غيروا رئيس العمال وأحضروا شخصاً جديداً ، قد أفلح في إقناعه ليجد له مكاناً معي . سأكلمه صباحاً ونرى . .!!

لم يكن هذا الحوار جديداً ولا مفاجئاً ، لكن الجديد أن يعمل في الميناء حمالاً كأبيه . في الحقيقة لم يتخيل نفسه حمالاً ، ربما لأنه لم يفكر في العمل أساساً . . كانت ثمة فكرة تسيطر عليه بإلحاح ، سمعها من بعض الشباب الذي يجالسهم أحيانا قليلة في الحي ، يتكلمون عنها بالصوت والإصرار نفسه : الهجرة من البلد! منذ أيام والفكرة تدور في رأسه . لم تكن الهجرة مجرد رحلة إلى بلد ما ، بل كانت تعني هرباً

حقيقياً يمارسه الشباب حين يقررون التسلق على متن السفن الراحلة إلى دول أخرى ، دون التفكير في اسم الدولة التي عليهم الذهاب إليها . كان بعضهم يرمي بنفسه في البحر تاركاً للمد حرية اختيار وجهة أقداره ، إما الشمال وإما الغرق . .! يتحدثون عن الهجرة بعبارة : الهرب . . إذ إن التسلل إلى باخرة ما يبقى أقصى حالات النجاح في فكرة الهرب . سمع عن حالات هرب ناجحة ، وأخرى فاشلة أعيد «مرتكبوها» بتهمة الخروج من البلاد بلا إذن رسمي! مع ذلك كان الهرب حلماً كبيراً راوده كثيراً .

لم ينم ليلتها . بقي مستيْقظاً منتظراً الصباح ، وعندما حلّ الصباح غادر البيت دون كلمة ، كما يفعل كل يوم ، تسكع حتى قرصه الجوع والتعب ، وعاد مساء يتسلل بخطوات مكتومة كلص محترف ، وعندما رآه والده قال له بصوت ممزوج بين الفرح والجدية :

ـ جيد أنك جئت الآن . أريد أن أكلمك في موضوع هام . . . !

جلس يتظاهر بالهدوء ونظر إلى أبيه وهو يرتشف قهوته ببطء مثير للأعصاب . . بينما زوجته جالسة قرب موقد النار تحرك في قدر قديمة ، وإخوته الصغار يتلاعبون فيما بينهم في تناغم حسدهم عليه . .!

ـ عندي لك خبر أعتقد أنه سيسعدك . .! وجدت لك عملاً معي في الميناء .!

وفتح الشاب عينيه بكل ما أوتي من دهشة . فكر بسرعة : سأهرب إذن . . ! شعر بقلبه يدق دقاً قوياً وكان والده ينتظر منه رداً مقنعاً وواضحاً . .!

ـ عملك سيكون دعما لنا . يجب أن تقف معي لحمل المسؤولية!

لم يكن يصغي إلى كلام أبيه . كان يفكر في أن القدر يضع في طريقه سبباً حقيقياً لتغيير حياته . فكر في الذين يحلمون بالهرب ولم

يستطيعوا . شعر أنه يحتاج إلى جهد ليقول شيئاً ما . قالت زوجة أبيه بصوت بدا له مؤذياً :

ـ أنت تدفع في حمار ميت! إنه لا يهتم بما تقوله . لقد تعود على التسكع . تعود على الاتكال عليك . لن يحتاج إلى العمل طالما يرى نفسه سعيداً بخيبته ولا جدواه . . . !

ـ بل أريد العمل في الميناء . . . . !

قالها أخيراً . نظر إليه والده مرتاحاً ، بينما توقفت زوجة أبيه عن تحريك تلك القدر البائسة ، والتفت إخوانه إليه وقد كفوا عن اللعب . بدا متحمساً للعمل . . قال والده وهو يكمل ارتشاف قهوته مبسوطا :

ـ لو تعرف كم تعبت لأجل إقناع المسؤول الجديد . لكن لا بأس . المهم أن تشتغل وتساعدني في هذا الحمل الثقيل .!

لم يعلق . . كانت الفكرة تدور في رأسه ملحة ومتكررة . . الفكرة التي تدور في رأس ربع شباب المدينة . . الهرب!

- ٤ -

هل يمكن لشخص أن يهرب من الجحيم؟ أن يهرب من هالة الجوع والغبن والإهانة والذل التي تظلل بها طوال حياته بالفكرة نفسها أن الفقراء لا يمكنهم الهرب أبعد من قناعتهم الجاهزة بأن الفقر هو الطريق الوحيد إلى الجنة؟ لم يكن يعرف أن الهرب مستحيل إلى أن اشتغل في الميناء . أخذه والده إلى رئيس العمال الذي كان مستغرقاً في قراءة جريدة سرعان ما وضعها جانباً وهو يرى المقبلين نحو مكتبه :

– أهلا سي عثمان . .!

ـ صباح الخير سيدي «الشيف»! هذا ابني «لخضر» . . أحضرته معي حسب الاتفاق . .!

نظر رئيس العمال إلى «لخضر» نظرة مليئة بالخيبة ، فقد توقع أن يرى شاباً يافعاً بالصحة ، لكنه وجد شخصاً نحيفاً وشاحباً لا يصلح للعمل أساساً . فكر بينه وبين نفسه : كيف يحتمل هذا الجسم النحيف عملاً قاسياً كعمل الميناء؟ ولعل الأفكار ظهرت واضحة على وجهه إذ بادره سي عثمان بالقول بصوت مليء بالحماسة :

ـ إنه قوي يا سيدي ، لا يخدعك جسمه النحيل . .!

ولم يقتنع رئيس العمال بما سمعه ، لكنه تعاطف معه . . كان يعرف أن السي عثمان يفكر في الغد . مثله مثل أي أب يرى أن عليه أن يغرس

ابنه في المكان الذي سيتركه ذات يوم قريب . . .! كان رئيس العمال ينظر إلى الرجلين متفهماً حماسة الأب وشحوب الابن الذي بدا كأنه أمام امتحان عسير ، لكنه خشي بينه وبين نفسه أن يندم إن وافق على تشغيله . . قال يحاول قطع الفكرة إلى شطرين :

ـ طبعا مسألة التوظيف ليست بيدي وحدي ، لهذا يجب اختباره شهراً وبعدها يمكنني الرد عليك بعد إيصال الطلب إلى مدير الميناء . .!

تلك الدبلوماسية الوقورة التي تعني أن مسألة الشغل ليست مضمونة ، لكن بالنسبة للخضر «كانت كافية لأجل أن ينفذ فكرته ، ويتسلق إلى سطح باخرة ما ، نحو مهرب ما . . شهر من الزمن مدة كافية لتحرير دول بعينها ، فما بالك بعملية هروب فردية عبر ميناء تصطف على شاطئه العديد من البواخر الأجنبية المغرية بشكلها الجاهز لأخذه بعيداً . . بعيداً جدا!» ، كان طوال الوقت الذي استغرقه في مكتب رئيس العمال ، يتأمل البواخر من نافذة المكتب المفتوحة على الميناء مباشرة . . كان يتأملها بعينين غارقتين في الحلم ، بعضها يستعد للمغادرة وبعضها ينتظر إذنا للدخول والاصطفاف في المكان المحدد لها من قبل العمال الذين كانوا يتحركون في كل اتجاه . . كان الجو في الميناء يشبه خلية نحل نشيطة ودائمة الحركة بين الذهاب والإياب .

ـ عموماً شهر من الزمن ستكون فرصة «للخضر» كي يتعرف على المكان جيداً

قالها رئيس العمال وهو ينهي الحديث . . كان السي عثمان ممتنا لرئيس العمال استقباله اللطيف ، قال يخاطب ابنه وهما يغادران المكتب :

ـ هل سمعت ما قاله «الشيف»؟ يجب أن تثبت وجودك لتبقى هنا . هذه فرصتك الأخيرة ، إن ضاعت من يدك فلن أتحمل مسؤوليتك أبداً . .!

ذلك التهديد المغلف الذي تعود عليه . كان يدرك أنها فرصته الأخيرة وألا حق له في الفشل . . هل يمكن لشاب في مثل سنه وأوجاعه الداخلية أن يفشل قبالة ميناء يفتح أمامه ألف باب للحلم ، وألف وجهة للرحيل نحو أي مكان بعيد . .؟ أضاف والده بالنبرة نفسها :

ـ عليك أن تثبت أنك رجل . . هذه فرصتك الأخيرة . . لا فرصة لك بعدها . .!

الفرصة التي تأتي مرة واحدة في العمر ، تأتي فجأة وأحياناً جاهزة لا تنتظر سوى ركوبها والذهاب بعيداً . . كانت تبدو فعلية وهو يتعرف على عمله الجديد ، وعلى الأشخاص الذين التقى بهم في أول يوم له في الميناء . . كان بعضهم ينظر إليه بنظرة شفقة أو سخرية . لكنه أراد أن يكسب الرهان ، ليس لشيء سوى لأجل نفسه . . لأجل أن يحقق حلمه الذي صار مرتبطاً برجولته . .!

ـ يجب أن تثبت لهم أنك قوي وقادر على القيام بالعمل على أحسن وجه يا ابني يا «لخضر»!

قالها له شخص ما زال قوياً وقادراً على العمل رغم تقدمه في السن . . كان واضحاً أنه يحمل لوالده مشاعر طيبة ، فقد أضاف كأنه يهمس له بشيء خاص :

ـ عليك ألا تخيب ظن أبيك فيك مرة ثانية . إنه يعتمد على الله ثم عليك لتحمل المسؤولية معه . . لقد صرت رجلاً . .

ـ . . . . . .

ـ اسمع كلام عمك «إبراهيم» وكن في مستوى الثقة ، مرحلة التجريب ستنتهي بسرعة ، وأريد أن أراك دائماً هنا . .!

قالها والده وهو يبتعد لبدء عمله الصباحي اليومي . كانت تلك أول

مرة يرى فيها عمل والده على الطبيعة . لأول مرة يراه يحمل على كتفيه تلك الأكياس الكبيرة . كان يترنح أحياناً في مشيته من ثقل الحمولة التي ينقلها من رصيف الميناء إلى مستودع معد لتصفيف الأكياس التي تأتي من وراء البحر ، بانتظار أن يأتي أصحابها لاستلامها وأخذها على متن شاحنات النقل . صعقته الصورة أول اليوم ، مع أنه يعرف جيداً نوع عمل والده ، إلا أن المشهد هزّه جداً . نظر إلى إبراهيم الذي كان يبتسم بهدوء .

ـ هذا هو العمل هنا يا بني!

ـ أليس هنالك عربات صغيرة تساعد على نقل البضائع بدل نقلها على الأكتاف؟

ضحك إبراهيم ضحكة طويلة وهو يرد عليه بالصوت الطيب نفسه :

ـ إنهم يذلوننا بهذه الطريقة . لن يستوردوا عربات نقل صغيرة لأنهم يضعون ثمنها في جيوبهم . نحن نعتمد على قوة تحملنا في العمل لا أكثر ، وعليك ألا تخيب أمل أبيك!

أحس لخضر بحزن غريب وهو يتساءل : هل هذه هي الحياة التي نولد لأجلها؟ شعر أنه يكره هذه المهنة لأنها سبب في كل الغبن الذي ترعرع فيه ، وأن والده الذي لم يضمه قط إلى صدره ، لم تكن له ذراعان ليضمه بهما بعد ساعات مميتة كان يقضيها في حمل الأكياس على ظهره ذهاباً وإياباً . تذكر أيام كان والده يصاب بالزكام أو التعب المفاجئ ، فيرفض البقاء في فرشته خوفاً ألا يجد شغله في انتظاره إن هو غاب عنه بسبب المرض . . كان يرى أن عليه أن يبقى مريضاً في الشغل ، على أن يبقى مريضاً في فراشه!

ومضى الشهر بسرعة غريبة . لم يكن لخضر يجد الوقت للهرب . كان يعود إلى البيت غير قادر على فعل شيء سوى الارتماء على فرشته البالية

والاستغراق في نوم متعب . خيل إليه أن جسمه لم يعد صالحاً من شدة الإرهاق ، ويديه متورمتان من ثقل الأشياء التي يضطر إلى تحمل ثقلها ليثبت للجميع أنه ليس ضعيفاً ولا هشاً . في البداية كان العمال ينظرون إليه بعيون ممزوجة بالسخرية والشفقة ، لكنه استطاع أن يثبت لهم أنه قادر على العمل ، وأنه يصلح لأن يكون حمالاً جيداً . .! حتى إنه نسي الهرب!

عندما استدعاه رئيس العمال ليبشره بأن المدير وافق على استمراره في العمل ، شعر بشيء غريب يتسلل إلى أعماقه . لعل الرئيس توقع منه شيئاً آخر عدا هذا الحزن الذي رآه في عينيه . . لم يفهم كيف يمكن لشاب أن يحزن لأنه وجد وظيفة ثابتة . . يومها قال له والده بصوت مليء بالسعادة :

ـ كنت أعرف أن الله لن يتخلى عني . أخيراً صار لي سند يعينني . . الحمد لله !

كانت تلك أول مرة يعانقه فيها والده ! أحس بحزن أكبر وهو يتخيل شكل الحياة التي سينتهي إليها . . حمّال ابن حمّال . . كان يعرف أنه ليس أكثر من ذلك ، وأن عليه أن يحمد الله كثيرا لأنه صار موظفا ، يعود إلى البيت أمام أعين شباب في سنه ، يحسدونه في قرارة أنفسهم لأنه صار موظفاً ، بينما يظلون عاطلين عن العمل ، يحلمون بفرصة للهرب إلى بلاد أخرى تمنحهم ما عجزت هذه البلاد عن منحه إليهم ، شباب يحلمون بالهرب ، في الوقت الذي لم يعد هو يجد الوقت للتفكير فيه!

كيف يمكن لحلم أن يموت؟

لم يكن الحلم يحتاج سوى لهذا الوضع ليموت . . وضع «اللا مخرج» الذي ظل يدور في فلكه ، ويشعره أنه لن يستطيع الهرب ولن يستطيع الحياة معاً . . كان وقتها قد وصل إلى قاع اليأس وهو يعود يومياً إلى البيت

منهكاً من التعب ، فيرتمي على فرشته ويغط في نوم عميق . . !

ـ إخوانك يحتاجون إلى كل دينار . . لقد صرت مسؤولا الآن . . !

في الثانية والعشرين ، صار رجلاً حقيقياً في عيني أبيه . كل نهاية الشهر يمد يده إلى راتب ابنه قائلاً له :

ـ المسؤولية كبيرة ، وعلينا تحملها يا بني . .!

كان لخضر يقاوم كل الأشياء التي كانت تتصارع في أعماقه ، وكان يريد أن يتمسك بالأمل لينجو بجلده . . يريد أن يهرب بأي ثمن . . لا تهم الوجهة التي يقصدها في هروبه ، ولا الزمان . المهم أن يحقق ذلك الشيء الوحيد الذي تحول من مجرد فكرة ضرورية إلى حلم مصيري ، ومن مجرد حلم إلى رهان بينه وبين نفسه الآن . . لكنه ظل يشعر بالعجز أمام الرقابة الشديدة حول البواخر ، والعيون التي تبحلق في كل صغيرة وكبيرة ، والحراس المنتشرين في كل مكان من الميناء بكلابهم الحذقة . كان أحياناً يضطر إلى عمل إضافي ، يحمل فيه البضائع من المستودعات إلى الشاحنات التي تأتي في آخر لحظة لتتسلم البضائع ، وكان يجد في ذلك تعباً آخر لا يقوى جسمه النحيل عليه . . لكنه فهم أن الشاحنات التي تأتي في وقت متأخر لتتسلم البضائع ليست عادية ، بل يملكها أولئك الذين يجعلون مدير الميناء ينزل شخصيا من مكتبه لمباشرة عملية الشحن قائلا للعمال بالنبرة الآمرة والحادة نفسها :

ـ لا أريد تعطيلاً . . هيا . . أريد همة ونشاطاً . . هيا بسرعة . . بسرعة . . !

بينما يبقى رئيس العمال يتابع العملية بوجه مغلق . . يعترف «لخضر» بينه وبين نفسه أنه شعر من البداية بتقدير خاص لرئيس العمال ، الذي أحياناً يقاسم العمال وجبتهم البسيطة ، مثلما يقاسمهم

حواراتهم العادية . . كل العمال يشعرون بالحب نحوه ، ولهذا كان يتحول حبهم له إلى ولاء شبه مطلق يجعلهم يعملون دون هوادة ودون أن يعترف أحد لزميله أنه متعب ، أو مرهق ، أو مريض . . تلك سياسة غامضة استطاع رئيس العمال أن يقيمها كعلاقة متينة بينه وبين العمال ، بحيث إن حبهم واحترامهم له كانا عطاء متواصلاً جعل العمل يسير بانتظام يرضي المدير ، على الرغم من تأفف هذا الأخير من العمال في حال أن شخصية مهمة جاءت شخصيا لتستلم بضاعة ما . .! وعندما تنطلق الشاحنات مبتعدة حاملة البضائع يشعر كل العمال براحة غريبة تتسلل إليهم . يعود المدير إلى مكتبه ، ويظل رئيس العمال صامتاً ، ينظر إلى المكان بنظرات لا تخلو من غضب . . !

***

ـ هل أحببت شغلك هنا؟

فاجأه السؤال حد الإرباك . فكر في السبب الذي يجعل رئيس العمال يسأله هل أحب شغله أم لم يحبه؟ هل يمكن ربط الشغل بالحب في هذا البلد الذي لا يجد فيه أحد شغلاً يحبه ، ولا حباً يشتغل عليه؟ قال يحاول أن يجمع هدوءه وثقته :

ـ أنا أعمل . هذا كل ما أريده يا سيدي !

ضحك رئيس العمال ضحكة خفيفة وقال :

ـ معك حق . أحياناً نشتغل في مكان لا نتوقعه ، وأحياناً نشتغل شغلاً لا نحبه . إنما نكون مجبرين عليه لا أكثر ولا أقل!

ارتبك من جديد . هل ثمة سبب لقول ما قاله له؟ أجاب بصوت قريب إلى الحشرجة :

ـ أنا أعمل عملاً يساعد أبي في مصروف البيت . أبي يرى في عملي

شيئاً عظيماً . أنا أكتفي بهذا لأجله!

قالها ونظر إلى عيني رئيس العمال الذي ظل يبتسم ابتسامة خفيفة . ربت على كتفه وهو يقول :

ـ يسعدني أن أسمع منك حرصك على إسعاد والدك . هذا وفاء يعجبني في شاب مثلك . غيرك كان سيستغل وجوده هنا ليركب على متن سفينة محاولا الهرب!

تصبب العرق من جبينه . مسحه براحة يده بحركة سريعة مستغلاً استدارة رئيس العمال نحو اليمين ليشعل سيجارته ، ونفث دخانها في الهواء ثم ابتسم من جديد وغادره . شعر بالحرارة تصعد إلى وجهه . . بقي واقفاً مكانه يستعيد كلمات رئيسه بإحساس غريب بالخوف . . هل ما قاله له كان عفوياً ، أم تحذيراً مسبقاً؟ كان مفزوعاً طوال اليوم وهو يتخيل نفسه وقد صارت أفكاره مكشوفة . . هل يمكن للأفكار أن تكون مكشوفة حقاً؟ لم يفعل شيئاً يجعله يثير شكوك أحد ، كان يأتي صباحاً ويشتغل بلا كلمة ، مستفيداً من الشغل ليثبت أنه جدير بالثقة . . لا أحد قال له ما قاله رئيس العمال : «غيرك كان سيستغل وجوده هنا ليركب على متن سفينة محاولاً الهرب!!» كأنه يذكره بالثقة التي وضعها فيه ، وعلى أساسها وظفه في الميناء ، ليس تقديراً لوالده ، بقدر ما كان تعاطفاً معه هو الشاب النحيف الشاحب الذي لم يكن شيئا قبلاً ، وصار حمالاً يتقاضى راتباً شهرياً يحسده عليه ربع شباب المدينة! شعر بالإحباط ، وبرغم ذلك ، كان يشتغل بهمة ، غير آبه بالتعب ، كأنه ليثبت لرئيسه أنه ليس هنا ليهرب . .! وكانت تلك أولى الخيانات التي ارتكبها ضد أحلامه الشخصية!

- ٥ -

تسرب الوقت منه ومضت سنة كاملة بسرعة البرق . . كان مذهولاً وهو يتساءل في نفسه : هل هذه هي الحياة التي يستحقها؟ قبل سنة ، حلم بغربة يختارها عن قناعة كخيار وحيد بالنسبة إليه . في طفولته كان يحلم بالهرب من البيت ، وعندما كبر قليلاً صار يفكر في الهرب من البلاد كلها ، مع ذلك عجز عن الهرب ، لأنه طوال عام ظل يثبت لرئيسه أنه هنا ليعمل ، وظل يثبت لوالده أنه يستحق الثقة ، ولبقية العمال أنه يستحق الاحترام . .! هل يمكن لحمال أن ينتظر احتراماً من أحد؟ كان يفكر لأيام طويلة بأنه لو جمع شجاعته لاستطاع أن يقفز على متن إحدى السفن ، لكنه ظل يخاف من الفشل . . كان يدرك أنه لو فشل في الهرب فسيودعونه السجن ويطردون والده من العمل . . يشعر أنه لو فشل - وسيفشل - فلن ينتهي حلمه فقط ، بل وينتهي والده إلى الأبد ، ولهذا لفته قوة غريبة تطلب منه البقاء . . قوة داخلية لا علاقة لها بيأسه أو إحباطه أو إقراره بالفشل بينه وبين نفسه . . قوة أخرى مختلفة تهمس له أحياناً بصوت ناعم : مكانك هنا يا «لخضر» . . مكانك هنا يا بني . . . ! أحيانا يحاول خنق ذلك الصوت لينجو بجلده نحو حريته التي يسميها والده تسكعاً . . كان يشعر بالانكسار في داخله لأنه يؤدي عملاً يعيده إلى البيت متعباً وفارغاً من الفرح ، وكان والده يكتفي بذلك منه ، لم يكن

يتوقع منه أكثر مما يؤديه، فهو يقبض راتبه دون أن يعترض. تمنى لخضر لو يسأله كأي أب يسأل ولده البكر: ماذا تحتاج لأفعله لأجلك يا بني؟ لم يسأله قط ماذا ينقصه؟ لم يقل له قط: عليك أن تشتري حذاءاً جديداً بدل حذائك الممزق هذا.. لم يشتر له والده شيئاً منذ سنين، وعندما توظف لم يستطع أن يشتري شيئا لنفسه، كلما فكر في ذلك يوقفه صوت والده:

- إخوانك بأمس الحاجة إلى المال.. أنت كبرت وصرت رجلاً تستطيع أن تتحمل، بينما هم صغار!

كأن الرجولة تعني أن تظل بائساً إلى الأبد؟ كان يشتهي أشياء يدفنها في داخله كي لا تظهر على ملامحه.. حتى عندما يجلس لساعة يخيط حذاءه الممزق أمام أعين أبيه الذي يتظاهر أنه لم يره، فيتمنى لو يشتري لنفسه شيئاً جديداً يتباهى به أمام نفسه.. كان يعمل دون أن يقبض شيئاً لنفسه.. يعمل ليقبض والده وليقول له: أصبحت رجلاً الآن! فلا يرد، ويكتفي بصمت يشعره بالاشمئزاز إزاء نفسه..!

في الميناء.. يصغي إلى حكايات الناس وأخبار الوطن.. كانت أخبار الوطن تتجسد أمام عينيه على شكل البضائع التي تصل من الخارج، بأسماء شخصيات معروفة في البلاد، تعوّد على رؤية صورهم في الجريدة اليومية، ثم أصبح يراهم بلحمهم وشحمهم وغطرستهم كلما جاءوا شخصياً لتسلمها، بينما مدير الميناء، ككل مرة تأتي شخصية مهمة، ينزل بنفسه لمباشرة عملية نقل البضائع من المستودعات إلى الشاحنات، طالباً من الشخص المهم أن يأتي إلى مكتبه لتناول القهوة بانتظار أن ينتهي العمال من مهمتهم، وكان رئيس العمال يبدو عصبياً وهو يطلب من العمال السرعة في نقل البضائع خارج المستودعات..

ساعتان من الركض الجنوني ثم ينتهي كل شيء . . ينزل السيد المهم من مكتب المدير مغلق الوجه ، ويمضي في سيارته التي يفتح له سائقه الشخصي بابها لتنطلق والشاحنات خلفها . . فكر لخضر كثيراً لماذا يضطر سيد بهذه الأهمية إلى التنقل بنفسه إلى الميناء لمباشرة عملية يستطيع أن يكلّف أي شخص بها؟ قال له الشيخ إبراهيم وهو ينفض الغبار الكثيف عن ثيابه . .

ـ سنظل حميراً داخل إسطبل السادة !

وشعر «لخضر» بالتعاطف وهو يسمع كلامه ، لا لشيء سوى لأنه يرى في الشيخ إبراهيم شخصاً حكيماً وزاهداً في هذا المكان . . لم يسمعه ينتقد الأوضاع قط . . كان الوحيد الذي لا يتكلم في الأمور التي يتكلم فيها بقية العمال ، ربما عن قناعة أن الكلام مجرد «خُرطي» كما يقولها دائماً بنبرته العاصمية الواضحة . . يومها جلس إلى جوار الشيخ إبراهيم ـ هكذا ينادي له الجميع بمن فيهم رئيس العمال تقديرا لسنه الستينية ـ رد عليه بصوت أراده طبيعياً :

ـ إنه عملنا يا عمي إبراهيم . .!

نظر إليه إبراهيم متناولاً سيجارة من جيب سترته الزرقاء الرثة . . أشعلها بعود كبريت ظل يراقب ناره بصمت ، وحين وصلت النار إلى أصبعه رماه بسرعة . . سعل قبل أن يجيب أخيراً :

ـ أجل يا بني . . إنه عملنا . .!

سأله لخضر بالصوت الطبيعي ذاته :

ـ حضور هؤلاء المهمين هو الذي يربكنا . لو أرسلوا شخصاً آخر ليشرف على نقل البضائع لكان أحسن لنا!

ابتسم إبراهيم وهو ينظر إليه ثم بعد صمت قصير رد :

ـ كما ترى يا بني . . عندما تكون البضاعة مهمة يأتون بأنفسهم ، وإن كانت البضاعة أقل أهمية يرسلون من يشرف على نقلها . .

ـ هل بضاعة اليوم مهمة؟

نظر إليه إبراهيم نظرة طويلة وثاقبة . . فكر بينه وبين نفسه : هذا الشاب الساذج الذي سينهي حياته هنا لأنه لن يجد أين ينهيها . . تراءى له شبابه فجأة . . قبل ثلاثين سنة كان مثله ، يحلم بوضع يحقق عبره ذاته . صحيح أنه لم يدرس ليحلم بغير هذه المهنة . . لكنه لم يحقق شيئا في النهاية . . أنهى حياته بين الميناء وبيت لم يعوضه شيء في غياب ابن يعتمد عليه كما يعتمد اليوم سي عثمان على ابنه «لخضر» . لهذا لم يشعر أن عليه أن يتوقف عن العمل بحكم سنه . . كان يعمل لأجل ألا يبقى وحيداً بعد رحيل زوجته قبل أربعة أعوام . ظل يعود إلى بيت خال من الضوء ، ومن الكلام . . يعود فارغاً من بهجة الرجوع إلى البيت . . ينام منهكاً ليستيقظ في الغد نحو العمل نفسه والنهار نفسه والتعب اليومي نفسه . نظر إبراهيم إلى الشاب وقال :

ـ نعم يا بني أعتقد أن بضاعة اليوم مهمة . .!

وقبل أن يقول لخضر شيئا أضاف بنبرة حزينة :

ـ ما نراه أقل أهمية هو الذي يظل مهما لهؤلاء . إنهم يجدون في لا قيمتنا سبباً للثراء . . لهذا يحتاجوننا كي نحمل الصناديق ونحمل الأسى والهم بدلا منهم . . تلك هي الحياة . .!

من قال أن تلك هي الحياة؟ قالها لخضر في نفسه . . هل الحياة معناها أن يظل الحمال حمالاً عن حاجة أم عن واجب؟ هو لا يشعر أنه هنا عن واجب ، لهذا يعرف أنه لن ينهي عمره في هذا المكان القاتم . . أحياناً يرى هؤلاء المهمين يأتون مصحوبين بأبنائهم المتأنقين جداً . بعضهم في مثل

سنه ، كما حدث في تلك الصبيحة الباردة حين جاء شاب مع أبيه ليتسلم بضاعة وصلت منذ ساعات . . كان في مثل سنه تقريباً ، كثير الأوامر ، عصبياً . . شعر لخضر بشيء يخز قلبه وهو يركض حاملاً تلك الأكياس نحو الشاحنات ، ويلهث غير قادر على أخذ أنفاسه . . مع هذا تخيل نفسه مكان الشاب الأنيق المتغطرس . تخيل نفسه واقفاً فارعاً طوله ، يأمر ويتذمر ويصرخ ليجد من يصغي إليه ويأتمر بأمره قائلا له : «صدقت يا سيدي!» . أعاده صراخ الشاب إلى واقعه . وجد نفسه غير قادر على صلب طوله من شدة الألم الذي انتابه من ثقل الصناديق . توقف لحظة يسترجع أنفاسه قبل أن يصرخ فيه الشاب من جديد ، وفي غمرة الركض رأى الشيخ إبراهيم ينهار على الأرض ، وبشكل عفوي وجد نفسه يركض نحوه . . فجأة شعر بشيء عنيف يحط على رأسه . مضت دقيقة قبل أن يفهم ما جرى . . كان الشاب الأنيق الغاضب واقفاً وواضعاً حذاءه على رأسه . قال له بصوت عصبي حد الهيجان :

ـ كأنك تتحداني أيها البائس . .!

بذلك الحذاء على رأسه لم يجد القوة ليرد . . شعر أنه يتألم . . قال أخيراً :

ـ العم إبراهيم مريض . . مريض . .!

يعرف أن إبراهيم مريض منذ رآه ذات يوم يسعل بحدة ، قبل أن يرى الدم ينز من فمه . كان الأمر أشبه ما يكون بسر بينهما منذ قال له بصوت مليء بالرجاء :

ـ لو علموا أنني مريض فلن يتركوني أعمل . . وسأموت لو لم أعمل . .!

يومها أراد أن يقنعه بالعلاج . فرد عليه إبراهيم بصوت حزين :

ـ عـلاجي الوحـيـد في عـملي يا بني . . لو توقـفت عن العـمل سأموت . .!

ـ . . . . . .

ـ صدقني ، عملي ليس مجرد راتب ، بل هو حياتي التي قضيتها في هذا المكان . . الميناء بيتي الوحـيـد . . كل قطعـة من هذا المكان تعـرفني جيداً . . تحفظ صورتي الأولى أيام جئت إلى هنا غضـاً وحالماً . . لا أريد ترك المكان لأي سبب كان . .!

وبعـد صمت تنهـد إبراهيم وهو يضيف بابتسـامـة حزينة واضعـاً يده على كتف لخضر :

ـ سأعـتـمد عليك يا ابني ، لا أريد أن يعرف أحـد بمرضي! أنا أعـتـمد عليك يا رجل!

ذلك الوعـد الذي يربطه الناس بالرجولة ليظل وعداً مختوماً بالشمع الأحـمر! هل كان عليه أن يتكلم؟ يعرف أنه لم يكن يقدر على الكلام ، فـحال الرجال لا يعني سـواهم ، يقول والده ليذكـره بأشـيـاء لا يريد أن يتذكرها . . كان إبراهيم منهاراً على الأرض يتنفس بصعوبة شديدة وقد بدأ خيط من الدم يأخذ مساراً من فمه إلى ذقنه . التمّ الحمالون حوله ، وجاء رئيس العـمـال رفقة طبيب الميناء الذي قال بصوت لا يخلو من تأنيب :

ـ انقلوه إلى عيادتي بسرعة . .!

نقله اثنان ، وحين حـاول لخضر الذهاب معـهم منعـه الشاب بنظرة حازمة . . قال له بصوت من لا يحب تكرار الكلام :

ـ استمر في العمل وإلا سيكون لي تصرف آخر معك!

جره والده من يده بقوة ليعـود إلى عـمله . . هل يمكن فـهم سـبب

غضب شاب أنيق وثري من حمال فقير ونحيل؟ كيف يمكن أن يتربص به ، ويلاحقه بعينيه المليئتين بالحقد الغامض . . تساءل لخضر بينه وبين نفسه ما الذي فعله ليثير كل ذلك الحنق عليه؟ كان يحمل الصناديق غير آبه بثقلها وقد تملكته حالة من الثورة الشديدة في داخله . . خيّل إليه أنه قاب قوسين أو أدنى من الصراخ وهو يجابه الدموع التي أبت كرامته أن يتركها تنزل على خده ، وعندما انتهوا من ترتيب الصناديق على متن الشاحنات ، همّ للاطمئنان على إبراهيم ، لكن والده شده من ذراعه وقال له بغضب :

- كيف تجرؤ وتتحدى شخصاً مثل ابن الوزير بذلك الشكل؟ هل جننت؟

- لم أتحداه . . !

- بل تحديته . كنت أنظر إليك وأنت تحدق فيه بعينيك! كيف تجرؤ على النظر إليه بتلك الطريقة!

- وهل النظر ممنوع؟

- نعم! علينا أن نغض النظر في وجود الأسياد ، لأننا لسنا نداً لهم . أنت مجرد حمّال بينما هو صاحب البضاعة التي تحملها على ظهرك . .!

نظر إلى أبيه غير راغب في مواصلة حديث غير مجد . تساءل بينه وبين نفسه : هل يمكن لنظرات عادية أن تتحدى شخصاً واثقاً ومغروراً ومتعالياً؟ هل عليه ألا ينظر إلى شخص في عينيه كي لا يقال إنه يتحداه؟ ركض إلى عيادة الميناء . وجدها خالية إلا من ممرض بليد قال له بصوت غير متحمس للرد على الأسئلة :

- لقد نقل المريض إلى المستشفى . لا أعرف شيئاً آخر!

وبينما هو عائد من العيادة استوقفه رئيس العمال . نظر إليه ملياً قبل

أن يقول له بصوت هادئ :

ـ أنا لست هنا لأعاتبك أو لألومك ، لأني أعرف جيدا ما جرى . . إنما دعني أقول لك : أحيانا تتجاوز الأشياء قدرة الشخص على فهمها . .!

وقبل أن يفهم «لخضر» ما يعنيه ، أضاف قائلاً :

ـ كان السيد «خالد» غاضباً جداً وهو يغادر الميناء . أنا أعرف أنك لم تفعل شيئاً سيئاً ، ولكن أريد أن تنتبه إلى أنك تشتغل هنا عند كل هؤلاء المهمّين . لا تعتقد أنك موظف عند الدولة ، بل أنت موظف عندهم ، لأنهم هم الدولة . .! وإن أردت ألا تجد نفسك في السجن أو في الشارع ، عليك أن تستوعب أن في حضور هؤلاء يتحوّل البسطاء مثلنا إلى «لا شيء» لا أكثر ولا أقل . .!

رد لخضر بصوت حاول ألا يمتزج بحشرجة إحساسه بالخزي :

ـ لم أفعل شيئاً يا سيدي . لقد وضع حذاءه على رأسي لمجرد أني أردت مساعدة الشيخ إبراهيم عندما سقط أمام أعيننا!

ـ أعرف . .! لكن عليك أن تفهم أن الأشخاص من عينة «السيد خالد» كثيرون ، أنت هنا لتعمل ولأجل أن تعمل عليك أن تتحمل مزاج الأشخاص وغضبهم وساديتهم ، وغرورهم الذي يبرره موقعهم كأشخاص مهمين . . لو لم يكن السيد «خالد» ابن وزير لما فعل ما فعله !

كمن ارتكب جريمة ، بدا متهماً بالشغب فجأة . . هل كل هذا الدرس لأجل نظرة قال له والده إنها لم تكن عادية ولا بريئة؟ لا ينكر أنه شعر بالغيرة من الشاب المتعالي ، وتمنى لو كان مكانه ، بل وتخيل نفسه مكانه يأمر وينهر ويغتر . . هل كانت لتلك الأحلام نظرة خاصة ظهرت في عينيه ورآها السيد خالد مثلما رآها والده ، ومثلما رآها رئيس العمال ، ومثلما رآها المدير الذي جاءه يقول بالغضب نفسه :

ـ خطأ آخر كالذي ارتكبته اليوم وستجد نفسك في السجن أو في الشارع ، أنا أحذرك!

لم يكن يعنيه كل ذلك التحذير ، بقدر ما كان يعنيه السؤال عن حالة الشيخ إبراهيم . . قال لهم الطبيب بصوت ضجر :

ـ حالته سيئة جداً . لقد استولى المرض عليه ، ونخشى في سنه هذه أن يهزمه . . . .! سيبقى في المستشفى . أرجو أن نستطيع فعل شيء لأجله . .!

هل يمكن لشخص مريض أن يشفى؟ شخص لا حاجة له للشفاء ولا للحياة . . شخص فقد الرغبة والقدرة عليهما . . ألم يقل له رئيس العمال إن الأسياد خلقوا ليعطوا الأوامر؟ فلم خلق العبيد إذاً . . ألم يخلقوا ليمرضوا وليهزمهم المرض باستسلامهم للموت . . تذكر كلماته التي ظلت تتكرر في مخيلته لأيام :

ـ صدقني أن عملي ليس مجرد راتب . عملي حياتي التي قضيتها في هذا المكان . . الميناء هو بيتي الوحيد . كل قطعة من هذا المكان تعرفني جيدا ، تحفظ صورتي الأولى أيام جئت إلى هنا غضاً وحالماً . . لا أريد أن أترك المكان لأي سبب كان!

ألم يكن الموت سببا كافيا ليترك العمل؟ قبل نهاية الدوام بساعة جاء الخبر من المستشفى على شكل جملة قصيرة لا تقبل التكرار :

الشيخ إبراهيم في ذمة الله . . . . .!

من يتوقف لموت شخص يرى الناس في موته راحة له وانتهاء لأثقاله؟ من يبكي على شخص عاش غريباً ومات غريباً . . الذين حضروا دفنه لم يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة . كلهم من زملائه المقربين الذين اعتقدوا أن حضورهم سيكون وفاءاً أخيراً لأجله . غاب المدير ، وغاب

أولئك الذين كان يحمل بضائعهم على كتفيه ، على مدى ثلاثين سنة ، وطوى الجميع صفحته . . لم يعد يتذكره سوى القلة الذين أحيانا يتطرقون إلى ذكريات هو جزء منها . . والده نفسه لم يتوقف كثيراً أمام رحيل شخص يعتقد أنه ارتاح من عبء الحياة وكدحها اللا متناهي . قال له محاولاً أن يبدو حكيماً :

ـ رحل الشيخ إبراهيم آخذاً كل شيء معه . . الذين يموتون تاركين أبناء ومطالب يومية لن يرتاحوا في قبرهم . . سيظلون يفكرون فيهم وفي لقمتهم وكسوتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن فيها . . .!

الأبناء . .! الأبناء . .! الأبناء . .!

كما لو أنه ليس ابنه . . لم يسأله قط ما هي مطالبك؟ أو ماذا تريد وما لا تريد من هذه الدنيا؟ ها هو يقترب من الثالثة والعشرين من العمر ، خالياً من الدفء الذي يحلم به شخص في سنه إزاء حياة تبدو له يوما بعد يوم فارغة ومهولة تصنع من البؤساء بؤساء ، ومن السعداء سعداء . .! لطالما تساءل متى سيشعر والده بمطالبه أيضا! ومتى يستوعب والده أنه ليس مجبراً أن يصرف على أشخاص يعاملونه بحيادية لا تخلو من كراهية مبيّتة ، فلم يكن يشعر بشيء نحو إخوته ، مثلما لم يكن إخوته يشعرون بشيء نحوه . . كان شخصاً غريباً بينهم ، تعودوا عليه عن حاجة تسد الثقوب اليومية داخل مطالبهم الدائمة . . لم يقل له أحد «يا أخي» كما يمكن لأخ أن يقولها لأخيه بعفوية حارة ، ربما لأن أمهم لم تترك بينهم مكاناً للحب ، فقد سدّت كل الأماكن المحتملة وملأتها بالضغينة التي صنعت منه غريباً في بيت يأتي إليه كل مساء لينام فقط . .! فلماذا لا يقول له أبوه كما يقول أب لابنه : ما الذي يسعدك يا بني؟ كان موظفاً فارغاً من المعنى . يحلم بالمال والثراء . يحلم أن ينظر إليه كسيد محترم ،

ويعرف أنها أضغاث أحلام كلما وجد نفسه يشتهي أشياء بسيطة . . يقف أحياناً أمام واجهة مطعم وينظر إلى الناس يأكلون بنهم ، يراقب وجوههم . . يريد أن يرى وجه شخص يأكل حتى الشبع . . شخص يطلب ما يشتهيه دونما خوف على ميزانية البيت وعلى مطالب إخوة يكرهونه . .! فيرى شباباً يجلسون فرحين ، بعضهم يجلس قبالة فتاة خجولة أو سعيدة ، ينحني عليها ليهمس في أذنها بشيء فتبتسم أو تضحك . أحياناً يتخيل نفسه وقد صار شخصاً آخر . . يتخيل نفسه يترجل من سيارته واثقاً بغرور ، فتنزل فتاة جميلة من الباب الثاني للسيارة . . يتخيل جمالها وسعادتها وهي تمد يدها لتتأبط ذراعه بتملك ، وفرح ، ثم يدخلان معاً إلى المطعم أمام أعين الموجودين الذين بعضهم ينظر إليه بإعجاب وبعضهم ينظر إليه بحسد . . يجلس واثقاً وينتظر حضور النادل الذي ينحني أمامهما بوقار ، ويسأله بصوت مليء بالاحترام :

ـ هل يأمر السيد بالغداء؟

ترن كلمة السيد في أذنه ، ويرفع عينيه إلى النادل ويشير له بطرف إصبعه أن يعود بعد قليل . . بثقة تثير زهوه أمام فتاته الجميلة . . .! اكتشف أنه يبتسم ، وأن ابتسامته ظهرت واضحة عبر واجهة المطعم الذي وقف أمامه . شعر بالفزع وهو يرى ملامح وجهه وعينيه القاتمتين . . اكتشف أنه ليس وسيماً ولا مفتول العضلات كما في خياله . . لم يكن هو الذي يراه في أحلامه . . كان يتخيل نفسه بطلاً يراه في فيلم يدخل إلى السينما في نهاية الأسبوع ليراه . لم يكن يدفع ، بل يتسلل إلى السينما حين يغلق شباك الدخول . . يقفز من فوق السور ويتسلل إلى الداخل دون أن يراه أحد . يجلس في المقعد الأخير ليتسنى له الهرب بمجرد اقتراب الفيلم من النهاية ، قبل أن تضاء القاعة ويتعرف كل شخص على الجالس بالقرب

منه . . كان يعشق الأفلام البوليسية ، وأفلام الجاسوسية! تلك التي تشعره أن القوة كائن حي ، وأنه يستطيع بطريقة ما أن يصبح بطلاً كذلك البطل الهلامي الذي يتكرر في الأفلام التي يراها . . يُقتل ولا يموت ، إذ يراه في فيلم جديد متقمصا دوراً آخر . . كان يرى نفسه جاسوساً لحساب شبكة ما ، مغامراً وقادراً على تخطي الصعاب ، ليلتقي في النهاية بحبيبة جميلة ودافئة ، تقول له : أحبك . . كما تقولها البطلة للبطل الوسيم مفتول العضلات . . ! لطالما أنقذه خياله من الكآبة والقهر اللذين يطاردانه كل يوم ، ولكنه كان يصعق حين تظهر ملامحه على زجاج واجهة ما ، فيكتشف أنه لن يكون بطلاً ، وألاّ فتاة ستقول له أحبك ، لأنه لا يثير أكثر من الشفقة كمتسول يطلب الحنان بدل الخبز . . .! هل كان ممنوعاً من الحب ، كعملة ممنوعة من الصرف؟ لم يشعر قط بما يشعر به الآخرون الذين أحياناً تنظر إليهم فتاة نظرة إعجاب وتمضي . . كل الذين ينظرون إليه يمضون بلا التفاتة ، وحين يحاول أن يبحلق في فتاة تعجبه ، يشعر أنه يثير السخرية بشكله البائس وثيابه الرثة . .! فهل كان عليه أن يواصل عمره خالياً من الحب؟ فجأة صار يشعر أنه قاب قوسين من الانهيار قبالة حياته الكئيبة ، وعمله ، والوجوه التي يقابلها يومياً ليحكي معها الكلام نفسه وليسمع منها الرد نفسه . . كان يشعر أن الحياة بطولها وعرضها لا تساوي جزمته الممزقة ، وأنه بطريقة ما لم يعد قادراً على المضي قدماً أبعد من ذلك . تلك حالة من الكآبة كانت تصنع في ذاته طريقاً معبداً بالضغينة والكراهية لكل شيء وأي شيء . . ! صحيح أنه آمن من البداية أن الفرح لم يخلق لأجله ، بل لأجل الذين يضعون جزمتهم على رأسه كلما تجرأ وبحلق في أحدهم . .! ثم ما الفرح؟ كل ما حوله يثير الكآبة ، كلما تذكر العمر الذي يهرب منه فارغاً من الأمنيات . . فكر أن حياته لا جدوى منها

وأنه لو مات فجأة فلن يجد من يفتقده . . ربما سيبكي والده على راتبه الذي لن يأخذه منه إن هو مات ، لكنه لن يبكي عليه ، ولن يترك في نفوس الآخرين تلك المساحة التي يتركها شخص نحبه ونتمنى أن يبقى حياً لأننا نحبه . .! كان يشعر أنه يمضي إلى اللاشيء وسينتهي إلى اللاشيء . . سينتهي كما انتهى الشيخ إبراهيم حاملاً أحزانه الشخصية وخيباته الذاتية الكثيرة إزاء الحياة وإزاء الذين اعتقد أنهم يحبونه ليكتشف ألا وقت للحب قبالة لقمة العيش . . هل يمكن لفقير أن يعلن الحب وهو يركض خلف خبزته اليومية ، تاركاً كرامته خلفه ، تاركاً كبرياءه خلفه ، تاركاً إنسانيته خلفه؟ لا شيء أهم من الخبز . .! هل كان عليه أن يتقبل حياته بإحساس مختلف ليشعر أنه سعيد بكل هذا الهباء الذي يرسم حياته بالطباشير المبللة بالسخرية؟ كان حزيناً لأنه لم يعرف في حياته شعوراً آخر سوى الحزن . . كان يكره نفسه لأنها تذكره بعيوبه وببؤسه وبحذائه المثقوب الذي عبثاً يحاول أن يخفي ثقوبه عن أعين الناس الذين ينظرون إلى حذائه قبل النظر إلى عينيه . .! فما الفرح قبالة كل هذا الهباء إذا؟!

-٦-

ككل يوم وككل مرة ، يعود إلى البيت غير آبه بشيء . . مطأطئ الرأس لئلا يلمح عيون شباب الحي الذين تعوّد على عدم الاحتكاك بهم . .

- الاحتكاك مفسدة مطلقة لشاب مثلك!

يقولها والده كلما سنحت الفرصة ليذكّره ألا وقت ليصاحب أحداً ، وكان يتمنى في قرارة نفسه لو كان له صديق حقيقي يشاطره أحزانه وآلامه كما يفعل أي شاب في مثل سنه . . أو صديقة . .؟ ابتسم بينه وبين نفسه وهو يتخيل شكله يصاحب فتاة . . ! فتاة تصغي إليه وتخرج معه في أيام العطل . . تمشي معه وتحكي وتسمع ما يقوله . .! كم يبدو ذلك بعيد المنال! قالها في نفسه وهو يمشي بخطوات رتيبة بينما والده يمشي إلى جانبه صامتاً . . ثم فجأة خيل إليه أنها تنظر إليه . . تلك التي كانت تتأبط محفظتها الصغيرة وتسبقه بخطوات واثقة وجريئة . . شعر أن خطواته بدأت ترتبك فجأة وهو يكتشف أنها تنظر إليه . . نظرة بدت له جميلة . . شعر بقلبه يدق بينما الفتاة تمشي بالخطوات الواثقة نفسها ، ثم ابتعدت بعيداً بينما انحدر هو يمين الشارع ليدخل إلى البيت . . كان يعرف أنها مخيلته التي ترسم له تلك الأدوار الخيالية ، لكنه فكر أنه ارتبك أمام حلم من صنع خياله . . ارتبك وهو يرى عينين تنظران إليه نظرة جديدة ،

واضحة وخالية من السخرية . .! وعندما رآها ثانية في اليوم التالي ، تأكد أنه لم يحلم ، وأنها تنظر إليه بين الفنية والأخرى مبتسمة بجمال!

ـ الشاب المؤدب لا يبحلق في بنات الناس بعينين فارغتين . .! لا نريد مشاكل مع أحد!

هل كانت نظراته تجلب المشاكل حقاً؟ اكتشف أنها المرة الثانية التي يقولها له والده بهذا الصوت الغاضب . .تساءل ماذا يوجد في نظراته ليشعر والده بالغضب منه بهذا الشكل؟ لكنه لم يرتدع ، فقد ظل يراها كلما عاد من عمله ، في الساعة نفسها . . يصادفها تمشي بالخطوات الواثقة نفسها ، والابتسامة الجميلة التي لم يكن يحتاج إلى أجمل منها ليشعر أن قلبه يدق في أذنيه ، وأنه يتحوّل من شاب بائس إلى شاب مرتبك . . لم يكن يعرفها . لا يعرف سوى ملامحها التي يلتقيها دقائق هاربة في مساء ينتظره كل يوم لأجلها ، ثم عندما يضع رأسه على المخدة ليلاً يجد نفسه يفكر فيها . يتخيل نفسه فجأة يمشي معها في شارع طويل متأبطة ذراعه ، كدعوة صريحة إلى الحب . .! الحب؟ ما الحب غير هذه الأحلام الساذجة والحارة؟ لم يقل له أحد أحبك . . حتى والده لم يقلها له قط . . قالها لأبنائه الآخرين . . سمعه يقولها لهم بحرصه على إسعادهم . بخوفه عليهم من المرض ، أو من مجرد الرشح . . كان والده حاضراً في حياة إخوته ، وغائباً في حياته . إن سعل يتظاهر بعدم سماع سعاله ، كي لا يفكر أن السعال يكلف طبيباً ودواء ومصاريف غير محسوب حسابها! أحياناً يصاب بالرشح فعلا لكن والده يظل مصراً على عدم الاكتراث . . يوقظه صباحاً بصوته الحازم :

ـ هيا انهض وكف عن الكسل ولا تكن مثل البنات . أنت رجل والرجال لا ينامون نهارا!

كان بحاجة إلى شيء آخر وخارق يغير في حياته . مستعد أن يدفع حياته في سبيل شيء اسمه الفرح . . محتاج أن يحبه الآخرون ليس عن حاجة ، بل عن حب . . يحتاج إلى من يقول له : اعتن بنفسك . عن حب . . كان يريد أن يفعل أي شيء لأجل أن يجد من ينظر إليه نظرة واضحة خالية من الشفقة أو من السخرية . . وجد نفسه يفكر فيها بقوة ويلاحقها دون أن تنتبه . . عرف أنها ابنة بقال يسكن في نهاية الشارع الآخر . . أصبح يذهب إلى تلك الدكانة الصغيرة ليشتري شيئاً للبيت ، فيستقبله الرجل بابتسامة طيبة لا تخلو من مصلحة :

ـ ماذا تريد أن تشتري يا بني . . الدكان تحت أمرك . . .!

تلك العبارة التي لا يقولها لكل الناس . يقولها فقط للموظفين القادرين على دفع ثمن ما يشترونه . لا ينكر «الخضر» طيبة الرجل ، وإنسانيته ، فقد كانت له دفاتر خاصة يجرد فيها ما يشتريه الزبائن الاعتياديون الذين يدفعون له في نهاية الشهر بالتقسيط . . كان يحتملهم لأنهم زبائنه الأوفياء ، ولأنه يشعر أنه يفعل شيئا يجعل دعواه إلى الله مستجابة ، بأن يرزقه بولد يحمل عبء المسؤولية معه . أحياناً يشكو له عفوياً تأخر البعض عن الدفع دون ذكر أسمائهم . . كان يرى في التعميم جدار صد ضد أولئك الذين يفكرون في فتح دفتر للدفع المؤجل . .! فيرد عليه «الخضر» بصوت يريده واثقا :

ـ واش تحب يا عمي نوح ، ليست كل الناس قادرة على شراء ما تريد .لا بد أن يكون هنالك طيبون مثلك لتمشي الحياة . .!

وكان «نوح» يرضى بتلك الإجابة التي تبدو طيبة ، خصوصاً حين تأتي من شاب يرى أنه يكافح لأجل أسرته . كان «نوح» يحب هذا النوع من الشباب ، ولا يخفي أنه يتمنى أن يرزقه الله بولد يشبه «الخضر» في

كفاحه . . قال له بعض الناس : لا تقلق يا سي نوح ، سيكون لك الولد آجلاً أم عاجلاً . . أنت طيب ولن يخذلك الرحمن أبداً . . كان يتلقى هذا الكلام كعزاء لا يمكن الوقوف أمامه بأكثر من الصمت ، لأنه يريد الولد ، ولأنه يخشى أن يموت فجأة دون أن تتحقق له هذه الأمنية . . فهو يشعر أن الناس سوف يطمعون فيه إن لم ينجب الولد ، وسيطمعون في بناته لأجل أن يرثوا تلك الدكانة الصغيرة التي يقتات منها البسطاء بنظام دفتر الديون . فقد تقدم إليه منذ شهرين عريس يطلب يد ابنته الكبرى «زهرة» . . كان مسروراً كأي أب يتمنى أن تتزوج بناته ، ومستعداً لقبول طلبه ، سأله ذلك السؤال الروتيني :

ـ ماذا تشتغل يا بني . . .؟

فرد الشاب بصوت لا يخلو من صراحة :

ـ في الحقيقة لا أشتغل شيئاً ، لكني أتمنى بعد الزواج أن تعطيني فرصة الوقوف معك في الدكان . . لن تجد أأمن من زوج ابنتك . .!

وإن صعقه الرد المباشر وغير المتوقع إلا أنه لم يخف إعجابه بجرأة الشاب الذي أتى طامعاً ومصرحاً بذلك دونما خجل . لم يكن الشاب سيئاً لو كان يشتغل ، لكنه لم يقبل به ، ولم يشعر أن عليه إخبار أحد من أهل بيته بالأمر ، خصوصاً «زهرة» التي تركت دراستها طواعية بانتظار عريس! فلم تكن زهرة جميلة بالمعنى المتعارف للجمال . . كانت تبدو له أحياناً كولد له شعر طويل ونهدان واضحان . . لم يكن فيها من الأنوثة ما يجعل الشباب يتهافتون عليها ، رغم أنها سيدة بيت جيدة ، وقادرة على الاعتناء ببيت وزوج وأبناء . بينما ابنته الوسطى «سلمى» كانت أقل حماسة للزواج ، ربما لأنها كانت تحلم بإكمال دراستها وفشلت فكان فشلها صدمة لها ظلت تنغص عليها حياتها . . بينما الصغرى «نجاة» كانت الأجمل

والأفضل في عينيه . . صحيح أنها أقل من أختيها حذقاً في أعمال البيت ، ولكنها كانت متفوقة في دراستها ، ومتفوقة في مجادلتها له وفي تطرفها كلما تمسكت برأيها فيصاب بحالة من البهجة وهو ينظر إليها ثم ينفجر بالضحك . . لو كانت نجاة ولداً لاكتملت سعادته . . لم يكن نوح من النوع الذي يفرض آراءه على أسرته . كان يحب أن يحترم طريقة الجميع في التفكير ، طالما لا يتعارض ذلك مع مبادئه الخاصة ومع التقاليد التي يعتبرها جزءاً من سمعة الإنسان . لهذا لم يجد في استمرار «نجاة» بدراستها تناقضاً مع مبادئه ، بالرغم من أن أختيها كانتا تشعران بالغيرة من نجاحها ومن جمالها وجرأتها . . كان إقبال العرسان على طلب يد نجاة أكثر من إقبالهم على طلب يد أختيها ، وكانوا جيدين في نظره ، لكنه رفضهم جميعاً قائلا لهم : «نجاة ما تزال صغيرة وتريد أن تكمل دراستها أولاً . .!» ، لكنه لم يكن يقدر كأي أب طيب أن يزوج ابنته الصغرى على حساب أختيها الكبيرتين . .!

- إيه يا لخضر يا بنيٍ . . الله يفرجها على الجميع . . . .!

كان لخضر سعيداً يومها . . سعيداً لأنه جلس قليلاً في دكان نوح وتبادل معه حديثاً عاماً وعادياً ، وكان سعيداً لأن تلك الفتاة التي حركت مشاعره هي ابنته الأجمل . .!

أليس من الجنون أن يحلم بفتاة لمجرد أنها ابتسمت له؟ فكر أن الأمر لا يخلو من جنون ، ولكنه يحلم . . حتى لو ظل مجرد حلم يراوده إلى نهاية عمره! كان يريد أن يصدق حلمه ، ومستعد لذلك أن يدفع عمره! ربما لهذا ذهب إلى رئيس العمال ذات صباح يستأذنه للخروج باكراً مدعياً المرض ، ولأنها أول مرة يطلب فيها ذلك شعر رئيس العمال بالتعاطف معه . سمح له بالخروج فخرج مسرعاً كي لا يراه والده . وجد نفسه يمشي

قريباً من المدرسة التي تدرس فيها فتاته/ الحلم . . . اكتشف أن العديد من الشباب مثله ينتظرون قرب سور المدرسة . كل واحد ينتظر فتاة يعتقد أنها فتاته . .! شعر بخوف وهو يتساءل : ماذا لو أن هناك شاباً آخر ينتظر الفتاة نفسها؟ أليس هذا دليلاً على خيبة تثير السخرية منه؟ شعر أنه بحاجة إلى تصديق الكذبة على أن يواجهها أو يعيش دونها . . انتابه إحساس بالذعر وهو يرى الفتيات يخرجن من الثانوية . كل واحدة تعرف أنها جميلة في عيني شخص جاء لأجلها . . كن جميلات وواثقات من أنفسهن . مرحات وماكرات في صوتهن الصاخب . شعر بالخوف يسيطر عليه فقرر الانسحاب! جبان؟ لم يشعر بالجبن ، كان يريد أن يحافظ على ماء وجهه فقط ، ربما لأنه أحس بذعر مسبق من أن يكون هذا الفرح الذي انتابه لأيام متتالية مجرد كذبة تنتهي إلى استهزاء مدوٍّ . . نظر خلفه وهو يغادر مكتئباً ، وإذ به يراها . . تمشي وحيدة . متأبطة محفظتها . . كانت تبدو مستغربة وهي تراه في هذا المكان ، وإن امتزجت دهشتها بابتسامتها الجميلة ، ارتبك ، فكاد يتعثر في مشيته . . سمعها تضحك بهدوء . . نظر إليها من جديد ووجد نفسه يبتسم . لأول مرة يكتشف أنه قادر على الابتسام ببساطة وعفوية . . . توقف عن مشيته وقد زاد ارتباكه وهي تمشي نحوه بخطواتها الواثقة . . ثم عندما اقتربت منه قالت :

ـ هل كنت تنتظر أحداً قرب المدرسة؟

ـ أنا؟

وضحكت من جديد وهي تنظر إليه . . فكرت في نفسها : يا له من شخص غريب . كيف يمكن أن يحمر وجهه لسؤال سخيف كهذا؟ قال بعد صمت قصير :

ـ بصراحة . . . . أقصد أنني كنت أمر من هنا و . . .

ـ هل جئت إلى هنا لأجلي؟

فاجأه السؤال المباشر . . سعل ليكسب دقيقة كاملة بحثاً عن رد لن يجده . كانت تنظر إليه بابتسامة واسعة . . فكر في نفسه : كم هي جميلة . . أمام هذه الفكرة انتابته مسحة من الحزن وهو يتساءل : هل يمكن لجميلة كهذه أن تتوقف لشاب مثلي؟ أحس بما يشبه الخيبة وهو يتذكر ألا حق له في الحلم أكثر من هذا . . ولعلها شعرت بحزنه قالت له فجأة :

ـ هل أحرجك سؤالي ؟ إن لم تأت هنا لأجلي فانس الموضوع . . لا يحتاج الأمر إلى كل هذا الحرج . .!

قالتها وهي تزيح نظراتها عنه وتكمل طريقها غير آبهة برده . شعر بالفزع . ركض خلفها وهو يقول بصوت أراده صادقاً :

ـ كنت أريد أن أراك فقط . . . .!

توقفت ورفعت عينيها إليه . لم تبتسم ، بل ظلت تنظر إليه بعمق . . أفكار كثيرة عبرتها وهي تنظر إليه ، انتابها إحساس بالشفقة نحوه . . شفقة لم يسبق أن شعرت بها نحو أحد . فكرت أنها لم تتوقعه بهذا الانكسار حين كانت تراه يدخل الحي عائداً من العمل . صحيح أنها تعرف عنه ما يعرفه كل الناس ، ولكنها عندما رأته أول مرة رأت في عينيه شيئاً مغايراً ، شيئاً ثاقباً وقوياً وهائجاً كعاصفة مؤجلة ، وها هي تكتشف أنه يثير الشفقة ، وأنها لسبب غامض تشعر بالندم لأنها شجعته بنظراتها على الاقتراب منها! .

ـ هل ضايقتك؟

قالها بصوت ساذج . . كان ينظر إليها منتظراً كلمة منها ، ورغماً عنها وجدت نفسها تقول :

ـ لماذا تضايقني؟ لأنك جئت لتراني؟

- أجل . . جئت لأراك . .!

ونظرت إليه بدهشة . لاحت تلك النظرة الثاقبة في عينيه ووجدت نفسها تبتسم رغماً عنها . تساءلت . . هل ثمة ما يجبرها على هذا الحوار الساذج؟ لا شيء . . فهي جميلة وتثير لعاب كل الشباب ، مع ذلك ، لم تشعر بشيء نحو أحد منهم . . تتذكر كلمات جدتها المرحومة : «يا نجاة يا بنتي . . هناك عينة من الرجال مثل الكلاب الضالة ، وعينة مثل الذئاب وعينة تشعرين أنك بحاجة إلى أن تعيشي معهم طول العمر . .!» كانت تشعر في قرارة نفسها أن «لخضر» من العينة الرابعة التي لم تذكرها جدتها : الرجال الذين لا يقدمون ولا يؤخرون شيئاً! حتى وهي تعترف بينها وبين نفسها أنها تشعر بشفقة غريبة نحوه . قال يحاول أن يرتب أفكاره :

- اسمي لخضر . .

وضحكت ضحكة صريحة جعلته يصمت . . نظر إليها بدهشة مليئة بالإحراج . . قالت مقاومة رغبتها في مزيد من الضحك :

- أعرف أن اسمك لخضر . . هل نسيت أننا من حي واحد؟ الأحياء بيوت كبيرة . . !

نظر إليها نظرة طفولية وابتسم . رد محاولا أن يرمم صوته :

- آسف . فكرت أنك لا تعرفين اسمي . .!

- وهل تعرف اسمي؟

- طبعا . أنت نجاة ابنة عمي نوح . .!

ضحكت من جديد ، وأمام ضحكها وجد نفسه يضحك ملء نفسه . .!

- أعتقد أن عليك أن تتركني أدخل إلى الحي وحدي . . أنت تعرف

عيون الناس وكلامهم . .!

كان يعرف عيون الناس وكلامهم . . تريث في مشيته لتسبقه بخطواتها الواثقة . . توقف طويلاً يستعيد تفاصيل ما جرى . هل ما حدث كان حلماً؟ ألم يكن حقيقة جميلة وحارة؟ تذكر أنه ما زال مرتبكاً يرتعش من الفرح . . تذكر رنة أول ضحكة حقيقية صدرت من قلبه وسمعها لأول مرة في حياته . . . . قال يخاطب نفسه :

ـ لم أكن أحلم . . كانت حقيقة . .!

هل كان يكفي لقاء كهذا ليجعله سعيداً كما لم يكن في حياته قط؟ لم يكن يريد التفكير سوى في شعور الفرح الذي كان يتملكه وهو عائد إلى البيت ليصطدم بوجه أبيه المغلق :

ـ لماذا غادرت عملك باكراً؟

ـ شعرت بالتعب فاستأذنت من رئيس العمال . .!

ـ ومن يشعر بالتعب يعود إلى البيت يدندن؟

هل كان يدندن؟ تجنب الدخول في جدال عقيم مع أبيه . . كان يريد أن يرتمي في فرشته ليهرب بخياله بعيداً . . ظل والده يراقبه بنظرات مليئة بالريبة . . فكر في نفسه «هذه أول مرة يفعلها ويغادر العمل قبل نهاية الدوام دون أن يعلمني! ماذا حدث يا ترى؟» كان والده يخاف من شيئين يشعر أنه لن يسمح بهما أبداً : الصحبة الفارغة وفتاة مستغلة! صحيح أنه يعرف ابنه جيداً ويعرف أنه لا يمكن أن يصاحب شخصاً وقد وصل إلى هذه الدرجة من العزلة ، إنما الفتيات ، قد يغرينه معتقدات أنه موظف وعنده المال . .! شعر أنه يبالغ في مخاوفه ، فهو يعرف ابنه لخضر ككف يديه ، لا يمكنه أن يفعل شيئاً من ورائه أبداً!

-٧-

في ذلك الوقت ، شعر لخضر أن لوجوده طعم الفرح . شعر أن الحظ يحالفه لأول مرة في حياته . . لم يكن ليصدق أن فتاة مثلها ستوافق على الخروج مع شاب مثله . كانت عبارة «تخرج» هي السائدة بين شباب المدينة . . أن تتأبط فتاة ذارع شاب لم يعد مقتصراً على الأغنياء فقط! بل متاحاً للبسطاء ، والفقراء مثله . كان يشعر بالفخر وهو يمشي معها دون تعب . . حكت له عن أختيها ، عن واحدة تحلم بزوج والثانية تشعر أنها مجروحة في حلمها الدراسي الحميم . . عن أمها البسيطة التي كأي أم لا تحلم سوى بالستر لبناتها الثلاث . . أمها التي لم تعارض زواج أبيها من امرأة جديدة لأجل أن ينجب الولد ، لكن نوح رفض حباً في زوجته وفي بناته وراضياً بما أعطاه الله . وحكى لها عن نفسه . . عن أبيه وعن إخوته الغرباء . . عن زوجة أبيه . . وعن أمه . . توقف يسرد لها حكايات يذكرها عن أمه . عن صوتها وصوت خطواتها داخل الدار . . صمت طويلا قبل أن ينظر إليها قائلاً بصوت مفعم بالصدق :

ـ هل تعرفين أنني اكتشفت أنك تشبهينها في عينيك وابتسامتك؟

وابتسمت دون أن ترد . . كانت تصغي إليه وهو يحكي عن أمه التي مرضت حين وضعت أخته في الحياة . . شعر أن صوته أصيب بحشرجة قريبة من البكاء . توقف وهو يأخذ نفساً عميقة . . بقيت تنظر إليه بعينيها

الواسعتين المليئتين بشيء مختلف . . ثم مدت يدها ولمست ذراعه وقالت :

ـ لا يهم ما يبدو لنا محزناً ، ما مضى يبقى ذكريات نتذكرها لأننا نحترم بعضها ونكره بعضها . .!

قالت له ذلك وهي تشعر أنها تردد درساً قرأته في مادة التاريخ منذ شهرين ، وعندما صمتت ظل ينظر إليها . . كانت تبتسم . شعر أنها خففت عنه . . يكفي أن يتحسس يدها على ذراعه ليشعر أنها خففت عنه . . سألته وهي تسحب يدها عن ذراعه :

ـ هل نعود . . .؟ أشعر أننا مشينا كثيراً . . لقد تعبت اليوم . .!

وأحسّ بتأنيب الضمير . لم يدعُها قط إلى مطعم أو إلى قاعة الشاي كما يفعل أي شاب لفتاته الجميلة . لم يكن لديه المال ، ولم تطالبه بشيء ، كانت تبدو مكتفية بالمشي معه . . تتكلم وتسمع . . ويتكلم ويسمع . . أحياناً تدعوه إلى كيس من الذرة تدفع ثمنه من مصروفها اليومي . يرتبك قليلاً قبل أن يمد يده إلى الكيس ليأكل بنهم أمام ابتسامتها . . أخفى إحراجه وهو يقول لها :

ـ ما رأيك أن ندخل إلى السينما؟

واستغربت سؤاله . انتظر ردها بابتسامة طفولية ، وقبل أن ترد قال لها بالحماس نفسها :

ـ كل الأفلام التي عرضت في السينما شاهدتها . . .!

ـ كيف؟

ـ تعالي معي وسأخبرك كيف . .!

جرّها من يدها ووجدت نفسها تركض معه ، وعندما اقتربا من سور السينما الخلفي قال لها :

ـ سنقفز من هنا وندخل . . هذه هي الطريقة الوحيدة التي أشاهد

عبرها ما يعرض من أفلام . .!

جزعت وهي تنظر إلى السور الذي بدا لها عالياً جدا . . قالت تحاول أن تعيده إلى عقله :

ـ أنت مجنون . . .! لن نستطيع تسلق السور . . .!

نظر إليها بخيبة ، ثم سرعان ما شعر بالخجل وهو يتذكر أنها ليست ولداً ، وأنه ما كان عليه أن يقترح هذا الاقتراح السخيف . . قال يحاول أن يخفف وطأة الموضوع بينهما :

ـ معك حق ، لن تستطيعي تسلق السور . . .!

ـ ولا أنت تستطيع! انظر . . أعتقد أنهم أضافوا له مترين آخرين ، كأنهم انتبهوا إلى أنك كنت تتسلقه للدخول إلى السينما!

قالتها وهي تضحك . . نظر إلى السور الذي بدا أعلى مما كان عليه من قبل ، بدا مذهولاً وهو يرد .

ـ فعلاً . . صار أطول مما كان عليه من قبل . .!

ـ هل كنت تتسلق السور لتدخل إلى السينما؟

ـ نعم . كنت أدخل حين أتحمس لمشاهدة فيلم ما . أتسلق هذا الجدار وأدخل . . أجلس في المقعد الخلفي إلى أن يقترب الفيلم من نهايته ، فأخرج متسللاً . . .!

ـ ألم يكن يراك أحد وأنت تدخل متسللاً؟

ـ لا أحد يرى الآخر حين تنطفئ الأضواء . . .!

ـ لكنك تخرج دون أن ينتهي الفيلم . أعتقد أن متعة الفيلم في حضور نهايته . . .!

ـ لكني أتخيل نهايته دائماً . .! أحياناً أعطي للفيلم نهاية من مخيلتي ، فيبدو لي أفضل من النهاية التي ربما لو شاهدتها لن تعجبني . .!

كانت تنظر إليه وهو يتكلم، بصوت ممزوج بين التحمس والخيبة والحزن، فيبدو لها طفلاً كبيراً، عفوياً وصادقاً. لعل هذا الإحساس تحديداً هو الذي جعلها توافق على مصاحبته. أحيانا تتساءل بذعر في سرها: لو عرف أبي أني أخرج مع لخضر ماذا ستكون ردة فعله؟ لن يصدق أحد أن نجاة الجميلة والنجيبة ابنة السي نوح تخرج مع لخضر ابن عثمان الحمّال..! أحيانا ينتابها إحساس يذكرها أن ما تفعله أبعد من الجنون، وأقرب من الورطة التي جعلت شاباً بائسا يصدق أن ما بينهما عميق ودائم، وقد يسميه: حباً..! مع الوقت ازدادت قناعة أن ما فعلته سيغضب والدها وسيجعلها محل سخرية من أختيها..! سيضحكان عليها ملء النفس لأنها صاحبت هذا الشخص الذي لا يساوي ثمن الحذاء المثقوب الذي يلبسه! فجأة كمن يستفيق على حلم مخيف وجدت نفسها تراجع نفسها.. قالت له فجأة:

- هل تشعر بالخوف مثلي..؟ الخوف من أن يرانا أحد؟

ارتبك كثيراً وهو ينظر إليها. لم يفكر أن هنالك من يراهما حين يمشيان كيتيمين، ولم يفكر أن الأمر سيدعو إلى الخوف، حتى وهو يتخيل ردة فعل والده إن رآه. كانت تنتظر رده، وتريد أن تسمعه.. قال بصوت مليء بالارتباك:

- هل ما نفعله يدعو إلى الخوف؟

- ألا يدعو إلى الخوف في رأيك؟ أي أب سيرفض أن يرى ابنته تصادق شاباً دون أن يحدد ذلك الشاب موقفه منها بشكل رسمي..!

- بشكل رسمي؟

- نعم.. أليس هذا هو الوضع الطبيعي في نظرك؟

- أجل.. طبعاً..!

ـ إذاً . . .؟

هل كانت جادة في تلك الأسئلة؟ كانت تعرف جيداً أن لخضر لن يقدر على التقدم إليها ولا إلى أية فتاة أخرى . . كانت تستغل هذه الأسئلة فقط ليكون لهربها مبرر مقنع . . لتصحّح الوضع الخطأ الذي ـ عن جنون ـ شعرت أنها ارتكبته في حق نفسها وفي حق هذا الشاب المسكين الذي تعاطفت معه ، ولن تمشي معه في الشارع طول العمر . . هل يمكن لفتاة جميلة ومتعلمة أن تتزوج من لخضر؟ حتى لو تقدم لها ، تشعر أنها لن توافق . . ربما لأنها لا تريد أن تقضي معه حياة بائسة كتلك التي حكاها لها . . لأول مرة تنظر إلى لبسه وإلى شكله وهيئته ، ولأول مرة تنظر إلى حذائه المليء بالثقوب . . كانت في غاية الصدمة وهي تكتشف أنها «تورطت» في شيء سيقتلها والدها إن عرف به! عادت إلى البيت خجولة من ذلك الشعور بالذنب الذي تملكها ، فقد اعترفت طوال الطريق أنها ارتكبت خطأ كبيراً ، شعرت بالذعر وهي تفكر في الأمر . كيف يمكن أن تبرر للناس خروجها معه؟ ما الذي أغراها به لتخرج معه؟ في البداية أرادت أن تثبت لنفسها أنها قادرة على ارتكاب شيء غير متوقع ، ولكن سرعان ما تحول ذلك الشيء غير المتوقع إلى «خجل» ينتابها وهي تفكر أنها لم تكن تملك من البداية حق مغامرة صدقها لخضر عن حاجة إلى الدفء . أحست بالخجل من نفسها وهي تدخل إلى البيت فارغة من الكلام ، غير راغبة في شيء سوى البقاء مع ذاتها لتقرر ما عليها القيام به قبل أن يعلم والدها بالأمر!

ولم ينم لخضر ليلتها . كان ساهماً يفكر بجدية في الكلام الذي عكر مزاجه طوال المساء . . تساءل : ما المطلوب منه فعلاً؟ ثم فكر فيها . . ما المطلوب منها أيضاً؟ فهي أجمل فتيات الحي ، ومع ذلك اختارته هو

بالذات لتخرج معه دون كل شباب المدينة . .! كان يرى في ذلك عزاء له ، لكنه شعر بخوف يستولي عليه . الخوف من أن يفقدها لأنه لا يملك شيئاً لها ، ولأنها لن تقبل أن تخرج معه ولن تشتري له طول العمر كيس الذرة الذي تدفع ثمنه من مصروفها الخاص ليأكله جائعاً ونهماً . . . .! كان يتقلب في سريره كأنه نائم على الشوك . . قال في نفسه : أليس من حقي أن أفكر في الزواج كما يفكر أي شاب في سني؟ لكنه تذكر أنه لن يستطيع الزواج دون موافقة أبيه ، ليس لأن هذه الموافقة تدخل في إطار قداسة الأسرة ، بل لأن الموافقة تدخل في إطار قداسة الراتب الذي يأخذه والده منه ، فكيف يمكنه التفكير في الزواج ، وهو الذي لا يمكنه أن يشتري حذاء جديداً ولا بنطلوناً جديداً من راتبه! شعر بالذعر وهو يتخيل وجه أبيه إن هو صارحه برغبته في الزواج!

الزواج؟ لكم بدت له الفكرة كبيرة ومستحيلة وجميلة في الوقت نفسه . هذه أول مرة يفكر فيها بشيء يسعده . شعر بشيء جميل يلامس قلبه وهو يتذكر ابتسامتها وعينيها ، وكلامها . أليس كلامها الأخير دليلاً بأنها تريد أن يجعل للقائهما معنى رسمياً؟ سيقول الجميع إن نجاة الجميلة والمتعلمة تزوجت من لخضر حمّال الميناء . .! صحيح أن الصورة سوف تثير الكثير من الغمز واللمز ، ولكن لن يهمه ما سوف يقال . . المهم أن تتحول الصورة إلى حقيقة . .! بان الصبح وهو غير قادر على النوم ، وعندما ذهب إلى عمله كان في قمة التعب . كان والده يراقبه بين الفينة والأخرى بعينين غاضبتين مليئتين بالأسئلة . فكر بينه وبين نفسه : «لا بد أن ثمة شيئاً لا أعرفه . . .» لم يستطع أن يتكلم معه ، فقد كان العمل كثيفاً ذلك اليوم بحضور شخصية مهمة جاءت لتستلم البضائع التي وصلت للميناء صباحاً . كان لخضر ينظر إلى تلك الشخصية الجديدة نظرة مليئة

بالانبهار . . لم يكن وزيراً ، بل ضابطاً كبيراً في الجيش جاء شخصياً ليتسلم بضائع وصلت باسمه . . كان لخضر متعباً جداً بسبب الأرق الذي أصابه ليلة أمس ، لكه استطاع أن يبذل جهدا للتركيز في عمله ، أمام أعين المدير الذي كعادته نزل من مكتبه لمراقبة سير العمل . كان الضابط مكفهر الوجه ينظر إلى الجميع نظرات ثاقبة ، قبالة رجال يحيطونه ، بعضهم بلباس عسكري وبعضهم بلباس مدني . . تلك أول مرة يرى فيها ضابطاً كبيراً ومهماً في وقفته وثقته الكبيرة في نفسه ، ونظراته التي تجعل الجميع خاضعين لها . . كان مبهوراً بتلك البذلة الخضراء وتلك النجوم اللامعة على الكتفين ، والشارات على الصدر لشخص غير مبال بشيء ولا بأحد ، سوى بتلك الصناديق التي كان العمال يجرونها نحو الشاحنات المنتظرة خارجاً ، بحيث يتم تصفيفها فوق بعضها بعناية شديدة حسب الأوامر ، قبل أن يرمى فوقها غطاء من الخيش الأخضر! فجأة وجد لخضر نفسه يتخيل شكله لابساً تلك البذلة الخضراء والنجوم تلمع فوق كتفيه . . تخيل نفسه واقفاً أمام العمال بصمت يبعث على الرهبة ، ووقار يثير الخوف . . كم سوف يحتاج من العمر ليقف تلك الوقفة الواثقة والصارمة؟ قالها بينه وبين نفسه بحزن ، وعندما تم الانتهاء من العمل ، قرر أحد الرجال الذين جاءوا مع الضابط أن يختار مجموعة من العمال ليرافقوا البضاعة ، لوضعها في مستودعها الأخير . شعر لخضر بالذهول حين تم اختياره من بين العمال الذين أسرعوا لركوب الشاحنات فوق الصناديق المغطاة . . كان أبوه فرحاً لأن الاختيار وقع على ابنه . . فبحكم تجربته في الميناء يعرف أن مرافقة الشاحنات المهمة يجلب الحظ الحسن ، إذ إن كل عامل يعود إلى بيته بنقود تكفي لسد الثقوب ، أما لخضر فكان يرى في ذلك حظاً أيضاً . فكر لأول مرة أن عليه أن يحتفظ بالمال الذي سيحصل

عليه من هذه العملية ، سيسعى إلى أن يكون له المال وألا يترك راتبه كله بين يدي أبيه . . فكر بينه وبين نفسه أنه بحاجة إلى التغيير ليفرض احترام الناس له . . تحركت الشاحنات محدثة ضجيجا ، وابتعدت عن الميناء نحو مستودعها الأخير . . !

ظل طوال الطريق يفكر في ذلك الشيء الذي يسـمـيـه الناس «المستقبل» . ألم يكن المستقبل هو الشيء الوحيد الذي جعله لأول مرة يفكر في نفسه . . فكر في شراء حذاء وبنطلون وقميص ، كما فكر في شراء هدية لفتاته . . تخيل نفسه يدعوها إلى مطعم ما ، يدخل فخوراً بنفسه ، وتجلس قبالته . . يأتي النادل مبتسماً له واضعاً أمامهما قائمة المأكولات . . . كيف اعتقد أن حلماً كهذا صعب المنال؟ أليس الحلم واقعاً مؤجلاً؟ ابتسم أمام نظرة زميليه اللذين كانا يحلقان فيه بابتسامة لا تخلو من سخرية . كلاهما كان سعيداً بالمهمة التي كلف بها مدركين أنهما سيعودان إلى أطفالهما حاملين أشياء ضرورية للبهجة . وكان لخضر يدرك أهمية تلك المهمات لهؤلاء العمال لأنهم متزوجون ، وربما يحسدونه في سرهم ، لأنه غير متزوج ، ولأن مسؤولياته أخف من مسؤولياتهم! شعر فجأة أن الشاحنة خففت من سرعتها ، ثم توقفت ، وإذ ببوابة كبيرة تفتح على مصراعيها . . رأى السيارة الأولى التي كان يرتادها الضابط تدخل أمام تحية الرجال الذين وقفوا لاستقباله بطريقتهم العسكرية . . ثم سارت الشاحنات نحو الداخل ، قبل أن تغلق البوابة الخضراء الكبيرة محدثة صوتاً قوياً . . فكر في المكان الغريب الذي دخلوه . . هل هذه ثكنة عسكرية أم مجرد مستودع تابع للجيش؟ رأى العديد من الجنود يقفون هنا وهناك ، بعضهم مسلحاً . . سمع أحدهم يأمرهم بالنزول . . قفز لخضر من مكانه إلى الأرض بسرعة وثبات ، ووجد نفسه يفعل ما يفعله بقية الرجال دون

سؤال ، راح بعضهم ينزع الغطاء الأخضر من فوق الصناديق ، ثم بدأت عملية الإنزال من الشاحنة على ظهور العمال الذين كان عليهم تصفيف الصناديق داخل المستودع الذي قادهم إليه أحد الجنود . . كان المستودع معتم إلى أبعد حد ، مع ذلك لم يكن عليه سوى حمل الصناديق ثم يسلمها إلى عامل آخر يضعها فوق بعضها البعض . كان ثمة بعض الجنود يراقبون العملية بوجوه ضجرة . كم مضى من الوقت وهو يعمل؟ ساعة؟ ساعتان؟ شعر أن ظهره يكاد ينشطر إلى نصفين من شدة التعب ، وعندما انتهوا من عملهم . . انتظروا قليلا قبل أن يأتي أحد الرجال بلباس مدني ، ليقول لهم بصوت بدا مستعجلاً :

ـ سيذهب جميعكم في شاحنة واحدة . .

قالها وهو يدفع لكل واحد نقوداً . كان كل العمال سعداء ، يبتسمون قبالة بعضهم ، وكان لخضر أسعدهم وهو يضع تلك النقود في جيب سترته البالية . شعر أن الحظ بدأ يبتسم له ، ولأول مرة في حياته تبدو الحياة وكأنها تصالحت معه ، وقد صار الأمل قريباً منه . .!

الأمل . . .؟! ما الأمل غير هذه الفكرة التي صارت تدعمه ، وتقوي قلبه . شعر أن الضعف نابع من اليأس واللا أمل ، وأن قوته الراهنة تنطلق من هذا البريق الذي صار ينبع من داخله . . حتى وهو يعود إلى البيت بعد منتصف الليل مرهقاً ، وجد والده بانتظاره متلهفاً . . جاءه صوته يقول بنبرة لا تخلو من غضب :

ـ تأخرت كثيراً! هل انتهت المهمة على خير؟

رفع نظرته إلى أبيه وتمتم بكلمات بالكاد تسمع .

ـ نعم أنهينا المهمة على خير . . . .!

ـ هل أعطوك نقوداً؟

ذلك السؤال الذي توقعه ، كان يعرف أن والده انتظره ليسأله إياه . . رد بصوت مليء بالإجهاد .

ـ لم يعطوني شيئاً . .!

قالها ونزع سترته ووضعها قرب مخدته ، واستلقى متعباً غير راغب في الحديث . كان يعرف أن كذبة كهذه لا بد أن يكتشفها والده في اليوم التالي حين يسأل العمال الذين ذهبوا معه . سيقولون له الحقيقة ، وسيعود إليه كاشفاً عن أنيابه ، غاضباً ومزمجراً ، لكنه لن يتنازل عن حقه في تلك النقود التي أخذها عن تعب وجهد . . لن يتنازل عن حقه في شراء حذاء جديد وقميص وبنطلون . . كان والده ينظر إليه ملياً وهو يتساءل في سره : «ما الذي يجري له؟ صار عدوانياً منذ فترة . .!» نظر حوله ، فإذ بزوجته تنظر إليه بالصمت نفسه الذي يكرهه . . سمعها تقول بصوت قريب إلى الهمس :

ـ أنت أرخيت له الحبل . . ها هو يتمرد عليك . .!

قالتها وهي تدير له ظهرها وتغطي وجهها باللحاف . يتمرد؟ دقت العبارة في رأسه كانفجار لم يتوقع مكانه ولا زمانه . . يتمرد؟ أليس هذا ما يجري لابنه منذ فترة؟ لم يعد كما في السابق . . يعرف بحاسته السابعة أن ابنه تغير فعلاً ، وأن بوادر عصيان حقيقية تلوح في تصرفاته . . كان يراقبه أحياناً ، فيجده يبتسم مع نفسه ، وأحياناً يضحك فجأة ، كمن يتكلم مع شخص يجلس بالقرب منه . في الأول اعتبرها حالة قريبة إلى التسلية بالنسبة لشاب منطوٍ على نفسه ، ثم إن الأمر لم يكن يعنيه تماماً طالما كان يأخذ منه راتبه كاملاً دون أن يعترض أو يناقش . . كان والده يقيس درجة خضوعه كل نهاية شهر حين يأخذ منه الراتب ، وحين يقول له في الأخير :

ـ مصاريف البيت زادت ولا نعرف كيف نسدها . . الله يعيننا . . .!

لم يكن لخضر يرد ، يبقى صامتاً ومغلقاً مشيحاً بوجهه نحو الجهة الأخرى ، كي لا يفكر في تلك المصاريف التي لا يوجد فيها ، ولكن في الشهر الماضي بدا معترضاً حين أخذ منه راتبه . .! صار وجهه أحمر من الغضب ، وكاد يقول شيئاً . . ولكنه لم يقل . ولم يكترث الأب طالما راتب ابنه صار في جيبه! هل ما يحدثِ بوادر تمرد؟ قالها في نفسه وعلامات الرعب تغطي وجهه . كيف يمكن لشاب مثله أن يتمرد ، ولأي سبب . .؟ لا بد أن ثمة سبباً كبيراً . .! سبباً لا يعرفه ويشعر بالغضب لأنه لا يعرفه . .! نظر إلى ابنه الذي بدا مستغرقاً في نوم عميق ، واقترب منه ماداً يده إلى سترته التي وضعها قرب رأسه . سحبها بهدوء شديد كلص محترف ، وراح يبحث بعناية ، متفحصاً الجيوب الأمامية ثم دس يده في الجيب الداخلي ، وإذ بأصابعه تتلمس الأوراق النقدية . . شعر أن قلبه يدق كلص يخشى اكتشاف أمره . أبقى النقود معه وأعاد السترة إلى مكانها بالهدوء نفسه!

ـ ابن كلب! يظن أنه قادر على خداعي . . . .!

قالها في سره وهو يضع رأسه على الوسادة . أحس بالرضا فجأة ، كأنه انتصر في معركة خفية اندلعت بينه وبين ابنه . .! في الصباح ، عندما استيقظ لخضر شعر أن جسمه كله يؤلمه من مجهود الأمس ، تناول سترته ولبسها بسرعة . أراد أن يبدو طبيعياً وهو يخرج من البيت غير مكترث . . كان والده ينظر إليه نظرة غاضبة وهو يفكر في ردة فعله حين يكتشف أن النقود سرقت منه؟ هل سيجرؤ على سؤاله عنها؟ فقد قال إنهم لم يعطوه شيئاً . ولهذا لن يجرؤ على سؤاله . .! غسل لخضر وجهه على عجل وغادر ككل صباح نحو شغله دون أن يتناول شيئا . . قال في نفسه بشيء من

الفرح : يمكنني تناول شيء ما فيما بعد ، لدي النقود الآن! قالها وهو يتحسس جيبه الداخلي . كان جيبه فارغاً . .! انتابه إحساس بالكارثة ، كاد يمزق السترة البالية وهو يبحث في جيوبها . . لم يجد شيئا! لقد سرقت النقود! قالها وهو يفكر في والده . .! أيعقل أن يكون هو من سرق منه النقود؟ لم تكن تلك النقود راتباً ، بل كانت جراء عمل إضافي متعب قام به . . هل يمكن لأب أن يسرق من ابنه نقوداً؟ قالها في نفسه وهو يشعر بحزن عميق ينتشر في روحه . . حزن قريب إلى الإحباط وهو يتذكر أنه لن يشتري حذاءاً ولا قميصاً ولا بنطلوناً ، ولن يشعر بفخر شاب يلبس لأول مرة شيئاً جديداً . انتابته حالة من الضعف قريبة إلى الانهيار . . كان والده يراقبه بوجه مغلق ، لا يخفي تشفيه من ابنه العاق الذي كذب عليه . . ابن يعتقد أنه كبر على أبيه! قالها وهو يرمقه بطرف عينيه . كان يبدو له حزيناً وعصبياً في رده على بعض الأسئلة العامة التي كان يطرحها أحد العمال عليه . . انتبه رئيس العمال إلى حالته تلك ، وفي وقت الراحة ، اقترب منه :

ـ تبدو في غير حالاتك . . هل ثمة شيء؟

نظر إلى رئيس العمال الذي أخذ مكاناً قريباً منه . فكر لخضر في هذا الرجل البسيط والطيب . . هل سيفهمه لو حكى له ما جرى؟ قد يقول له الجملة نفسها التي قالها له عشرات المرات : «والدك مغلوب على أمره ، إنه رهينة الظروف ورهينة أوضاع البلد .!» لم يكن لخضر يشعر أن عليه أن يتحمل على عاتقه ظروف البلد أيضا ، فظروفه تكفي ، ولا حاجة له بظروف أخرى . .!

قال رئيس العمال بصوت أراده حميماً ، وقريباً من القلب :

ـ هل تفكر في الزواج؟

قالها بابتسامة واضحة . . خفق قلب لخضر وهو يستوعب السؤال . رد بصوت أراده مقنعاً :

ـ هل يتزوج أمثالنا يا سيدي؟

ـ لم لا . . الجميع يتزوج ، حتى المرضى . .!

ـ لكن ليس من هو مثلي . . انظر إلى شكلي . . هل أملك شكل شخص يفكر في الزواج؟

قالها وهو يشير إلى الثقوب الكثيرة في حذائه . .

ـ هذه مجرد شكليات لا علاقة لها بالموضوع الرئيس . .!

ـ بل هي كل الموضوع يا سيدي . . .!

ـ هل ترغب في أن تحكي لي . . .؟ لن أجبرك على ذلك الآن ، ولكن إن رأيت أنك بحاجة إلى من يصغي إليك ، فأنا حاضر . . تذكر أنني لن أبخل عليك بالنصيحة . .!

قالها وهو يربت على كتفيه ويبتعد . . شعر بتلك اليد التي وضعت على كتفه . . بدت حارة ، وصادقة . . نظر إليه وهو يدخل إلى مكتبه الصغير في زاوية الميناء . .

رئيس العمال ، أو سي منصور كما يناديه البعض حين يتجرؤون على تسميته باسمه المطلق ، بينما الذين لا يجرؤون فيلقبونه «بالشيف» كما يقولها الجميع بالمعنى نفسه . . كان الجميع يعلم أن ثمة تياراً لم يعد يمر بين «منصور» والمدير ، ربما لأن هذا الأخير يتعامل مع مبدأ «عامل العمال بقسوة لتضمن ولاءهم . .» وهو منطق يعتبره «منصور» مهيناً وقريباً من فكر الإقطاعيين القدامى . .! كان «منصور» من أسرة ثورية وعريقة ؛ فقد استشهد والده إبان الثورة تاركاً له لقب «ابن شهيد» ، ربما لهذا السبب يبدو قريباً إلى الناس . . اشتغل منصور في أكثر من ميناء في الغرب

والشرق ، وكان يصاب بالصدمة من حالة الموانئ التي كان يشتغل فيها . وكان يكتب التقارير إلى الجهات العليا لوصف حالة العمال في غياب عربات تساعد على حمل البضائع ، لكنه لم يكن يجد الرد ، لأن على العامل أن يكدح ليؤكد ولاءه للوطن الذي ينتمي إليه عبر حمل بضائع الأسياد على ظهره! وكان يكتشف الطرق الملتوية نفسها التي تجعله يتمرد ، فيقرر المدير تحويله إلى مكان آخر . لم يكن يجرؤ أحد على طرده من العمل ، فقد كانوا يرون في طرد ابن شهيد شيئاً يتناقض مع «الشعارات الجاهزة» ، فمن السهل طرد أي شخص من عمله بينما يصعب طرد ابن شهيد . .! وعندما وصل إلى هذا الميناء ، شعر أنه يكره مديره من النظرة الأولى . . كان يحاول أن ينسى كل شيء حين يرجع إلى البيت ، ويرى في ولده الطالب الجامعي شيئا مفرحاً ، وفي ابنته التلميذة في الثانوية حلماً يريده أن يتحقق ، وفي زوجته ملاذاً يحميه من كل الإقطاعيين الجدد الذين يحكمون البلد ، فكر كثيراً في نقابة مستقلة تحمي العمال وتضمن كرامتهم وإنسانيتهم «في حال المرض أو الحوادث» ، نقابة تعبر عن همومهم وتجعل الإدارة تنتبه إلى النقص الكبير الحاصل في موانئ البلد ، فمن العيب التعامل مع العمال بهذه القسوة ، في هذا العهد الجديد من التحولات التي يشهدها العالم نحو ما هو إيجابي ، بينما يبقى البلد منغلقاً رافضاً التغيير! قالها للمدير بنبرة مليئة بالغضب ، ورد عليه المدير بنبرة مليئة بالحقد :

- هل تريد أن يتمرد هؤلاء البؤساء علينا؟

- لن يتمردوا حين يشعرون أن ثمة من يحمي حقوقهم . سيكون أداؤهم أفضل . . إنما قد يتمردون لو استمرت معاملتهم بهذه القسوة واللا مبالاة!

ـ الدولة تدفع رواتبهم وهم راضون . .! لا نريد «نقابات مستقلة» ولا وجع رأس ، النقابة الحالية تؤدي عملها على أحسن وجه!

ـ تقصد أنها تمارس التدليس على أحسن وجه!

ـ أنت تلعب بالنار يا سي منصور . تذكر أن تقريراً واحداً ضدك إلى الجهات العليا يمكن أن يؤدي إلى إيقافك . . ليس من الصعب أن أكتب في التقرير أنك تمارس السياسة في الميناء ، وأنت تعرف جيدا ماذا يعني هذا!

قالها وهو ينظر إليه نظرة تهديد واضحة ، وتمنى منصور أن يبتسم ولو من باب الاستهزاء المباشر من المدير ، لم يرد عليه ، أدار له ظهره وغادر المكتب موجهاً نظرة إلى العمال الذين كانوا يكدحون طولا وعرضا . تنهد بعمق ومضى إلى مكتبه الصغير في زاوية الميناء .

-٨-

مضى اليوم كئيباً على لخضر الذي ظل شعور الخيانة يعتريه . شعور جعله ينظر إلى أبيه نظرة مليئة باللوم والغضب . لم يكن والده يتحمل تلك النظرة ، فكان يتهرب منها كأنه غير قادر على مجابهة سؤال ابنه الواضح والمنتصب في عينيه : «لماذا سرقتني؟» لم يكن والده يعرف لماذا سرقه؟ ربما ليعاقبه ، لكنه لم يشعر بالذنب قط ، حتى وهو يدخل إلى دكان سي نرح ويشتري بعض الأغراض ، ويعود إلى البيت بإحساس من النشوة . بينما بقي لخضر في المكان الذي تعود انتظار فتاته فيه . كان يشعر بالحزن والخيبة إلى درجة خاف فيها أن يتعكر مزاجه أمام نجاة التي جاءت تتلفت حولها كمن يخاف أعين الناس . . أحس بقلبه يدق وهو يراها مقبلة نحوه جميلة وعذبة . .

ـ كان علي أن أقنع أمي لتسمح لي بالخروج . .!

ـ بماذا أقنعتها؟

ـ بأني سأزور صديقتي في الزقاق الآخر ، لهذا يجب ألا أتأخر في العودة . .!

قالتها وهي تنظر إلى وجهه . أحست بأن ثمة شيئاً يجعله يبدو كئيباً بهذا الشكل ، لكنها لم تكن تشعر بأن عليها أن تسأله . . جاءت وهي تشعر في قرارة نفسها أنها ستأتي للمرة الأخيرة ؛ وقد فكرت كثيراً قبل أن

تصل إلى هذه النهـاية التي ـ قـد تؤلمه ـ فـتـرة من الوقت ، ولكنه سينساها . .! قال لها فجأة :

ـ تبدين صامتة . هل ثمة شيء؟

ـ أبداً . . لكني أفكر فقط أنها أول مرة أكذب فيها على أمي لأخرج من البيت . . المهم . . لن أتأخر . .!

نظرت إليه وسألته السؤال التي لم ترغب في طرحه قبل قليل :

ـ وأنت ما بك؟

ـ لا شيء . . أنا متعب قليلاً من العمل . . .!

ـ لهذا أنت مكفهر الوجه؟

ـ أنت هنا وهذا يكفي . .!

قالها وهو يبتسم بحياء . لم تبتسم هي ، ظلت تنظر إلى نقطة بعيدة قبل أن تقول :

ـ بدأت تمطر! سيأتي الشتاء باكراً هذا العام . .!

لم تكن تمطر سوى زخات متباعدة . لكنها لم تجد حواراً حقيقياً وهي تفكر أن عليها أن تذهب . . فكرت أن تقول له مباشرة : هذه آخر مرة نلتقي فيها ، وربما جاءت لتقولها له ، ولكن عندما رأت عينيه شعرت بتعاطف غريب معه . . سمعته يتنهد بعمق فرفعت عينيها إليه بضجر :

ـ أرجوك قل ما بك ، أو أذهب . . .!

ـ لقد سرق والدي نقودي . . .!

نظرت إليه بذهول . . شعر لخضر بصدمة وهو يقول ذلك . . هل يمكن لأب أن يسرق نقود ابنه؟ فكرت في ذلك وهي تنظر إليه بوجه شاحب ، وأمام شحوبها حكى لها كل شيء . .! قالت تحاول أن تخفف عنه :

ـ وما أدراك أن والدك من سرق نقودك . . .؟

ـ لا أحد يسرق نقودي غيره . .!

ـ هل هو متعود على سرقة نقودك؟

ـ لا . . .!

ـ إذاً كيف تبدو متأكداً من أنه هو السارق؟

ـ لأني أعرفه ، ولأني متأكد أنه هو السارق . .!

مسح براحته على شعره وهو يقول بصوت كئيب وابتسامة لا طعم لها :

ـ كنت أحلم بشراء حذاء وقميص وبنطلون جديد . . فكرت أيضا أن أشتري لك هدية . .!

ـ هدية؟

ـ نعم . . . .!

ابتسمت رغماً عنها . . أفكار كثيرة مرت بخاطرها وقتها . . شعرت بحزن غريب يعتريها . . حزن لا علاقة له بالحكاية التي سمعتها منه للتو ، ولا بالهدية التي لن يشتريها لها . . حزن غريب لا مبرر له سوى أنه نابع من داخلها . . طأطأت رأسها وهي تقول بصوت خال من المعنى :

ـ لا تحزن على شيء يضيع . . الحياة لا تستحق أن تحزن لأجلها!

ثم وهي تنظر إليه قالت :

ـ سأذهب الآن ، لا أريد أن أتأخر كي لا تتوجس أمي بشيء . .!

ـ سأنتظرك غداً . .!

نظرت إليه نظرة حزينة قبل أن تقول له أخيراً :

ـ أريد أن تعتني بنفسك . .! . كن قوياً لأجل نفسك على الأقل . .!

لم تقل لأجلي ، لأنها وهي تغادره كانت تعرف أنها لن تأتي بعد اليوم . . .!

جملتها الأخيرة بدت له حزينة وصادقة ، شعر بشيء يقبض قلبه فجأة وهو ينظر إليها تبتعد . . شعور قريب إلى الثورة استولى عليه . . تمنى لو كان قادرا على الصراخ ليخفف عن نفسه ، أو ليهدأ قليلا . .

انتظرها في اليوم التالي ولم تأت ، انتظرها تحت المطر ولم تأت . . كان مبتلا حتى العظم وهو يعود إلى البيت . . رمقه والده بنظرة جانبية وهو يقول له بعصبية :

ـ كأنك تبحث عن المرض وأنت تعود مبتلاً هكذا . .! المرض لن ينفعك لأني لا أملك مصاريف الدواء . .!

استلقى على سريره وأدار وجهه للجدار ، في تلك اللحظة وجد نفسه ينفجر بالبكاء بحرقة وصمت . .!

لم تأت نجاة بعدها . . مرت أيام ولم تظهر ، مع أن الشمس عادت للشروق . شعر بالخوف وهو يتساءل «هل هي مريضة»؟ وجد نفسه ينتظرها بالقرب من مدرستها . . رآها تخرج ودق قلبه بقوة . بدت له بصحة جيدة . كانت تمشي مع رفيقتين وعندما رأته ارتبكت . . ابتسم لخضر وهو يلوح لها بيده ، ورأى نظرة غريبة في عيني الفتاتين اللتين كانتا ترافقانها . انحنت إحداهن نحو نجاة وقالت لها شيئاً . . ضحكت الفتاة الثانية ولكن نجاة ظلت عابسة . . حتى رفيقاتها العاديات تسألنها من هذا الشخص البائس الذي يلوح بيده نحوهن؟ لا أحد يمكنه أن يستوعب أن ذلك البائس ينتظر نجاة دون غيرها . . مرت أمامه وبنظرة منها فهم أن عليه أن يبقى مكانه وألا يلحق بها . . شعر بالخيبة تتسلل إليه ، لكنه أراد أن يتكلم إليها . . ظل يمشي خلف الفتيات الثلاث إلى أن افترقن كل واحدة انحدرت نحو اتجاه ، بينما بقيت نجاة تمشي في طريقها نحو البيت . . أوقفها وهو يقول :

ـ ما الذي جرى؟ هل أغضبتك مني؟

نظرت إليه وقالت بصوت أرادته طبيعياً :

- كنت مع رفيقتي ، ومن الطبيعي أن أمشي معهما بشكل عادي . .!

- لكنك لم تأت منذ أسبوع . .!

- والدي يرفض خروجي من البيت مساء ، وأكره أن «أكذب» على أمي . .!

- أفتقدك . .!

قالها بصدق أثار شجونها . . نظرت إليه وهي تقول :

- المشكلة أنني صرت أخاف . أخشى أن يرانا أحد فيخبر أبي . . أنت لا تعرف أبي ، غضبه شديد . .!

- حتى لو طلبت يدك منه؟

نظرت إليه نظرة مذهولة . بدت شاحبة وهي تحاول استيعاب ما قاله ، لكنها كانت تدرك أنه لن يقدر على طلب يدها ، وأنها لسبب كبير لا تريد العودة إلى هذه اللقاءات المهزلة . . قالت تحاول أن تكون «محايدة» .

- وهل تقدر على طلب يدي حقاً؟

- سأحاول . .!

- كيف؟

نظر إليها بوجه شاحب ثم طأطأ رأسه . . قال بصوت حزين .

- لا أتصور حياتي بدونك . .!

- الحياة ليست نزهة وكيس ذرة . . عليك أن تكون مسؤولا قبل التفكير في أي شيء أخر . .!

- وجودك يساعدني على تخطي كل الصعوبات . . هذا أهم عندي من كل شيء . .!

كلام روايات ساذجة . .! قالتها في نفسها وهي تشعر بالضجر . .

نظرت إليه نظرة أخيرة وقالت :

ـ كن واقعياً لخضر . . الحياة ليست نزهة . . فكر في هذا جيداً . .!

ـ لكني أحبك . . أحبك جدا! لا أتصور الحياة من دونك . .!

ـ لو كنت تحبني لفهمت أن وضعنا كله خطأ ، وأن علينا أن ننهيه . أبي سيقتلني لو عرف أنني كنت أخرج معك . لا أعرف كيف أشرحها لك ، ولكني متأكدة أنك ستجد إنسانة أحسن مني وسيكون وضعك وقتها أفضل . .!

شعر بشيء يخزه في الصميم . لم تقل له «سأنتظرك حتى يتحسن وضعك»! كان يدرك أنها محقة في «تبرؤها من هذه العلاقة» ! هل يمكنه أن يلومها على ما قالته له؟ بدت وهي تتكلم معه وكأنها تراه لأول مرة كما يرى الثري شحاذاً يقف عند بابه . . أحس بشيء يكسره من الداخل . مشى مطأطئ الرأس غير قادر على التفكير . في نهاية الأسبوع ذهب لتسلم راتبه الشهري ، وكان والده بجواره ككل مرة . قال له الجملة التي يقولها دائماً :

ـ مصاريف البيت زادت . الله يعيننا على تغطية جزء منها . . .!

في السابق كان يضع الراتب بين يدي أبيه دون كلمة . . لكنه نظر فجأة إلى أبيه وهو يقول بصوت أراده حازماً :

ـ أنا لن أقضي حياتي بهذا الحذاء وهذا القميص وهذا البنطلون . . سأشتري ثيابا جديدة . .!

قالها وهو يأخذ من راتبه ما يكفي لذلك ويضع ما تبقى في يد أبيه المصعوق . . كان والده شاحباً وهو يحدق فيه ، بدا قريباً إلى الهيجان وهو يقول :

ـ بأي حق تفعل هذا . . .!

واستغرب لخضر سؤال أبيه ، رد يحاول إنهاء الأمر بأقل أضرار ممكنة :

ـ بحق أن ألبس كما يلبس أبناؤك الآخرون . .على الأقل أنا سأشتري ثياباً جديدة من تعبي!

وزاد شحوب الوالد وهو يسمع إلى ذلك الرد الوقح . أيعقل أن يكون لخضر من يتكلم الآن؟ لم يقل إخوتي . . قال أبناؤك ، رنت الكلمة في أذنه مليئة بالإهانة . . في زمن آخر كان يلجأ إلى الحزام الجلدي ليفش غله فيه ولكنه زمن بعيد انقضى . . لم يعد لخضر صغيراً ، صار أطول من والده ، وأكثر وقاحة الآن بعينين تبدوان مستعدتين للمجابهة وللقتال . .!

ـ لكن المصاريف زادت و . .

ـ لن أتنازل عن حقي في شراء ثياب جديدة . هذا آخر ما عندي . . .!

كانت تلك أولى بوادر العصيان التي خشيها والده منذ زمن . .! قال يحاول أن يجرح كرامته فجأة :

ـ لا تعتقد أنني نائم على أذني . .! أنا أعرف كل شيء . .!

وشحب وجه لخضر . شعر والده أنه أصاب من ابنه مقتلاً ، قال بالصوت نفسه القريب إلى الهيجان منه إلى الإهانة .

ـ أعرف أنك تخرج مع بنت السي نوح . . ! هناك من رآك معها وأخبرني . .!

وقبل أن يرد بأي شيء انفجر والده بالضحك بصوت مليء بالتجريح . .

ـ تظن أن فتاة مثل بنت السي نوح تخرج معك لعزك أو لجمالك أو لمنصبك . .!

ـ . . . . ؟

ـ إنها تتسلى ، وتسعى إلى أن تصرف عليها في المطاعم كما تفعل أي بنت وقحة . .!

ـ نجاة ليست وقحة ، وسأتزوجها . .!

وإن كان رده صدمة أخرى على والده إلا أنه فضل الاستمرار في الضحك بتلك الطريقة الجارحة . .

ـ أنت تثير الشفقة . . .!

قالها وهو يمضي . . كان لخضر يعرف أن ما قاله والده ليس أكثر من ردة فعل ، لكنه شعر بشيء يخزه . . أإلى هذا الحد يثير الشفقة؟ بقي جامداً في مكانه غير قادر على التحرك . . أيعقل أن يتفوه والده بكل ما تفوه به لمجرد أنه أراد أن يشتري لنفسه شيئاً؟» رنت الجملة من جديد في أذنه : أنت تثير الشفقة . .! وحدها نجاة لم تنظر إليه كما نظر إليه كل الناس . . وحدها نظرت إليه بعينين مختلفتين . كان يشعر أنه يشبه الوحش في حكاية «الجميلة والوحش» ، التي شاهدها في السينما أكثر من مرة . ذلك الوحش استطاع أن يتحول إلى عاشق لأن حبيبة جميلة اختارت أن تحبه دون أن تحاسبه على شكله أو مظهره . وحدها لم تر فيه وحشاً ، رأت فيه إنساناً دافئاً وصادقاً . . كان يعرف أن النهاية جميلة . بتخيلها دائماً بشكل مختلف ، فيحب القصة أكثر من المرة السابقة . ألم يكن يشبه ذلك الوحش الحزين والوحيد؟ لكن نجاة حررته من السحر القديم الذي كان يجبره على الخضوع للعتمة . . ألم تفتح أعماقه للضوء؟ ألم تجعله يكتشف صوته ، وضحكته التي لم يكن يسمعها من قبل؟ لم يكن غنياً ليفكر أنها ستطمع في ثروته ، ولا وسيماً ليقول إنها ستتباهى بجماله أمام رفيقاتها . . كان نكرة في عيني أبيه وزوجة أبيه وإخوته ، وبائساً في نظر الآخرين ، ولكنه كان كائناً حقيقياً نابضاً بالحياة في

عينيها . .! هل يمكن لأبيه أن يفهم هذا؟ لن يفهم أن الحب أقوى من الشكل والطول والعرض ، وأن الحب قد يكون أعمى فعلا فيقع على شخص مثله . .! كان حزيناً حتى وهو يدخل إلى محل الأحذية ليختار لنفسه حذاء جديداً . شعر بالارتباك والبائع يحاول إرضاء ذوقه ويقترح عليه الأحذية الجميلة . . لم يعلق عندما اقترح عليه حذاء أسود أشعره بالخفة والراحة . . اكتشف أنه لم يكن مبتهجاً جداً وهو يدخل إلى محل آخر ليشتري بنطلوناً وقميصاً وسترة جديدة ، ثم عاد إلى البيت . كانت زوجة أبيه تنظر إليه بعدوانية مخيفة ، بينما رمقه والده بنظرات مليئة بالغضب . كان إخوته الثلاثة ينظرون إليه كما لو أنهم يشاهدونه لأول مرة . . .! فكر في نجاة . . ماذا ستقول عندما تراه بلبسه الجديد . .؟ ابتسم بينه وبين نفسه ، ولعل ابتسامته ظهرت على وجهه فقد سمع صوت أبيه يقول غاضباً :

- لن تصبح محترماً حتى لو لبست أغلى الثياب . . ستبقى بائساً وخبيثاً دائماً . .!

نظر لخضر إليه وطأطأ رأسه وهو ينزع سترته الجديدة ويضعها قرب فرشته بلطف متظاهرا باللا مبالاة . . كان يعرف أن والده غاضب . لكنه شعر أنه لم يأخذ سوى حقه الذي لن يتنازل عنه بعد اليوم . . .!

-٩-

فكر السي عثمان أن عليه الانتقام من ابنه ليعيده إلى الصراط المستقيم، فلم يشف غيظه بالكلام الذي قاله له أمس. فكر أن عليه التحرك كي لا يتمادى لخضر في عصيانه وعناده وتحديه له. فكر أن من واجبه إخبار نوح بما يجري! بدت له الفكرة محرجة ولكنها الوحيدة.. سيقول لنوح إن ابنته تستحق من هو أفضل من ابنه لخضر، وإنه يخبره كأب يحترم مشاعر أب آخر.. ذلك الحل الوحيد الذي عزم عليه.. شعر أنها الضربة التي سوف تقصم ظهر ابنه وتكسره إلى الأبد، بحيث لن يفكر في تكرارها ثانية.. سيعود مطيعا منكسرا كما كان. قالها في نفسه وهو يذهب إلى دكان نوح مساء متجنباً أن يراه ابنه..

- أهلا يا سي عثمان.. عاش من شافك..!

قالها نوح وهو يسحب مقعدا للقادم الذي جلس وهو يلهث كمن قطع الشارع ركضاً..

- المشاغل يا سي نوح.. الله يعيننا على المشاغل وعلى مطالب الأبناء الذين يكبرون بسرعة..!

- الأبناء نعمة من نعم الله.. الحمد لله على كل حال..!

فكر السي عثمان في الطريقة المناسبة ليقول له الحكاية كما يريد قولها، وليس كما قد يسمعها من شخص آخر.. لا يريد أن يغضب منه

نوح لأنه يحتاجه ، فهذه الدكانة الوحيدة التي يشتري منها بالدفع المؤجل . قال يحاول جمع كلماته بدقة :

ـ يا سي نوح . نحن جيران وأهل . . ولهذا أحب أن أكلمك كصديق . . . لا ، بل كما يكلم أخٌ أخاه العزيز . .!

شعر نوح بالقلق وهو يسمع إلى تلك المقدمة الغريبة . فكر «هل يحتاج إلى المال؟» لم يتعود أن يطلب المال ، فقد كان يأخذ من الدكان ما يحتاجه ويدفع فيما بعد . . نظر إليه نظرة عميقة وقال :

ـ خيراً يا سي عثمان . . خيرا إن شاء الله .

ـ ابني لخضر . . .!

ـ لخضر؟ خيراً إن شاء الله . .

وحكى له الحكاية . . كان نوح هادئاً وهو يستمع ، وكان وجهه يزداد شحوباً مع سير الحكاية ، ولكنه ظل جالساً يستمع بصمت إلى أن توقف الرجل عن الكلام ، قال يحاول باذلاً جهداً في الهدوء .

ـ فهمت . .!

ـ ابنتك رائعة ولا ينقصها شيء وتستحق أفضل شاب في المدينة . ولأني أحبك أردت أن تعرف ذلك مني . . لا أريد أن تعرف أمراً كهذا من شخص غريب لأن كرامتك من كرامتي .!

قالها وهو يقف على قدميه . لم يصر نوح على إبقائه كما كان يفعل سابقاً ، بل تركه يذهب دون كلمة . . . شعر بالغضب يصعد إلى رأسه ، ربما لأن شخصاً بائساً مثل السي عثمان جاء ليحذره من علاقة مبهمة قائمة بين ابنته وذلك البائس الجائع! رفع عينيه إلى شباك بيته المفتوح ، وشعر أن الغضب عكر مزاجه تماما . أغلق دكانه وصعد إلى البيت ركضا . .! كان في قمة هيجانه وهو ينادي زوجته التي جاءته مرعوبة . .

بدا هائجا وهو يقول بغضب :

ـ هل سمعت بآخر الأخبار أم أنك نائمة على أدنيك أنت أيضاً؟

ـ ماذا جرى؟

ـ اسألي ابنتك . . اسأليها ماذا جرى . . .!

سمعت نجاة الجملة الأخيرة فانتفض قلبها ذعراً ، دخل والدها غرفتها وهو يصرخ بغضب :

ـ هذا جزائي . .؟ جزاء الإحسان بالنكران؟ جزاء الثقة التي وضعتها فيك؟ تصادقين لخضر البائس الجائع؟

صعقت والدتها وذعرت أختاها اللتان بقيتا واقفتين بلا حراك . غضب والدهما اليوم أوحى لهن أن ما جرى كارثة لن تمر مرور الكرام . .! قالت الأم تحاول امتصاص غضبه :

ـ ماذا تقول يا رجل . . اهدأ واستهدي بالله!

ـ كيف أهدأ وابنتك لطخت سمعتي في الأرض . . ابنتك تصادق لخضر الحمّال ابن الحمال . .!

نظر نوح إلى ابنته نظرة غاضبة وصاح :

ـ تكلمي . .! قولي أن هذا الكلام غير صحيح . . .!

ولم تتكلم . كان لصمتها وطأة شديدة على أبيها الذي انهال عليها بالضرب . . كانت الصفعات تسقط عليها ، ولم ترفع يديها لتحمي وجهها من الضربات ، كأنها تعاقب نفسها بيدي أبيها ، بينما والدتها تحاول إنقاذها من الضرب ، تدخلت الأختان وحاولتا إبعاد أختهما الصغرى عن أبيهما .

ـ لن أسامح لك فعلتك هذه . . لن أغفرها لك . .!

صاحت الأم وهي ترى ابنتها تنهار على الأرض فاقدة الوعي . . كان

نوح مذهولاً وهو يرى ابنته على الأرض . عاد إليه هدوءه وهو يركض نحو صغيرته . . حملها بين ذراعيه بتأنيب الضمير . لحظات وعادت نجاة إلى الوعي أمام ذعر أمها وأبيها وأختيها ، وراحت تبكي طويلا قبل أن تهدأ أخيراً ، كان الجميع ينظر إليها نظرات مليئة بالشفقة والذهول ، والسؤال الكبير في عيني كل واحد منهم «كيف استطعت ارتكاب هذا الجرم؟» . . حتى هي راودها الشعور نفسه بأنها ارتكبت جرماً كبيراً ، مع أنها تراجعت عن جنونها في الأيام الأخيرة عندما كفت عن لقائه . . لكن ما فائدة ذلك الآن وقد وصل الأمر إلى أهلها . .؟ لا أحد يمكنه فهم علاقة كتلك العلاقة ، ولا هي تفهم كيف استطاعت أن ترتكب جنوناً كذلك الجنون؟ كيف توقعت أنها قادرة على أن تكون مختلفة عن أختيها وعن بقية البنات اللائي يردن شيئا أفضل مما لديهن . .؟

قال نوح يخاطب زوجته بصوت استعاد هدوءه :

ـ لم أصدق الخبر حين أخبرني به عثمان . جاء يحذرني من ابنه . .! كيف يمكن الوثوق في شخص يمشي على هواه ضاربا ببؤسه عرض الحائط . . .!

أضاف نوح بلهجة مغايرة :

ـ لقد تقدم قبل فترة السي حسان يطلب نجاة لابنه علي ، ضابط الشرطة . وكنت متردداً في إعطائه كلمة أكيدة متمنياً أن تتزوج الزهرة أولا . . ولكن بعد ما جرى ، لن يهمني . . سأرد على السي حسان وأخبره أنني موافق . .!

وبدا السرور على وجه أمها ، وسرعان ما نظرت إلى ابنتها الزهرة الواقفة بالجوار . . قالت تحاول إخفاء فرحتها :

ـ نزوج نجاة التلميذة قبل الزهرة؟ كيف هذا؟

ـ سيأتي نصيب الزهرة وسلمى ، ولكن عريس نجاة جاهز . . ناهيك على أنه ضابط في الشرطة . يعني سلطة ووقار ورفعة . .!

قالها مقتنعاً أنه يفعل ما هو صائب . . نظر إلى ابنته التي غطت وجهها بلحاف السرير كي لا تواجه عيني أبيها . .!

-١٠-

غابت نجاة عن الأنظار . فقد اختفت عن المدرسة والشارع فجأة ، شعر لخضر أنه آيل إلى الجنون . . لم يكن لغيابها ما يبرره في نظره بالرغم مما قالته . . قرر الذهاب إلى دكان نوح لمجرد الشعور أنه قادر على رفع عينيه إلى نافذة غرفتها . . خفق قلبه بقوة وهو يرى وجه نوح المكفهر ، جمع شجاعته ودخل إلى الدكان كما يدخل عادة ، مبتسما تلك الابتسامة التي كانت تثير عطفه ، لكنه صعق عندما بادره بصوت أشبه بالصراخ :

ـ نعم؟ ماذا تريد؟

ـ مساء الخير يا عمي نوح . .!

ـ لست عم أحد . .!

صعق لخضر وشحب وجهه وهو ينظر إلى الرجل نظرة مليئة بالأسئلة ، وقبل أن يعلق لخضر بشيء بادره التاجر بالصوت نفسه :

ـ قل ماذا تريد أو امض إلى شأنك . .!

ـ هل ثمة شيء يا عم . . يا سي نوح؟ هل أنت غاضب مني ؟!

نظر إليه نوح نظرة قاتمة وهو يلامس شاربه الكثيف ، كان يشعر بالغضب ليس لأن لخضر قبالته ، بل لأنه لا يفهم كيف تجرأت ابنته على أن تخرج مع شخص كهذا ؟ كيف يمكن أن يغفر لابنته أن تمشي مع شخص بهذا الشكل الخائب؟

ـ لا أريد العودة إلى أي كلام سخيف لا جدوى منه ، لكن عليك أن تعرف أنني أبداً لن أسامح خيانتك لثقتي! كنت أعتبرك كابني ، لكن صدق من قال : «لن يكن لك ابن حتى يولد من صلبك . .!» لحسن الحظ أن والدك نبهني قبل أن يصير الأمر فضيحة في الحي . ساعتها ما كنت لأرفع رأسي أمام أحد . .!

ـ ماذا ؟

ـ أنت تعرف جيداً عن ماذا أتكلم ، وعليك أن تعرف أيضاً أنك خيبت ظني فيك كثيراً . .!

ـ أنا لم أفعل شيئاً يهينك!

ـ ما فعلته أكبر إهانة لي . عموما لا أريد العودة إلى هذا الأمر ، نجاة ستخطب هذا الخميس لشخص يستحقها ويمكنني أن أرفع رأسي به!

ـ . . . .؟

ـ اذهب الآن في طريقك! ليس لك عندي أي شيء . .!

قالها وهو يدير له ظهره بعصبية جعلته يرتعش من الصدمة . هل ما سمعه كان حقيقة أم أنه تخيل ذلك؟ مشى خطوات ثقيلة نحو الخلف ، ووجد نفسه يرفع عينيه إلى ذلك الشباك المغلق . . كان حزيناً ومكسوراً وهو يعود إلى البيت محطماً . . يا إلهي . . قالها في نفسه وهو يتذكر كلام نوح . . . «لحسن الحظ أن والدك نبهني قبل أن يصير الأمر فضيحة . .»! تذكر أن والده بدا هادئا طوال الأيام الماضية ، بل وكان يرى في عينيه نظرة أقرب إلى التشفي . .! ألهذا الحد يكره أن يراه سعيدا . .؟ كان يدرك أن سعادته لا تعني لوالده شيئاً بقدر ما يعني له الراتب الذي صار يقتطعه منه . . كل هذا لأجل الراتب؟ أيعقل أن يكسر والده قلبه لأجل راتب؟ كان لخضر في قمة إحباطه وهو يصارع الأشياء التي كانت تتضارب في

داخله . . كان يشعر أنه كائن بائس لمجرد أنه على هذه الأرض ، ولمجرد أن والده هو هذا الرجل الذي يردد دائماً : «إخوانك يحتاجون لكل دينار ، مصاريفهم تزيد يوما بعد يوم . . . .!» إخوانه الذين كانوا ينتقمون منه بصمت وهو يعود يوميا إلى البيت فارغ اليدين ، خالياً من الأمل ، فجأة ضاع كل شيء . ضاعت نجاة وضاع الحلم والحوارات الجميلة والعادية والشارع الحميم الذي كانا يمشيان فيه . . فجأة لم يعد للحياة طعم ولا للأشياء لون ، أصبحت سوداء وقاتمة . . شعر أنه أصبح يتيماً من جديد ، كأشد ما يكون اليتم لعنة هذه المرة ، وزاد إحساسه بالانكسار في نهاية الأسبوع وهو يستمع إلى زغاريد آتية من بيت نجاة . . كان الناس سعداء وهم يقدمون التهاني للسي نوح وللضابط الوسيم ، سعيد الحظ الواقف مع شباب الحي فخوراً مبتهجاً بأجمل فتاة . كان الشباب يحسدونه بصمت ، يشعرون أنه محظوظ ، لأنه سيتزوج من تلك الجميلة التي كانوا يشتهونها في سرهم ، فكر لخضر في نجاة : هل هي سعيدة؟ فكر بينه وبين نفسه أنها قد تكون حزينة لأنها أجبرت على الزواج من شخص يختاره والدها انتقاماً منها على «فعلتها السيئة!»

لم يخطر بباله قط أن نجاة سعيدة جداً وهي تنظر إلى خطيبها الوسيم وهو يأخذ مكاناً بالقرب منها . . كان قوي البنية ، فارع الطول وواثقاً من نفسه وهو ينحني عليها قليلاً ليقول شيئاً عادياً يصيبها بالخجل الذي يروقه . .! كان الجميع ينظر إليهما بفخر . . عائلته التي تعتقد أنهم سيشرّفون عائلة نوح بهذا الزواج ، ونوح الذي يرى ابنته الجميلة مفخرة لكل عائلة . . حتى أختاها بدتا سعيدتين . . كان الجميع يؤدي دوره على أحسن ما يرام ، وحين ألبس العريس الخاتم لعروسه ، تعالت الزغاريد مجلجلة ، وكان لخضر واقفاً غير بعيد عن العمارة ، يراقب الناس المبتهجين المنتظرين نزول العريس

ليباركوا له . كان يريد أن يرى ذلك الشخص الذي يفوقه في كل شيء . . لم يكن يفكر في المقارنة بينه وبين الضابط ، لأنه يدرك أنه سيخرج الخاسر من كل الحكاية . . وقتها عاد إلى التفكير في الرحيل . . .!

هل كان عليه أن يخسر ويبتلع السكينة بصمت؟ كل الذين عرفهم خانوه ، حتى الذين لم يكن يشعر نحوهم بشيء خانوه ، لأنه فقير وجائع ، ولأنه يثير الشفقة في عيون كل من اعتبره تافها . . لم يكن أحد من إخوته أو أبيه يفوت الفرصة للضحك عليه . . هو المعتوه الذي كان جمع التكسير في جملة غير مكتملة . .! فكّر أن نجاة لم تخنه! كان يجد لها الأعذار يوما بعد يوم . . هل يمكن لفتاة أن تقف في وجه أهلها؟ في وجه أبيها؟ هو نفسه لم يقف في وجه أبيه ولا ظروفه . .! تلك الفكرة حملت إلى قلبه عزاء غريباً جعله يجد لها ألف عذر وعذر . ثم رآها فجأة ، بعد كل هذا الغياب . . رآها تتأبط ذارع خطيبها السعيد بها . . كانا معا ، يقفان أمام واجهة محل للمجوهرات . . شعر بقلبه يدق بقوة وهو ينظر إليها وقد بدت أكثر نضارة وجمالاً وأناقة . لم يفكر لحظتها في شيء سوى في الاقتراب منها والنظر إلى عينيها ، وكأنها انتبهت إلى شخص يقترب منهما التفتت نحو الخلف ، وإذ بوجهها يصبح شاحباً وهي تنظر إليه كمن يرى شبحاً اعتقد أنه تخلص منه . .!

شعر لخضر بخيبة وهو يرى شحوبها ونظراتها الغاضبة والضجرة معا . . حاولت أن تجر خطيبها بعيداً ، لكنه ناداها باسمها : ((نجاة!)) . . صعد الغضب إلى وجه خطيبها الذي التفت نحوه وانهال عليه بالضرب دون حتى سؤاله عما يريده ، ووجد لخضر نفسه يحمي وجهه من الصفعات بيدين مرتعشتين ، وإذ بصوتها يصله مليئاً بالذعر وهي تجذب خطيبها وتقول :

- أرجوك توقف وإلا ستقتله . . توقف ، ألا ترى أنه يثير الشفقة . .؟!

زاد غضب خطيبها وهو يصيح به :

- كيف تجرؤ على مناداتها باسمها أمامي يا كلب . .!

كان لخضر مذهولاً من الموقف كله ، حتى وهو يشعر بشيء ساخن بدأ يسيل من أنفه ، مسحه براحة يده وإذا به دم . نظر إلى نجاة التي جرت خطيبها من ذراعه وأبعدته عن المكان بعد أن التم عدد من المارة حولهم . ظل لخضر مسنودا إلى الجدار مرتبكاً أمام أعين المارة المذهولين مما حدث . . مسح آثار دم سال من شفتيه . . لم تؤلمه اللكمات التي سقطت على وجهه بقدر ما آلمته الجملة التي قالتها نجاة لتهدئة خطيبها : «ألا ترى أنه يثير الشفقة؟!» شعر بألم شديد يخترقه حتى العظم . انتابته رغبة غريبة في البكاء وهو يتحسس آثار الضرب على وجهه . . يا إلهي ، قالها وهو يغطي وجهه بين يديه ويجهش بالبكاء . .! بكى طويلا أمام أعين المارة الذين حاول بعضهم التخفيف عنه . و بعد نوبة البكاء مشى مترنحاً عائداً إلى البيت ليتفاجأ بالضابط ينتظره عند مدخل الحي مع شخصين كانا يرتديان اللباس الرسمي . شعر بالخوف حين طلب منه بطاقته الشخصية كما يفعل مع أي مشتبه به . . دس يده داخل جيب سترته الداخلي وأخرج البطاقة . ناولها إلى الضابط الذي أمسكها دون أن ينظر إليها . . قال بصوت لا يخلو من حقد :

- أعتقد أنك تعرف ماذا فعلت؟

- لا أعرف!

- بل تعرف أيها الجائع . . تعرف جيداً . .!

رفع لخضر يده إلى وجهه معتقداً أنه سيتلقى ضربات جديدة . رأى نظرات سخرية في عيني الرجلين اللذين كانا ينظران إلى بعضهما

بابتسامة مهينة . قال يحاول أن ينهي هذا الأمر بأقل الأضرار الممكنة :

ـ صدقني يا سيدي ،لم أفعل شيئاً!

ـ ما علاقتك بخطيبتي لتنادي لها باسمها في الشارع أيها اللعين؟

لعله توقع أي سؤال إلا ذلك السؤال المباشر والمخيف . . لم يجد ما يقوله . . ظل ينظر إليه مذهولاً قبل أن ينطق بصوت أراده صادقاً :

ـ نجاة مثل أختي . . !

نطقه باسمها ثانية جعل الضابط يفقد أعصابه . . انهال عليه ضرباً ، وكان لخضر يحمي وجهه بكلتا يديه ، وعندما شعر الضابط أن لخضر نال ما يستحقه تركه وسط الطريق يتلوى من الألم . . بعض الذين رأوا المشهد بدوا في حالة ذهول كبيرة ، لكن لا أحد سيقول إنه رأى ضابط شرطة ينهال بالضرب على شخص ظل يخفي وجهه لتجنب اللكمات . . كان الجميع يعرف أن سلطة الضابط هي الأقوى ، وأن الشاب الملقى على الأرض ليس ضحية ، بل شخص لم يكن عليه أن يوجد في طريق شرطي في حالة استنفار . .! بعض المارة اتصلوا بالإسعاف التي جاءت بعد ساعة . . كان لخضر يشعر أن جسمه تكسر من الألم . . في المستشفى سأله الطبيب عن سبب هذه الجراح في وجهه فرد بصوت مكسور :

ـ وقعت وأنا أمشي!

سأله بصوت عادي :

ـ هل تشتغل؟

ـ نعم . .!

ـ سأكتب لك رسالة طبية تسلمها إلى مسئوليك في العمل لأجل أن ترتاح لمدة أسبوع ، يجب أن تتناول الدواء الذي سأصفه لك . . هذا مهم ، وتجنب الحركة قبل يومين على الأقل !

لم يعلق لخضر بشيء ، كان جسمه يؤلمه وإحساس أن ذراعه قد اقتلعت من مكانها! عاد إلى البيت يمشي بصعوبة كبيرة كمن يخرج من معركة خاسرة . . دخل إلى البيت صامتاً وعندما رآه أبوه شهق :

ـ ما الذي جرى لك؟

رد بلا رغبة في الحوار :

ـ وقعت في الشارع وأنا راجع إلى البيت!

قالها واستلقى بصعوبة على فرشته لكنه ،لم ينم . . كان جسمه يؤلمه وكان قلبه ينز دماً . .!

حالة نفسية قريبة إلى الجنون تلك التي تملكته لأيام طويلة . كان يخيّل إليه أحياناً أنه يستمع إلى أصوات لا يعرف مصدرها تشجعه على الموت . . أحياناً يلمح ظلاً يعرفه جيداً ، ويداً تمتد نحوه ، وحين يدنو قليلا من الظل يلمح أمه تجلس القرفصاء في الدار وتعجن كما كانت تفعل . ثم يخيل إليه أن أمه تنهض من جلستها تلك وتمد يديها الاثنتين نحوه وتهمس له : ليس لك ما تفعله هنا يا بني ، تعال معي . . أختك كبرت وهي دائمة السؤال عنك! كان يبتسم ويمد يده عله يدرك يدي أمه الممدودتين نحوه . . أسبوع وهو يهلوس بكلمات غامضة ، يضحك أو يبكي ، ولم يشعر والده أن عليه أن يزجره ، منذ أخبره بعض شباب الحي أن صهر السي نوح هو الذي اعتدى عليه بالضرب . كان الجميع يعرف السبب دون أن يتفوه به! لم يكن مكوث لخضر في البيت ممتعا لا له ولا لزوجة أبيه الغاضبة باستمرار وبلا سبب . . كانت تثير ضجيجاً غريباً طوال الوقت . . تستفزه أحيانا بعبارات عامة وجارحة يدرك أنها موجهة إليه ، لكنه لم يكن يعنيه كل ذلك ، فقد اختلطت الصور في مخيلته . .!

بعد عشرة أيام استعاد لخضر عافيته ، وعاد إلى عمله ، لكنه صعق

عندما سمع أن المدير قرر نقل رئيس العمال نحو مكان آخر . . خيل إليه أنه سيفقد آخر يد دافئة كانت تربت على كتفه ، قال رئيس العمال في فترة الراحة موجها كلامه لكل من بدا حزيناً على قرار نقله :

- لا يهم نقلي ، هنا أو هناك أو في آخر نقطة من الوطن سيان عندي . . المهم البقاء على يقين . .!

- ستذهب يا سيدي؟

- نعم سأذهب يا لخضر . .! قضيتي ليست في الأمكنة ، بل في ضرورة التغيير في فكر الرجال . . هؤلاء العمال سيرفضون الاستغلال وسيثورون عندما يكتشفون أن حقوقهم ضائعة ، وأن الكبار يحولونهم إلى مجرد كائنات مجهرية . .!

- لكننا كائنات مجهرية فعلاً . .!

نظر إليه رئيسه نظرة عميقة وهو يقول :

- لا أحد يستطيع أن يسحب من أحد حريته إن عرف الدفاع عنها . . حرية الرجال في كرامتهم ، وهي غالية جداً . .!

الخطاب الذي بدا كبيراً وجاهزاً ، كأي خطاب يقال على شرف فجيعة ما . . كان لخضر مقتنعا ألا وجود لحرية فوق السلطة ، وألا وجود لكرامة فوق المال . . حتى القانون يتنازل عن حقوقه أمام السلطة وأمام المال . هل يمكن أن يرفع حمّال بائس عينيه في وجه وزير أو ابن وزير بحجة أنه كائن حر؟ كان لخضر يدرك أن مثالية رئيسه هي السبب في نقله ، ومع هذا سيشعر باليتم من بعده ، ولعل رئيسه فهم ذلك . . قال له وهو يربت على كتفه من جديد :

- هل ترغب في العمل بمكان آخر؟

استغرب لخضر السؤال وارتبك . لم يفكر قط في أنه يستطيع اختيار

عملاً آخر . . نظر إلى رئيسه نظرة استعطاف وهو يقول :

ـ ممكن؟

ـ كل شيء ممكن يا بني . . !

فكر فجأة أنه غير قادر على رفض العمل في مكان آخر ، ليس لأنه يحتاج إلى الابتعاد عن الميناء فحسب ، بل ويحتاج إلى الابتعاد عن البيت أيضا . كان قلبه يدق بقوة وهو يبحث عن كلمة يقولها لرئيسه الذي بدا كأنه يخدمه للمرة الأخيرة قبل أن يغادر . . قال له بالابتسامة نفسها التي أصبح يحبها :

ـ سأرد عليك بعد يومين . .!

قالها مبتسماً وهو يشعل سيجارة وينفخ دخانها مفكرا بينه وبين نفسه ، ثم وهو يعيد نظراته إليه أضاف :

ـ لا تظن أنني لم ألحظ فتور علاقتك بأبيك منذ فترة ولا أخفي عليك أن أباك حكى لي ما جرى لك في الفترة الماضية . .! ربما من وجهة نظره أنت مخطئ ، ومن وجهة نظري أنا ، أحلامك لم تكن عيباً ولكن الوقت لم يكن مناسبا لتحقيقها!

طأطأ لخضر رأسه خجلاً . . ربت رئيسه على كتفه وهو يقول :

ـ تريث حتى تكون قادراً على تحقيق أحلامك . .! أنت شاب وما زال العمر أمامك . .! المهم أن تغير في حياتك نحو الأحسن . أنت شاب جيد وعليك أن تثق في نفسك ليس أكثر . . تجاوز المشاكل الصغيرة وعالج المشاكل الكبيرة بالحكمة . .! وتذكر أن كرامة الرجال في حريتهم!

كان لخضر ممتناً إلى رئيسه الطيب الذي أوفى بوعده له وحمل له ترخيصاً للعمل في مكان آخر .

يذكر جيداً يوم غادر الميناء بعد أن ودع زملاءه الذين تعودوا عليه . .

كان يشعر أنه تحرر من عبء الأكياس المحمولة على الظهر، وقتها فكر أن يخبر والده بشيء كان يعرف مسبقا ردة فعله إزاءه. قال له بصوت أراده طبيعياً:

- عملي الليلي يجعلني مضطراً إلى البحث عن مكان أنام فيه نهاراً!

بدا للوالد صوت ابنه مليئاً بالقسوة والانتقام، ولم يجد كيف يرد عليه. قال بعد جهد كبير:

- ماذا تعني؟

- أعني أنني لو عدت صباحاً إلى البيت فلن أستطيع النوم، وعلي أن أبحث عن مكان أنام فيه لأشتغل ليلا!

- وما الحل في نظرك؟

كان لخضر يكره هذه الأسئلة التي لن تقود إلى أكثر من الشجار العقيم، لكنه وجد نفسه يقول بصوت بدا لوالده مليئاً بالتحدي:

- الحل أن أستقل وأعيش حياتي كما أريد..! فأنا لم أعد صغيراً، وحان الوقت أن أعيش حياتي دون أن يعاملني أحد كما لو كنت مختلاً عقلياً..!

هل صدر منه كل هذا الكلام؟ شعر بالخوف للحظة وهو ينظر إلى والده الذي احمر وجهه من الغضب. كانت تلك آخر صورة أخذها لخضر معه وهو يغادر والده دون رجعة! لم يشعر بالندم قط بعدها. حتى وهو يكتشف أن المستودع الذي سوف يحرسه ليلاً ملك لأحد الأثرياء. كان المستودع كبيراً محاطاً ببعض الرجال المسلحين.. تساءل لخضر ما جدوى طلب حارس ليلي في وجود هؤلاء الحراس المسلحين؟ أوقفه أحدهم صارخا فيه:

- إلى أين؟

أخرج لخضر من جيبه الورقة التي سلمه إياها رئيس العمال قبل رحيله . ورقة سمحت له بالدخول إلى رئيس الحراس الذي أشار بيده نحو المكان الذي سوف يكون مكانه الليلي . . مستودع كبير مكتظ بالصناديق الحديدية مرتبة بنظام مدهش . . لم يكن وحده . . كان ثمة حارس النهار ، يكبره سناً ، بدا ودوداً معه وهو يرحب به بحرارة . . قال الشخص الذي قاده إلى المكان بصوت خال من الحرارة :

ـ سيشرح لك حارس النهار ما عليك القيام به ، بينما أذهب لإبلاغهم أنك هنا . .!

نظر لخضر حوله بارتباك لم يخف عن الحارس النهاري الذي ابتسم وهو يقول :

ـ سوف تتعود على المكان بسرعة . .!

ـ إن شاء الله . .!

قالها لخضر مبتسما . . فرد زميله بصوت بدا له حميماً :

ـ أنا أحمد . . سوف نتقاطع كثيراً في الأيام القادمة ، فعندما تصل أنت أذهب أنا . . .!

نظر لخضر حوله من جديد . . اكتشف أن الرجال المسلحين يمشون على طول الجبل المرتفع القريب من المكان ، وكأن أحمد قرأ أفكاره قال له مبتسماً :

ـ هؤلاء يحرسون المستودع من الخارج ، بينما أنت ستحرسه من الداخل . .! ستدخل وتغلق عليك الباب وتظل هناك إلى أن يطل النهار . .! هذه وظيفة على بساطتها تبدو مربحة لأمثالنا ، لهذا أهم نقطة يجب أن تفهمها هي ألا تسأل . . عليك أن تعمل وتصمت . .!

قالها له وهو يلمح أحد الرجال مقبلا نحوهما ، قال هذا الأخير موجها

كلامه للخضر :

ـ المسؤول يريد أن يراك . .!

كأنه امتحان ذاك الذي قبالته ، شعر لخضر بشيء قريب من الخوف . . تذكر كلام سي منصور : «كرامة الرجال في حريتهم ويجب أن تكون رجلاً يا لخضر . .!»

أليس هذا هو الوقت المناسب ليكون فيه رجلاً . .؟!

-١١-

كـان عـمله مليـئـاً بكل أنواع التناقـضـات التي تأملهـا من ثقـوب المسـتـودع . . ينظر إلى الحـراس الذين يمرون ليـلاً بالقـرب من المكان ، يضحكون أو يتسامرون . . بعضهم يدخن والبعض الآخر يراقب المكان من كل الجهات . كان يعرف أنه لا يحرس شيئاً ، يجلس فقط داخل مستودع مظلم ، يشعل قنديل غاز قديم ويخـفف من ضوئه ، ويبقى جالسـاً طوال الليل ، يتفرج على صمت المكان . على الصناديق الحديدية التي لم تكن بحاجة إليه . . كان يشعر أحياناً بملل يتسرب إليه . . هل هذا هو العمل الذي اعتقد أنه سيغير حياته؟ لم يكن له حق السؤال أو الكلام . . يأتي في وقته المحدد ليجد حارس النهار منتظراً ، مستعداً للمغادرة . . يتبادلان تحية سريعة ، فيدخل لخضر إلى داخل المستودع كسجين يعرف رقم زنزانته جيداً ، قبالة ليل يبدو طويلاً وغير مجدٍ . . شعر بالخيبة فجأة . .! فكر أن الميناء أفضل من هذا المكان المغلق الذي تفوح منه رائحة رطوبة تجعله يعطش رغما عنه ، فيخيل إليه أن عطسته وصلت إلى آخر الجبل . .! لكن عندما تسلم راتبه أول مرة ظهرت ملامح الأمل في عينيه من جديد . . يا إلهي . . قالها وهو يتخيل وجه أبيه إن هو رأى راتبه الجديد . .! والده . .! لم يذهب إلى البيت منذ شهر . . كان يرتاد إحدى الحدائق العامة ويفترش جريدة في زاوية هادئة وينام متعباً ، متجاهلاً الضجيج الصاخب . . فجأة

وجد نفسه يتعود على تلك الحياة التي حولته إلى متشرد ينام في الحديقة صباحاً ويعمل حارساً في الليل . .! لم يشعر أن عليه الذهاب إلى البيت ، لأنه لم يشعر أنه ترك شيئاً مهماً عليه أن يتفقده . .! لأول مرة ينتابه إحساس أنه استغل فرصة جاءته ضارباً عرض الحائط بكل الكلام الجاهز الذي قد يقوله عنه أناس يرون فيه ابناً عاقاً ! هل كان عليه التفكير في كلام الناس وهو يدس راتبه في جيبه ، متذكراً أن عليه أن يستأجر بيتا صغيراً ليصبح رجلاً يفكر بنفسه ولأجل نفسه . .! استعاد حلم الحياة فجأة! كان يفكر في مستقبله كما يفكر شخص واثق في الغد . . فكر أن يشتري ما يشاء من الغذاء واللباس ، وأن يمارس حريته التي عجز عن ممارستها من قبل . كان يبتسم كلما مر أمام السينما نهاراً ، فيقرر الدخول متذكراً أنه لن يغادر الفيلم قبل نهايته بعد الآن . . سيتسنى له الدخول إلى مطعم لتناول وجبة ما بإحساس قريب إلى الفخر . . فكر أنه سوف يتسنى له فعل أشياء كثيرة . . أليس هذا كفيلاً بإدخال الغبطة إلى قلب حزين ومكسور؟

أربعة أشهر مضت استطاع أن يستأجر لنفسه غرفة صغيرة بمبلغ زهيد كل شهر . . اشترى بعض الثياب وحذاءين وسترة جلدية سوداء . تذكر بائع الأحذية الذي استقبله بابتسامة عريضة وهو ينتقي لأجله الأحذية العصرية ، وعندما اختار ما يريد سلم له كيس المشتريات وهو يقول بالابتسامة نفسها المرسومة بإتقان :

ـ نرجو أن نراك دائماً في محلنا يا سيدي . .!

لعله بقي دقيقة واقفا ينظر إلى البائع المبتسم تلك الابتسامة التي ملأته بالفخر . لكم هزته كلمة «يا سيدي» . .! ألهذا الحد تصنع النقود السيادة للمرء ؟ قالها في نفسه وهو يمشي على طول شارع المدينة

الرئيسي . . توقف أمام مطعم دخله وأخذ لنفسه مكاناً إلى طاولة قريبة من الواجهة المقابلة للشارع . . طلب وجبة دافئة أعادت الألوان إلى وجهه ، وعندما انتهى من الأكل ، اقترب النادل منه بابتسامة متقنة وسأله :

ـ هل ترغب في مشروب معين يا سيدي؟

ونظر إلى النادل بالذهول نفسه الذي نظر به إلى بائع الأحذية . . كان النادل ينتظر الرد ، وكان لخضر يشعر لأول مرة أنه أصبح سيداً ، وأنه سيكون محترماً لدقائق أخرى . . فكر في الماضي القريب . . شعر بحنين غريب إلى وجه ما زال يعتقد أنه الأجمل في الكون . . نجاة . . ! تساءل بحزن : هل كانت ستعرفني لو رأتني الآن؟ حمحم النادل . . نظر لخضر إليه وقال بصوت أراده عادياً :

ـ عصير . .!

ـ حالاً . .!

كان يجد في تلك الأماكن شيئاً يشعره بقيمته إزاء ذاته . . يدفع النقود لأجل أن يسمع كلمة «سيدي» . .! يحس أنه ملك نفسه . غير آبه بشيء أو بأحد . . أربعة أشهر اكتشف فيها تلك المتعة التي كان يتلذذها نهاراً ، ناسياً هموماً كثيرة ، ليعود إلى المستودع ليلاً يجوب المكان ذهاباً وإياباً . ثم ذات مرة ، جاءه رجل ذو نظرات عصبية لا تستقر على شيء . . ناداه باسمه فركض نحوه مسرعاً . . كان قد تعلم الوقوف أمام هؤلاء الرجال الذين يعتبرونه حارساً بائساً ، فيظل يشعر في حضورهم بأهمية أن يعاملهم كما يريدون ، كان يقول لكل واحد منهم «يا سيدي» . .! قال له بصوت عصبي متعود عليه :

ـ سوف تبقى إلى منتصف النهار من يوم غد لتساعد الرجال على نقل شحنة جديدة إلى المستودع . . !

ـ حاضر يا سيدي . .!

قالها ولمح آثار رضا في عيني الرجل الذي لم يضف شيئاً ، تركه وانسحب . . كان يعرف أن عبارة يا سيدي تعني للآخرين ذلك الوقار الذي يريدون تصديقه . . سلطة وهمية يشعرون أنها ضرورية في حضور البؤساء . .! فكل واحد يقولها لمن هو أرفع منه ، ولهذا كان الجميع يقولها بالطريقة نفسها ليسمعها الآخر بالطريقة نفسها!

لم يغادر صباحاً كما تعود المغادرة . جاء الحارس النهاري في الثامنة ككل يوم وتحدثا معا حديثا لا جدوى منه ، وعندما وصلت الشاحنة مليئة بالصناديق الجديدة ، قال له شخص نحيف وقوي الصوت :

ـ يجب أن تنقلوا الصناديق من مستودع اليمين إلى مستودع اليسار . . هيا . .!

أسرع لخضر لتنفيذ الأوامر بمساعدة عدد من الرجال الذين نزلوا من الشاحنات . . استغرقت العملية ثلاث ساعات قبل أن تبدأ عملية إنزال الصناديق الجديدة وإدخالها إلى المستودع والعمل على ترتيبها فوق بعضها بالنظام نفسه المتعاهد عليه . . كان يعمل باذلاً جهداً حقيقياً ، وعندما انتهوا من العملية وجد نفسه يجلس على صخرة صغيرة قرب المستودع الذي تعود على حراسته . . كان الحارس النهاري ينظر إليه بابتسامة متعبة . . دعاه إلى تناول القهوة معه فلم يمانع . . قال له وهو يقرب الفنجان إليه :

ـ في مثل هذا الوقت الحركة تقل قليلا لكن سرعان ما تشتد في الواحدة ظهراً . .!

هز رأسه ولم يرد . . كان يجهل كل شيء عن الحركة ، ففي الليل تضيع التفاصيل التي يراها صباحاً . . في الليل لا وقت لشيء سوى

الصمت . قال لخضر وهو ينظر إلى عيني زميله :

ـ العمل في الليل أفضل بالنسبة لي . . كوني فعلا أرتاح من ضجيج النهار . .!

ـ بالنسبة لرجل متزوج مثلي فعمل الليل لا يليق بي . .!

قالها وهو يضحك . . ثم سأله :

ـ ألست متزوجاً؟

ـ لا . .

ـ أرأيت لماذا تحب عمل الليل؟ لأنك لست متزوجاً؟

قالها وعاد إلى الضحك بصوت منخفض . . طأطأ لخضر رأسه وهو ينظر إلى حذائه الذي صار مليئاً بالغبار . . مسحه براحة يده . . ثم قال مباشرة :

ـ يبدو أنك هنا من فترة طويلة . .!

ـ منذ خمسة أعوام بالتمام والكمال . .!

ـ خمسة أعوام؟ إنها مدة طويلة . . .!

ـ بالنسبة لأب عائلة فهي مدة وكفى ، ولا أحد يجد عملاً ويقول إنه قضى فيه مدة طويلة . .!

ـ معك حق . .!

قالها وهو يمسح الجهة الثانية من حذائه براحة يده . . بدا له الحذاء أفضل الآن وقد مسح عنه آثار الغبار الذي علق به . . اكتشف أن ثمة غباراً كثيفاً على بنطلونه ، نفضه بحركة قوية . . كان زميله ينظر إليه مبتسماً :

ـ عندما تتزوج ستنسى هذه الحركات . . سيجعلك الزواج تهمل في لبسك وشكلك . .!

وابتسم لخضر بدوره . . ها هو يقول له هذا الكلام . . هو الذي عاش

حياته غير آبه بشكله ولا بلبسه لأجل أن يلبس إخوة يكرهونه . .! كان يفكر في الذهاب قبل أن يستوقفه زميله بسؤال فاجأه :

ـ هل ثمة حراسة كثيفة ليلاً؟

وهاله السؤال الذي بدا له كجملة ملغومة . . لا يعرف لماذا دق قلبه بقوة لحظتها ، فهو لا يعرف عن الرجال الذي يحومون حول المكان ليلاً . . يعرف أنهم يتغيرون عندما يطلع النهار ، مثله يذهب كل واحد في طريقه ليعود ليلا للوظيفة نفسها . . لا يعرفهم . . يسمع أصواتهم فقط عندما يقتربون من المكان ، أو حين يجلسون غير بعيد عن المستودع لتدخين سيجارة أو لتناول قهوة شبه باردة . . يصغي أحياناً إلى حكاياتهم التي بعضها يبدو عادياً وبعضها خاصا . . حكايات عن تجارب عاطفية يروونها على بعض لقتل الوقت ، لكنه لم يرهم . .كان يتخيل وجوههم أحياناً . . يعطي لها ملامح وفق ما في الصوت من نبرات . . يتخيل هذا سميناً وذاك نحيفاً . . هذا قصيراً وذاك طويلاً . .

نظر إلى زميله وقال :

ـ لا أعرف . . لماذا تسألني؟

ـ مجرد سؤال . . لا تشغل بالك . .!

نظر لخضر إلى زميله الثرثار ، وفجأة سأل السؤال الذي أراد أن يسأله منذ أول يوم جاء فيه إلى هنا :

ـ لمن هذا المخزن؟

ـ إنه ملك السي فاروق ، شقيق الكولونيل فيصل . . !

لم يرد . . تظاهر بالحياد وهو يسمع تلك التفاصيل التي لم يكن يجرؤ على التعليق عليها أو الخوض فيها . . في عشر دقائق استطاع أن يفهم المكان الذي يوجد فيه . . كان زميله ثرثاراً عن حاجة إلى تبادل كلام مع

شخص ما ، وإن بدا أنه لم يقل له شيئاً سرياً ، إلا أن لخضر شعر أنه عرف شيئاً خطيراً . . قال أحمد وكأنه انتبه إلى أنه ثرثر كثيراً :

ـ المهم أن نحافظ على خبزتنا يا صاحبي . . هذا أهم من أي شيء . .!

ـ معك حق . .!

قالها وهو يهم بالوقوف . . عاد إلى نفض بقايا الغبار عن بنطلونه أمام ابتسامة زميله ، ومشى نحو البوابة الخارجية وغادر . .!

لأول مرة منذ اشتغل في هذا المكان بدأ يفكر في أشياء يعرف أنه لا يملك الحق في التفكير فيها . لم يكن حواره مع أحمد سبباً في شيء ، فهو يعرف أن المستودع ملك لرجل مهم ، ولكنها المرة الأولى التي يعرف فيها أن ذلك الرجل المهم شقيق كولونيل . .! لأول مرة يفهم سبب زيارة بعض الضباط الذين يأتون بين الفينة والأخرى ، ويقابلون رئيس المستودع في مكتبه الموجود أعلى البناية التي لا يدخلها أحد من العمال البسطاء . . فكر في الأيام التي كان يحكي له فيها الشيخ إبراهيم عن أولئك المهمين الذين يأتون شخصياً لتسلم البضائع المهمة . كانوا يأتون فقط عندما تكون البضاعة استثنائية وغير مسموح لأحد لمسها ، . بضائع لا يمكن أن تبقى في مستودع الميناء ليلة واحدة . .!

كان يسمع كثيرا عن أخبار التهريب والسلع غير الشرعية التي يدخلها أولئك المهمون . . يتذكر ذات يوم انفجرت فيه قضية حليب الأطفال الفاسد الذي أودى بحياة عدد من الأطفال الرضع . . نشرت بعض الصحف الخبر ، وسرعان ما تم إغلاق الملف . . يومها تردد كلام في الميناء أن حليب الأطفال الفاسد استورده ابن أحد الضباط . كانت مدة صلاحيته قد انتهت ومع ذلك تم توزيعه في السوق المحلية بسعر منخفض

ساهم في إقبال الناس عليه . . لم يجد أولياء الضحايا جهة يوجهون نحوها إصبع الاتهام . . فالشخص الذي وصلت الشحنة باسمه ابن ضابط كبير في الجيش ، والصحفي الذي كتب عن الموضوع تمت إقالته من عمله بتهمة التشهير وفبركة أخبار خاطئة وتشويه سمعة الأسياد . . تلك القضية واحدة من قضايا أخرى كان الميناء شاهدا عليها . . قال والده وقتها بلهجته المتهكمة : «هؤلاء الأسياد يعرفون من أين تؤكل الكتف ولهذا هم شطار وليسوا مذنبين في شيء . . إنهم يريدون مصلحتهم ولا يهم بعد ذلك سوى أن يكونوا أغنياء كي لا يقرصهم الجوع . . .!» لكن الشيخ إبراهيم رد عليه بصوت غاضب وإن لم يفقد نبرة التهذيب : «لا تقل هذا يا سي عثمان . . الظلم ظلم غير قابل للتبرير . . لهذا يجب أن تعرف أن هؤلاء الكلاب هم الذين صنعوا جوعنا ، لأنهم لن يجوعوا أبداً . . !»

أحس لخضر بأنه يتوه في أفكار لا يحق له التفكير فيها . . تساءل : ما دخلي في بضائعهم؟ ولكن سرعان ما انتابته تلك الحالة من الغضب الداخلي وهو يتذكر أنه يشتغل في النهاية حارساً لدى الأسياد ، مجرد كلب ليلي يحرس بضائعهم ليناموا مرتاحي البال . . لسبب غامض بدأ يشعر أن مزاجه يتعكر . . أليس الأسياد من أذلوه أيضا . .؟

هل كان عليه المضي قدما نحو اللاشيء لينهي حياته بإحساس من الجبن؟ كان يدرك أن أولئك الذين يعيشون في ثراء فاحش لا يشعرون بالشيء نفسه وهم يعدون نقودهم الكثيرة ، ويرسلون أبناءهم إلى الخارج في نهاية الأسبوع ليغيروا الجو ، ويتأففون من الفقراء الذين يتهمونهم بتشويه صورة البلاد في عدد الشحاذين المنتشرين على طول الأرصفة . . .! تذكر لخضر قبل عامين ، احتضنت البلاد مهرجانا دوليا للرقص بمناسبة عيد الاستقلال . . تحولت الشوارع إلى ساحة يتنافس رؤساء البلديات على

تجميلها في وقت قياسي . . كانت فرصة جيدة للشباب العاطل عن العمل كي يستفيد من التظاهرة ليشتغل مقابل مصروف كانت البلدية تمنحه لهم للمساهمة في تنظيف وجه المدينة التي ستستقبل الزوار القادمين من الخارج . . يومها رأى لخضر الشباب في مثل سنه يبتسمون وهم يشتغلون على تنظيف الشوارع من ركام القاذورات التي تكدست منذ الاستقلال على رصيف المدينة العتيقة . كانوا سعداء وهم يحملون الزبالة بين يديهم . بالنسبة إليهم كانت تلك التظاهرة فرصة لكسب المال . . لا يهمهم نوع العمل الذي يقومون به . لا يهم أن الذي يحمل الزبالة بين يديه لديه شهادة جامعية في الآداب أو في العلوم أو في الاقتصاد ، ولا يهم إن مر أمامهم ابن مدير أو ابن وزير بسيارته الفخمة فينظر إليهم تلك النظرة المليئة بالسخرية والتهكم والقرف . . كل ذلك لا يهم حين يرتبط العمل بالمال . . كل واحد يؤدي دوره . كان الوقت يسبقهم والمدينة لم تنظف بعد . . قرروا وقتها فصل العاصمة إلى جزأين بجدار يخفي الفقراء عن أعين الزوار ، كان الجزء المخصص لعيون الزائرين جاهزا بكامل بهرجته ونقائه وبياضه ، ولم يكن مسموحاً الانتقال إلى الجزء الثاني من المدينة حتى نهاية التظاهرة التي استمرت أسبوعا . . كان بناء السور أسهل بالنسبة إليهم من تنظيف مدينة غارقة في أوساخها المزمنة . .! في يومين تم بناء السور ، وتحققت نبوءة المسؤولين الذين فصلوا المدينة إلى قسمين . . قسم محاط بالورد لأجل أن يبقى الاستقلال جميلا ، ولأجل أن يغني الجميع أغنية الحياة في الفنادق الفخمة التي تطل على البحر ، والتي يوجد في داخلها عازف بيانو محترف يعزف سيمفونيات عالمية تقول : كل شيء على ما يرام . . .! كل شيء على ما يرام داخل أبهة السخرية التي اشترك فيها الجميع . .! ألا يستدعي هذا الشعور بالإحباط؟ قالها في نفسه وهو يعاود

التفكير في البضائع التي يحرسها . . .! هل هي مهربة؟ حليب فاسد أم أدوية فاسدة؟ أم أي شيء فاسد سوف يدفعون به إلى الأسواق بأثمان منخفضة تجعل الناس يقبلون عليه لأجل الموت «بالخطأ»! فحتى الموت الخطأ قدر الجياع والفقراء . .! لأول مرة أصبح يشعر أنه يحرس شيئاً فظيعاً سوف يقتل العديد من الناس ، وأنه لسبب ما يتواطأ مع القتلة في حراسة أداة القتل . .! كان يشعر بالخوف من تلك الأفكار التي تراوده هو ينظر إلى الصناديق بنظرات مليئة بالريبة . . تساءل بينه وبين نفسه : هل هذه هي الحياة؟ لم يعد له ما يحلم به ، صار مغلقاً كمحارة صدئة . . كان مستعداً أن يتراجع عن جنونه لو لا ذلك المساء الذي كان فيه مقبلاً نحو عمله ، لمح شاباً في مثل عمره يقود سيارة حمراء فاخرة تجلس إلى جانبه فتاة تضحك ملء فمها . . كان لخضر يستعد لاجتياز الطريق مستغلاً بطء حركة المرور ، وعندما وصل إلى ذلك الشاب توقف ينظر إليه بانبهار . . شعر بشيء يخز قلبه . . دق السائق بوق السيارة بعصبية وهو يصيح :

ـ ابتعد عن الطريق أيها البائس . . ألا ترى أنك تعرقل المرور؟

واقترب الشرطي يهرول نحوهم . . لم يسأل عما جرى ، اكتفى بالنظر إلى الشاب الوسيم والسيارة الفخمة ، ثم نظر إلى لخضر بعينين غاضبتين :

ـ ألا يكفي أنك تجتاز الطريق بهذه الطريقة؟ وتعرقل المرور أيضاً؟

جذبه الشرطي بعنف نحو الرصيف ليفسح للشاب الطريق ، ثم طلب منه أن يظهر بطاقة هويته . . كان لخضر مستغرباً وهو يخرج بطاقة هويته ويضعها في يد الشرطي الذي أمسكها بعصبية وبحلق فيها قليلا ثم قال :

ـ أين تشتغل؟

شعر لخضر بالخطر فجأة . أحس أن أي رد سيقوله قد يكلفه الكثير ، فكر في ذلك وهو ينظر إلى الشرطي نظرة عميقة . . ابتعد الشرطي خطوة

نحو الخلف وهو يكرر السؤال بصوت بدا أهدأ وأكثر حذراً!

ـ أين تشتغل؟

ـ أشتغل في مكتب السي فاروق، شقيق الكولونيل فيصل . . !

قالها وهو ينظر إلى الشرطي الذي شحب وجهه فجأة، مما جعل لخضر يستغل ذلك الارتباك ويستعيد بطاقته بحركة خالية من التهذيب وهو يحدق في الشرطي بنظرة ثاقبة . ابتسم الشرطي وهو يقول بصوت لطيف :

ـ حصل خير يا سيد . . حصل خير . .!

قالها وهو يربت على كتفه ويبتعد . . ! لأول مرة يشعر فيها أن ما ينقصه أهم من المال ومن الحب ومن الخبز واللباس . . تنقصه السلطة التي تجعل المال والحب والخبز واللبس في متناوله . . السلطة التي تجعل الجميع يبتسم له، حتى أكثر الناس كرهاً له واشمئزازاً منه يبتسمون له عن خوف، وعن حاجة إلى نيل رضاه . .!

السلطة . . ! قالها في نفسه وهو ينظر إلى المكان الشاسع قبالته . . كاد يبتسم بسخرية وهو يتذكر أنه مجرد حارس، وأنه لن يركب سيارة فاخرة ولن يجلس بجوار امرأة جميلة منبهرة به . .! لن يتجاوز خطوط المرور الحمر دون أن يوقفه شرطي عابس الوجه صائحاً فيه : أيها البائس . . هل رأيت أنك تعيق حركة المرور؟ تساءل بينه وبين نفسه : كيف يصل الأغنياء إلى الغنى الذي يجعل منهم أشخاصا استثنائيين ؟ كان طوال الليل يتساءل بحسرة لا تخلو من إحباط : كيف يمكن تحريك الأشياء من حوله في ظروفه البائسة؟ لا بد أن يحدث له شيء أقرب إلى المعجزة . .لا بد أن يخرج مارد ما من مكان ما ليقول له : شبيك لبيك ما تطلبه بين يديك . .! ابتسم بينه وبين نفسه وهو يفكر في عدد الأشياء التي سيطلبها . .! لكنه يعرف أن أهم ما يريده هو السلطة . .! كأن يقول للمارد

بصوت واثق من نفسه : اجعلني سيداً على الآخرين . .! فيجعل منه سيداً على الآخرين! ضحك بصمت وهو يتساءل : كيف سيكون شكله حينها؟ يا إلهي ! قالها بإحساس من الاختناق وهو يتأمل الصناديق الحديدية التي كانت تراقبه ببرودة قاسية . كان يخيّل إليه أن لكل صندوق عينين تراقبانه ببرودة اقشعر لها بدنه . . تذكر أن الموت نائم فيها . .! تملكه فضول مفاجئ وقوي لمعرفة ماذا يوجد داخل تلك الصناديق؟ ما نوع البضاعة الفاسدة التي سيتم توزيعها على الفقراء؟ ألا يستدعي ذلك محاولة لرؤية وجه الموت؟ قالها في نفسه وهو يقف على قدميه . كان يدرك جيداً خطورة فكرته ، لو اكتشف أمره فسيعني هذا نهايته بالسجن أو بالقتل رميا بالرصاص كما يُفعل بالخونة والمنبوذين! لكن الفضول بلغ ذروته . . شعر أن المغامرة جزء من التجربة ، وأنه يستحق لأجل حلمه أن يغامر . شعر بأن عليه أن يقتل الخوف ويجرب . . لن يراه أحد . . وإن فشل في فتح صندوق ما سيعيده إلى مكانه ويكمل الليل منتظراً قدوم النهار ككل يوم . .! بدت له الفكرة عادلة ، فهو لن يؤذي سوى نفسه في حال فشل ، ثم إنه لن يرتاح حتى يرى ما يوجد داخل الصناديق . . حتى لو وجدها فارغة فلن يهمه ذلك ، المهم أنه يشبع فضوله كي يكف عن التفكير والشك والتساؤل المحبط . . . كان الصف الأول لا يتجاوز أربعة صناديق موضوعة بإتقان فوق بعضها البعض ، لهذا لم يشعر لخضر أنه أرهق نفسه وهو يصعد فوقها ليسحب أقربها مسافة إليه ، محاولا ألا يحدث ضجة وهو يبذل جهداً لإنزال الصندوق إلى الأرض . . لكن الصندوق أثقل من قدرته على حمله أو إنزاله إلى الأرض . . وجد نفسه يفكر في طريقة تناسب عجزه . . فكر أن عليه أن يجد طريقة أخرى . فكر في الاستعانة بكرسي خشبي ليكون قادراً على سحب الصندوق إلى أن يصبح في مستوى كتفيه نفسه ، فينزله

على الأرض بهدوء متقن . . كانت الفكرة معقولة بالنسبة إليه ، خاصة أن حمل الصناديق وظيفته التي مارسها عن ظهر قلب . .! كان قلبه يدق بقوة وهو يكتشف انتصاره على خوفه عندما نجح أخيرا في وضع الصندوق على الأرض . . ظل يلهث لثواني متواصلة ، ليس من التعب ، بل من حرصه على ألا يثير ضجة مهما كانت صغيرة ، فهو يعرف أن ثمة حراساً يحرسون المكان بآذانهم عندما يسقط الليل ، وأن بعضهم يمر بالمكان لمجرد التأكيد للآخرين أنه هنا .! جلس يتأمل الصندوق الحديدي الرمادي ، تأمله بإحساس غريب ، ثم انحنى عليه محاولا فتحه . . كان القفل الحديدي ثقيلاً وكبيراً . فكر بينه وبين نفسه : هل يستطيع فتح صندوق لن يقدر على إغلاقه ثانية؟ اقتنع من جديد أنه يحتاج إلى الشجاعة ليشعر أنه قام بالشيء المناسب الذي كان يجب عليه القيام به ، ولو على حساب عمله أو حتى حياته . .! لسبب ما أراد أن يثبت لنفسه أنه قادر على ارتكاب هذا النوع من الجنون ، وأنه في النهاية لن يختلف عن ذلك البطل السينمائي الذي طالما أدى دور اللص أو البطل أو الجاسوس ليخرج في آخر الفيلم منتصراً . .! نظر حوله بحثاً عن شيء يعالج به القفل الحديدي . . لفت نظره قضيب حديدي أخذه بين يديه وراح يحاول عملية الفتح مستعينا بقوته . لم يكن يثير صوتاً ، بمحاولته بل بأنفاسه التي كانت تصعد وتنزل بقوة . أحس فجأة أن القفل بدأ يعوج وبدأت البراغي ترتخي ، وأخيرا انصاع القفل وفتح الصندوق . . كان يتصبب عرقاً وهو ينظر باتجاه الباب حابساً أنفاسه . . ثم عاد يرفع غطاء الصندوق وينظر . .!

وقتها اعترف بينه وبين نفسه أنه توقع أن يجد أي شيء عدا ما وجده ، ظل يبحلق مذهولاً . . شعر أن ريقه جف من هول ما رأى . . يا إلهي . . سلاح؟ كيف يمكن تخيل وجه شخص اعتقد أنه سيعثر على

غـذاء فـاسـد ليـجـد نفـسـه أمـام السـلاح . .؟ مـد يده بشكل آلي نحـو المسـدسـات التي بدت مـخـيـفـة ومـغـرية . . .! تلمسـهـا . . كـانت باردة ومـثـيـرة . . أخـذ مسـدسـاً في يده وظل ينظر إليـه بعـينين مـذهولتين . ثم ابتـسم . . فكر في الأفـلام التي شـاهدها في السـينمـا . . في البطل الذي يحمل دائماً مسـدساً تحت سترته الجلدية . . كان ينبهر بالمشهد لأنه يعرف أن البطل لا يمكنه أن يبـدو فـريداً وقـوياً لولا المسـدس الذي يخـفـيـه تحت سترته . . إنها القوة التي تستمد من المسدس سلطتها . . ! ابتسم من جديد وأمـسك بالمسـدس في يده وراح يصـوب نحـو شيء مـا . .ابتـسـم بسـعـادة طفولية وهو ينظر إلى المسـدسات المكدسة داخل الصندوق ، والعلب المليئة بالرصاص النحاسي . . يا إلهي . .! قالها في نفسه وهو يلامس براحة يده الصف العلوي من المسـدسـات بحـركـة مـسـتـقـيـمـة . . ثم تناول بضع رصـاصـات وفكر أن يحـشـو بهـا المسـدس . لقـد تعلم كل شيء من السينما . .! فجأة نسي نفسه والمكان الذي يوجد فيه . . فكر في سره : ما الفرق بين الأغـذية الفـاسـدة والأسلحة؟ كـلاهمـا يقـتل ولكلاهمـا وجـه الضحـايا أنفـسـهم ، دائمي البـؤس والشـقـاء . . يا إلهي . قـالهـا مجـدداً وهو يمسح العرق الذي تصبب على جبينه وتقاطر على أنفه . . أيعقل أن يتاجر الأثرياء في السـلاح أيضـا لـتـزيد ثروتهم ، ويزيد عـدد البـؤسـاء والقـتـلى والأرامل واليـتـامى حـولهم؟ فكر أن هذه الأسلحـة لـن تنزل إلى الأسـواق الشعـبـية كـمـا تنزل الأغـذية الفـاسـدة . . لهـا طريق مـختـلف ولهـا هدف مـخـتـلف أيضـاً ، كـان يعي أن وجـود هذه الصناديق هنا دليل أنهـا سـوف تهرب إلى جـهـة مـا ، وأن التـهـريب لا عـلاقـة لـه بالوطنيـة ولا بالدفـاع عن النفس ، بل له عـلاقـة بـالحرب فـقـط ، فـكـل سـلاح يهـرّب يبـدو كـفـتـنـة أشـد من القـتل! سـابقـاً ، كـان يسـمع في الميناء بعـض من يتكلم بـسـرية شـديدة

عن الأسلحة التي تدخل لتهرب نحو مناطق فيها حروب وصراعات ، وبما في ذلك بعض المناطق داخل الوطن . سمع ذات مرة أحد العمال القدامى يهمس في حوار عن السياسة أن بعض الضباط يبيعون السلاح إلى مناطق معينة في البلاد ، ثم بمجرد بداية انتفاضة مسلحة يتدخل الجيش نفسه بالقوة ليستعيد السلاح نفسه بعد أن يقتل كل من باعه لهم ، كي لا يكون ثمة شاهد على الحرب!! كان لخضر يصغي ولا يتدخل مقتنعاً أن العمال يبالغون في الحكايات عن شعور باليأس من السلطة! انتابه إحساس بالغضب وهو يتخيل هؤلاء الغيلان الذين يصنعون سلطتهم بحكم السلاح . . هل ثمة شيء يعلو فوق السلاح؟ لا شيء ، ولا حتى المنطق ، ولا حتى اليقين ، ولا حتى الحقيقة . . لا شيء يعلو فوق هذه الصناديق التي ستشعل حروباً ما في مكان ما ، وستصنع ضحايا في جهات ما . . كان يرتعش وهو يتذكر أن عليه إعادة الصندوق إلى مكانه . تذكر أنه كسر القفل وتلك جريمة عقابها القتل! زادت رعشته وهو يستوعب ما ارتكبه . . يا إلهي . . قالها من جديد وهو يشعر أنه دخل في فخ رهيب لن يستطيع الخروج منه . فجأة خانته شجاعته وتحول المشهد كله إلى لحظات من الرعب والعرق الذي تصبب من كل جسمه . . كان عليه أن يفكر في شيء يطرد به ذلك الخوف اللعين . . حاول أن يعيد القفل كما كان ولكن . . أيعود قفل مكسور إلى حالته الطبيعية؟ لم ينتبه وهو يضع المسدس المحشو بالرصاص تحت سترته الجلدية السوداء . . كان مشغولا بفكرة واحدة فقط : العثور على حل سريع لإعادة القفل إلى حالته السابقة . .! شعر بالرعب . . ماذا لو جاء أحدهم الآن؟ جاءته فكرة كالبرق . وقف على قدميه يحاول إنزال صندوقين آخرين . . فكر أن يضع الصندوق المفتوح تحت صندوقين ولن يتم اكتشاف أمره الليلة على الأقل .

تجمد مكانه وهو يستمع إلى صوت خطوات تقترب من المستودع . . خيل إليه أنه سينهار على الأرض من شدة الخوف . . كانت الخطوات تقترب أكثر فأكثر . تجمد في عتمة المكان وهو يدعو الله أن تمر الخطوات بعيداً عنه . . صمت رهيب ساد وهو يتابع إيقاع الخطوات بكل حواسه . . قطرة من العرق تدحرجت من جبينه إلى أنفه لم يجرؤ على مسحها . . خيل إليه أنه لو مسحها فسيصدر صوتاً يفوق صوت قلبه الذي كان يدق في أذنيه . . فجأة . . توقفت الخطوات . . أغمض لخضر عينيه وفتحهما من جديد ، ورأى باب المستودع يفتح ببطء مرعب . . كان الصندوق على الأرض . . مشهد الجريمة جلي وواضح ، وكان هو واقفاً مجرداً من التبرير . . فكر أنها ليلته الأخيرة على هذه الأرض . . فجأة مر أمامه شريط حياته بسرعة جنونية ، ولاح أمامه وجه أبيه بتلك الابتسامة المتهكمة التي طالما التصقت بملامحه . . تحسس جسمه بحركة سريعة واصطدمت يده بالمسدس الذي أبقاه تحت سترته . يا إلهي . . قالها والباب يفتح أكثر وأكثر . . كان الفجر يلوح في الأفق . الفجر الأخير . .! قالها في نفسه وهو يمسك المسدس بقوة مؤلمة . لم يحدث أن أمسك مسدساً من قبل ، مع ذلك شعر أنه يمسك شيئاً طالما أمسكه في يده . اعتراه شعور بالرعب وهو يفكر للمرة الأخيرة في حياته العابسة وغير الضرورية . . تساءل : هل ستنتهي حياتي الليلة؟ قالها وعيناه تلتقيان بعيني الحارس الذي بدا مذهولاً أول الأمر وهو يمسك بمشعل ضوئي في يده ، استطاع أن يرى به الصندوق المفتوح على الأرض . . كان لخضر في حالة قريبة من الانهيار وهو يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه . . لطالما رأى في الأفلام السينمائية ما كان يفعله البطل حين يجد نفسه في ورطة كهذه . . هل فكر يوماً أنه سيلعب دوره؟ لأول مرة يشعر فيها برغبة في الحياة . . وجد نفسه يختبئ بسرعة

خلف الصناديق، واستغرب أن الحارس لم يصرخ ولم يستنجد ببقية الحراس كأن الصدمة أخذت لسانه.. فكر لخضر أن عليه أن يعيش، ليس لأجل أحد، ولا حتى لأجل نفسه، بل لأنه يرفض فكرة أن يموت هنا وبهذا الشكل..! تناول المسدس وصوبه نحو الضوء الذي كان يحمله الحارس في يده لكنه أخطأه.. مع ذلك سمع صيحة قوية وشيئاً ينهار على الأرض لينهار معه ذلك المشعل الضوئي الذي كان يحمله في يده..! وجد نفسه يحاول الخروج من المستودع، صار يطلق النار عشوائياً. سمع شيئاً آخر يسقط على الأرض.. عرف أنه أصاب شخصاً آخر.. تساءل مرعوباً. هل هذا هو القتل الذي يسمع عنه؟ لم يفكر أن عليه أن يفعل شيئاً آخر سوى إطلاق النار في أي اتجاه مدركاً أن بقية الرجال سيأتون بعد أن دوى صوت الرصاصة الخامسة.. خفت الأصوات فجأة وأحس أن حارسين فقط اقتربا من المستودع وأن البقية ستصل.. فجأة لاحت له فكرة أخيرة.. فكرة لا حل بعدها ولا قبلها.. فكر في إطلاق النار على نفسه..! لن يكون ثمة حل سوى أن يقتل نفسه وينتهي، فلن يرحمه أحد بعد أن صار مجرماً.. لا القانون ولا الشرطة ولا صاحب المستودع، ولا شقيقه الكولونيل.... كان يشعر بيديه ترتعشان وهو ينظر حوله.. تساءل أين يطلق النار؟ في أي جهة من الجسم تحديدا؟ فكر في الرأس، لكنه تراجع.. رصاصة في الرأس مؤلمة! قالها وهو ينظر حوله من جديد. فكر أنه لم ير بطلاً في السينما يطلق النار على رأسه، والذين يطلقون النار على رؤوسهم هم الخونة والمرتزقة والمجرمون! أحس بخطوات وأصوات كثيرة تقترب من المكان، أبعد عنه المسدس قليلاً بحيث صارت الفوهة موجهة نحوه.. نظر إلى إصبعه وهو يضغط على الزناد.. كان الخوف والجنون أقوى من كل شيء.. رأى الرصاصة الحمراء النارية تخرج من المسدس

وتستقر في جسده . . رآها بألم عينه وهي تصيبه . وخزه شيء في جسمه وشعر ألم غير محتمل . . في فكرة جنونية أخيرة وجد نفسه يرمي المسدس من يده ، بكل ما تبقى فيه من قوة ، ثم انهار على الأرض . . كانت الأصوات تقترب أكثر ولم يكن يهمه شيء الآن . . بعد أن أصبح ميتاً . . .!

-١٢-

كل ذلك الظلام الذي عاشه في تفاصيل الأحداث التي ظلت تمر في رأسه بسرعة مهولة . . الموت . . الموت . . الموت . . كان العالم مظلما منذ وعى تفاصيل يديه الفارغتين من الأشياء ، ومن الأحلام التي كان يحققها غيره على حسابه . . كان الموت ظله الرمزي ، صوته الذي لطالما خذله حتى في اللحظة القريبة إلى النهاية . . الموت . .!

ألم يختر الموت بنفسه؟ فكر أن رصاصة واحدة كانت تكفي لقتله وإنهاء حياته التي لم يكن ليبكي عليها أحد إن غادرته . . سيقول الجميع : «عاش ما كسب ومات ما خلى» (عاش لم يكسب شيئاً ومات دون أن يترك شيئاً) . .! هل مت حقاً؟ قالها وهو يلمح ضوءاً أتاه من مكان ما . . فكر أنه يستطيع التحرك والتفكير أيضاً . هل مت؟ قالها من جديد . . هل تجرد من الروح ليشعر بكل هذا الوجع الخفي واللاذع؟ لكن ذاكرته ما تزال ملتصقة به . . ألا تموت الذاكرة حين يموت الإنسان؟ ذاكرته التي فجأة أعادت له شريط الأحداث كلّها . .! لم تمت ذاكرته إذاً ، ولم يمت أيضا ذلك الخوف الهلامي الذي يسكنه . . هل الخوف أبدي؟ شعر أنه يتحرك ولعله تأوه فعلا ، فقد سمع صوته حين تأوه متوجعاً . . أكان صوته هو أم صوت ذاكرته التي لم تمت؟ انتابه إحساس غريب وهو يستنشق عطراً أنثوياً . . معقول؟ لم يتخيل قط أن يلتقي بأنثى في آخرته . . أنثى لها عطر

يتسرب من أنفه إلى كامل روحه . . خيل إليه أن ثمة من يلمس وجهه وجبهته . . تحرك بصعوبة وتأوه من جديد، وبعد جهد بدا له خرافياً فتح عينيه . . في البداية أحس أن الضوء يؤذيه فعاد يغمضهما، ثم فتحهما مرة أخرى . . ألم أمت؟ قالها في نفسه وهو ينظر يميناً ويساراً . . لمح ممرضة تدنو منه وتتمتم بكلمات غير مفهومة . . نظر إليها . حاولت الابتسامة كما يملي عليها واجبها اليومي . . حرك رأسه بصعوبة وهو يتأوه مرة أخرى، وفجأة اكتشف أنه لم يمت . . اقشعر بدنه وانتابه شعور بالرعب، وكأن الممرضة لاحظت ذلك قالت له وهي تضبط له قناع الأوكسجين على أنفه، مبتسمة ابتسامة بدت وكأنها مرسومة بقلم الرصاص!

ـ ستكون بخير لا تقلق . .!

ـ أ . . . أ . . . أين أنا؟

ـ في المستشفى . . ستكون بخير بعد أيام قضيتها بين الحياة والموت . . أنت محظوظ . .!

شعر أن قناع الأوكسجين يخنق أنفاسه، حاول أن يحرك يده لكنه عجز، وكأن الممرضة انتبهت إلى ذلك أضافت :

ـ لا تتحرك، سيأتي الطبيب حالاً!

أغمض لخضر عينيه وهو يحاول أن يستجمع أفكاره . . كان يريد أن يكون هادئاً ليتسنى له التفكير، وهو يجمع خيوط الحكاية التي أوقعته في هذا المأزق . . شعر كأنه فقد وعيه للحظات، حيث بمجرد أن فتح عينيه من جديد رأى الطبيب وهو يقيس له ضغطه، ثم يتلفظ نحو الممرضة بكلام لم يفهمه . كان يشعر أن رأسه يلف فجأة . حرك رأسه نحو اليمين ثم نحو الشمال وقد عاد إليه الشعور بالاختناق، وانتابته راحة غريبة والطبيب يزيح عنه قناع الأوكسجين أخيراً . لم يقل شيئاً، كان يؤدي عملاً اعتاد

عليه بصمت تام . عاد للحديث مع الممرضة التي كانت تحرك رأسها بحركة آلية كأنها دمية مشدودة إلى خيوط وهمية ، ثم غادر وبقيت الممرضة تعمل ما تراه ضرورياً للمريض . . حاول التحرك فلم يستطع . قال بصوت ضعيف بالكاد يسمع :

ـ ما الذي جرى . .؟!

لم تتوقع الممرضة هذا السؤال . . ظلت تنظر إليه نظرة غريبة . كان واضحاً أنها لن ترد . . بدت صامتة وهي تتفحص الأنبوب الذي كانت إبرته تخز ذراعه . . حركات روتينية تؤديها عن عادة :

ـ أ . أ . أرجوك أخبريني . .

كانت حذرة وهي تنظر إلى باب الغرفة . . خيل إليه أنها خائفة ، ومع ذلك قالت له بصوت بالكاد يسمع :

ـ ليس عندي ما أقوله لك!

ـ أريد أن أعرف ما الذي جرى لي!

قالها باذلاً جهداً خرافياً أشعره بالإجهاد الشديد . . نظرت الممرضة إليه بغضب ، لكنها سرعان ما خف غضبها وهي ترى عينيه الخائفتين . بدا مرعوباً وبائساً ومثيراً للشفقة . قالت وهي تحاول أن تخفض صوتها إلى أدنى درجة ممكنة :

ـ كانت هنالك حركة غير عادية في المستشفى منذ حملت إلى هنا بين الحياة والموت . .! سيعرفون أنك أفقت وسيأتون إلى هنا . . !

ـ ماذا جرى لي؟

ـ ما أعرفه أن المكان الذي كنت تعمل فيه تعرض إلى هجوم مسلح . . هذا ما يقوله الممرضون هنا . .

ـ هجوم؟

ـ سمعت أنه تم سرقة بضائع من المخزن . لا أدري ، وتم قتل حارسين في الهجوم وأنت هنا ، كنت قاب قوسين من الموت . .! هذا كل ما أعرفه ، ولا تسألني عن أي شيء أكثر . .!

ـ من الذي مات؟

ـ لا أعرف ، وكف عن سؤالي . . لو عرفوا أنني تكلمت معك في هذا الأمر سوف أتعرض للعقاب . كف عن سؤالي ، أنا لا أعرف شيئاً . .!

قالتها وهي تحرك يدها بطريقة متوترة . . كانت شاحبة طوال سردها لتلك الجمل السريعة والمقتضبة والخائفة . . نظرت إلى الباب ثانية ثم خرجت مسرعة كمن يهرب من شيء يخيفه . . !

أدار لخضر في رأسه كل كلمة قالتها ، رغم وجعه ورعبه اللذين استوطنا في كيانه . . تعرض المستودع إلى هجوم مسلح؟ سرقت بضائع من المخزن؟ أيعقل أنهم صدقوا «تمثيلية» الهجوم التي أوحت لهم بها الجثتان اللتان تم العثور عليهما؟ لكن ما حكاية السرقة؟ أيعقل أنه فخ نصبته له الممرضة لتوقع به في الشرك؟ لكن ماذا لو كانت تلك المعلومة حقيقية؟ قالها في نفسه . . فكر فجأة أنها تمثيلية مقنعة إن هو تمسك ودافع بها عن نفسه . . فلن يصدق أحد أن شخصاً يطلق النار على نفسه من باب استعراض القوة . .! فكر أن سلوكه الحسن سيشفع له عند رؤسائه في المخزن ، وحتى لو سألوا عنه في الميناء لن يجدوا ضده شيئاً مشيناً . . يا إلهي . . قالها في نفسه وهو يزداد رعباً . . تساءل : لماذا نجوت؟ أغمض عينيه وعاد يفكر في كلام الممرضة . . قالت إن حركة غير عادية عاشها المستشفى منذ نقل إليه بين الحياة والموت . . اليس هذا نذيراً بالخطر؟ كيف يمكنه الهروب من مصيره؟ كان يعرف بحاسته أن الخطر آت وأنه قد ينتهي إلى القتل لو لم يصدقه أحد ، لو لم يضبط الكذبة ضبطاً مقنعاً . .

شعر أنه يرفض فكرة الموت ، وأن عليه أن يكون قويا . .! تساءل كيف يمكنه أن يكون قويا وواثقا من نفسه بعد الذي جرى؟ لكنه تذكر أنه على قيد الحياة . لو كان قدره الموت لمات . قالها في نفسه بثقة غريبة . . تنهد بصعوبة يحاول مقاومة إحساس بالغثيان ظل يتصاعد إلى حلقه . قال في نفسه : علي أن أعيش! هل يمكنه أداء دور أكبر منه؟ قالها في نفسه بإحساس من الرعب الشديد . ها هو يتحول من حارس إلى بطل فيلم آخر من صناعته وإخراجه! لا يعرف كيف ستكون نهايته . . كان يريد أن يكون بطلاً بطريقة ما ، ليس لشيء سوى لأنه يرفض الموت . ! في البدء أطلق النار على نفسه ليموت ، وعندما لم يمت استيقظت في داخله تلك الحاجة إلى الحياة جعلته يتشبث بها ويشعر أنه مستعد لارتكاب جريمة أخرى لأجل أن يتمتع بها . . أعطته الحياة فرصة ثانية ليعيش . . ! شعر لخضر برأسه يلف من التفكير والاحتمالات التي جعلته يغط في نوم قريب إلى السبات! عندما استيقظ شعر بالذعر وهو يصطدم بضوء حاد في عينيه . . أداة مضيئة في يد الطبيب الذي كان منحنياً عليه . . رأى ابتسامة لا تعبر عن شيء . . سمع أصواتاً أخرى في الغرفة فدق قلبه بقوة . . أغمض عينيه من جديد . . أراد أن يفكر ليستعيد هدوءه ، ليتسنى له رؤية بقية الأشخاص الموجودين حول سريره . . سمع الطبيب يقول بصوت خال من الحماسة :

ـ أعتقد أنه تجاوز مرحلة الخطر . .!

قالها بطريقة أشعرته بالخيبة ، ربما لأن عليه من الآن فصاعداً أن يواجه أولئك الذين يدركون أنه لم يمت ، وأن عليه الرد على الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات مقنعة . . ! اقترب منه شخص لم يستطع لخضر رؤية وجهه جيداً . كان واقفاً . . سمعه يقول بصوت خال من التعاطف :

ـ هل يمكننا أن نطرح عليه بعض الأسئلة؟

ـ يمكنكم، ولكن ليس لمدة طويلة فالمريض يحتاج إلى راحة . .!

الأسئلة . . ! اخترقت الكلمة قلب لخضر كرصاصة قاتلة . شعر أنه لن يستطيع تحمل الأسئلة التي يتوقعها . . سمع صوت كرسي يسحب ويقترب من سريره . . شعر بشخص يجلس ويتنفس بسرعة كبيرة تعكس عصبيته الجاهزة . . قال الرجل بصوته الخالي من التعاطف :

ـ نعرف أنك مصاب . . ولكن عليك أن ترد على بعض الأسئلة التي لا تحتمل الانتظار . .!

فتح لخضر عينيه ولمح الشخص ذا الشارب الكث والوجه النحيف والقاسي . . اقشعر بدنه وهو يكتشف أن ثمة رجلين آخرين يقفان غير بعيدين عن السرير، كان أحدهما يرتدي بذلة عسكرية ويضع نظارة سوداء على عينيه . .

يا إلهي . . قالها بينه وبين نفسه وهو يفكر أنه انتهى! وبدأت لعبة الأسئلة تنهال عليه !

ألم تكن الأسئلة بداية مرحلة غريبة وجديدة في حياته . .؟ كان يدرك أنه يجب أن ينجو بجلده مهما كلفه الأمر من أكاذيب استطاع تسريبها في كلامه، وفي جمله وفي نظراته التي كانت توحي بأنه مجرد ضحية وجدت نفسها في وسط معركة غير متوقعة . . يتذكر جيداً كل الرجال الذين استجوبوه بالوجه المغلق نفسه، والصوت الجاهز لإدانته، كانوا يفعلون الشيء نفسه بالطريقة نفسها، وكان يجيد القيام بدور البائس المظلوم بإحساس من الصدق . كان يدرك جيداً بأن عليه أن يخرج من الحكاية سالماً، وكلما زادت قناعته بذلك ازدادت قدرته على الكذب والتأليف والتزييف، ودون وعي منه وجد نفسه يورط عدداً من الحراس في

حكاية استطاع حبكها جيداً ، مستفيداً من التفاصيل الخاصة التي كانوا يسردونها على بعضهم بالقرب من المستودع . كان يعرف أسماءهم فقط ، ولا يعرف وجوههم ، كان يعرف أيضا أن الحراسة المشددة على المستودع سببها شخص كانوا يتكلمون عنه بالصوت نفسه . «سي عنتر» الذي يعد واحداً من المنافسين الأقوياء للكولونيل فيصل . من حديث الحراس ومن تلك الحوارات التي تقال في سرية الليل ، فهم نوع الضغينة التي يحملها الكولونيل لغريمه «سي عنتر» ، بسبب امرأة يقال إنها أخت «عنتر» أرادها فيصل زوجة له ، لكن عنتر زوّجها لشخص آخر أقل منه مكانة نكاية فيه ، مع أنه لم يكن ثمة سبب للرفض ، فقد كانا صديقين عاديين ، يتبادلان المصالح والأشياء التي يتبادلها شخص عسكري مع شخص مدني وثري . تلك الزيجة جعلت العلاقة بينهما تفتر ، وتحول الفتور إلى كراهية متبادلة . كان الكولونيل يبيع السلاح لأشخاص يدفعون ثمنه من أموال «سي عنتر» ، الذي بدوره يوزع الأسلحة على من يحتاجونها في المناطق المشتعلة داخل البلاد ، ليعود السي فيصل لاستعادة السلاح كلما أمر بتدخل الجيش بشكل رسمي في عمليات تمشيط كان القصد منها استعادة السلاح ، والتخلص من أولئك الذين يستعملونه ضد سي فيصل وضد سي عنتر على حد سواء! تلك الكراهية القديمة التي لم تؤثر على المصالح المشتركة بشكل أو بآخر ، بحيث إن العسكري ظل يرتقي في رتبته والسي عنتر ازداد ثراؤه سنة بعد سنة! بينما الناس الذين كانوا بينهما ، كانوا يفقدون الحياة بكل الطرق ، بالنفي أو بالحبس أو بالقتل أو في المؤامرات الخفية التي يدسها أحدهما ضد الآخر ، داخل رقعة الشطرنج الكبيرة!

كان لخضر يعرف جيداً مدى كراهية الكولونيل للسي عنتر ، ومدى

كراهية هذا الأخير للكولونيل، يعرف جيداً أن تلك الكراهية وحدها تكفي لصناعة الكثير من القصص وصياغتها كما يجب أن تصاغ قصة حرب فيها عدو وجيش للدفاع! لم يشعر قط أنه يرتكب جريمة أخرى بتلك التفاصيل التي كان يسردها على مسامع الرجال في الغرفة. لم يرف له جفن وهو يورط الحراس بأسمائهم، ويزجهم بمؤامرة قال إنه سمع بعض تفاصيلها ولم يفهم منها شيئا إلى أن وقع الاعتداء! حتى لو سألوه لماذا لم يخبر أحداً بما سمعه، كان سيعرف كيف يرد وكيف يكون صادقاً في رده بإحساس عميق أنه يقول الحقيقة.. كان يتساءل في قرارة نفسه: ألم تكن هذه هي الحقيقة في النهاية؟ كان يعرف أن روايته قد تمر وقد لا تمر، وأنه قد يجد نفسه في السجن أو معدوماً قبالة الجدار بتهمة الكذب والقتل العمد.. فكر في كل الاحتمالات. فكر أنها الوسيلة الوحيدة التي ستجعله يمرر الرواية، فقد كان يعرف أن الارتباك أو التلعثم أو تغييراً في الأقوال سوف يحسب ضده، وكان يريد أن يبدو محقاً حتى في هذه الكذبة التي كان يرددها عن ظهر قلب. حتى عندما جاءه شخص ممتلئ الجسم يرتدي بذلة سوداء أنيقة. ظل ينظر إليه نظرة سوداء وكأنه يعاين ملامحه معاينة تقاس بدرجة الحقيقة أو الرياء في ما تعكسه تقاطيع وجهه، وأمام تلك المعاينة شعر لخضر بالخطر من جديد.. كان يعرف أنه يبدو بائساً في عيون من يراه، وكان يريد أن يبدو بائساً الآن بالذات ليحتمي ببؤسه من تلك العيون الباردة التي تتفحصه بعناية شديدة. سحب الرجل كرسياً قريباً من السرير وجلس عليه، وقبل أن يجمع لخضر كل أفكاره قال له بصوت صارم:

ـ أريد باختصار أن تسرد لي دون لف ولا دوران ما جرى في تلك الليلة..!

شعر بقلبه يدق بقوة وهو ينظر إلى محدثه الذي بدا غير قابل للمراوغة . حاول التحرك في سريره فتألم ، ضغط على شفتيه . أراد أن يثير عطف الجالس ويكسب دقيقة قبل أن يبدأ النزاع . . بعد دقيقة من الوجع بدأ يسرد التفاصيل من جديد ، بالطريقة نفسها ، بالكلمات نفسها التي قالها لمن سأله من قبل ، وبالشعور نفسه أنه يقول الحقيقة حتى وهو يبالغ في اتهام الحراس بالخيانة بعبارات تلقفها الرجل بسرعة ، وكانت عيناه تزدادان برودة . شعر لخضر أن صمت الرجل يشجعه على الكذب أكثر ؛ وقد استطاع أن يلمح اهتمام الجالس قبالته بحكايته . فهم فجأة أنه نجح في إثارة الشكوك حول الحراس ، وأن الرجل الذي لم يتكلم طوال الدقائق التي كان يسرد فيها لخضر حكايته مستعد لتصديق الكذبة ، ليس عن رغبة في تصديقها ؛ بل عن حاجة إلى الاعتقاد أنه طالما هنالك خيانة فلا بد من وجود مسؤول عنها ، فقد كان المشهد بحاجة إلى أكثر من شخص مختلف ، استثنائي ، جسور وشجاع ومجنون! وعندما توقف عن الكلام انتظر ردة فعل الرجل الذي ظل ينظر إليه بطريقة اقشعر لها بدنه . . شعر وكأن الفخ بدأ يضيق عليه ، كأن الكذبة تتحول إلى ثعبان مخيف يلتف حوله . . أحس بالعرق يتصبب منه ، ثم فكر في سره : هل اكتشفوا كذبي؟ هل يعلمون من البداية ما جرى؟ كان يعي أنه في خطر ، لكنه قرر أنه لن يتراجع حتى لو تم اكتشاف أمره واقتياده إلى حبل المشنقة ، فلن يغير من أقواله وسيظل يصرخ بأعلى صوته العبارة الشهيرة : أنا بريء . بريء . .!

ـ ما الذي يقول إنك لم تكن ضمن الجماعة التي هاجمت المستودع؟ قد تكون شريكهم!

تصبب العرق من جبينه وهو ينظر إلى الرجل الجالس قبالته بارداً

مصراً على كلمته . نظر حوله بعينين تائهتين ثم عاد للنظر إلى الرجل من جديد . قال بصوت أراده صادقاً :

ـ لا يا سيدي . أنا مجرد حارس ، ولا يمكنني أن أخون لقمة عيشي . . لا يمكنني أن أعتدي على مستودع أعرف أن فيه مواد غذائية يستفيد منها كل الناس ، هذه خيانة أنا لا أرتكبها يا سيدي . .!

برقت عينا الرجل فجأة . . ظل ينظر إليه بحدة قبل أن يقول بصوت قريب إلى التوتر :

ـ وكيف عرفت أن في الصناديق مواد غذائية؟

ـ أنا كنت أعمل في الميناء يا سيدي ، وأسمع دائماً أن البضائع التي ترد تحمل المواد الغذائية التي يستفيد منها الناس!

فكر الرجل في أن هذا الشاب إما غبي وبائس ، وإما خطير وألعبان . . لم يكن التحقيق الذي جمعه عنه يوحي بأي شيء مثير للشكوك ، حتى زملاؤه في الميناء قالوا بالصوت نفسه «شاب لا يؤذي ذبابة» ، لا يخالط أحداً ، ملتزم وخجول . كانت الفرصة الوحيدة التي خدمت لخضر وقتها أن والده مرض في تلك الفترة التي سأل فيها الرجال عنه في الميناء والحي الذي يسكنه . لم يكن يدرك أن الحظ خدمه إلا بعد أشهر عندما علم أن والده توفي متأثراً بمرض ألزمه السرير! وقتها اعترف أن القدر كان إلى جانبه . . لم يكن يتخيل أن مخيلته قادرة على فعل ما فعلته . . كان يشعر بالفخر لأنه أثبت لنفسه ذلك الشيء الذي طالما شك في وجوده في داخله . . إنه الذكاء الخارق والقدرة على الوقوف بثبات حيث يجب أن يكون ثابتاً . . كان يعرف أن المسألة مرتبطة في النهاية بحياته أو بموته ، وهو إن قال الحقيقة سيموت وإن كذب فسيكون له خيار البقاء إلى أن يكتشف الجميع كذبته . . خدمه القدر مرة أخرى عندما تم استنطاق الحراس تحت

التعذيب. لم يكن الاستنطاق استجوابا عادياً، بل كان تهمة واضحة. وعرف أن الحراس من شدة ما لقوه من تعذيب اعترفوا جميعا بالتهم المنسوبة إليهم وحتى تلك التي كانت مجرد شكوك.! اعترفوا أنهم فعلوا ذلك ضمن مؤامرة كان عليهم القيام بها بأمر من «سي عنتر» الذي أغراهم بالمال! تلك تهمة إن لم يعترفوا بها تماماً لكنها ركبتهم جميعهم وأنقذت لخضر الذي خرج بعد أسبوع من آخر استجواب، من المستشفى خالياً من الخوف. كأنه ولد من جديد. تحسس جسمه بفرح وهو يغادر بوابة المستشفى.. فكر في أنه تغير! أجل.. لشد ما تغير بعدها.. كما تتغير الأشياء، وكما تتغير الكلمات التي كانت من قبل سهلة وجاهزة وأصبحت من بعد صعبة ومستحيلة. شعر أنه تغير لأن القدر خدمه وكان عليه أن يخرج من عنق الزجاجة لأجل أن يعيش، هذا ما قاله في نفسه وهو يعود إلى عمله بعد شفائه، ليجد حراساً جدداً ينظرون إليه بريبة شديدة. انتابه ذعر وهو يأخذ طريقه بخطوات مرتبكة نحو المكان الذي تعود عليه، قبل أن يستوقفه أحدهم قائلاً له:

ـ تعال معي!

دق قلبه بعنف وهو يتبع الحارس إلى المكتب الذي يقع في زاوية الساحة، لم يكن يدخله سوى من يأتي لتسلم البضاعة! سار بخطوات خائفة نحو اليسار وصعد السلم الخشبي قبل أن يطرق الباب طرقاً خفيفاً. انتظر قليلا ثم دخل. كان خائفاً ومرتبكاً وهو يلمح الرجل الممتلئ الذي سبق أن رآه في المستشفى، بدا ودوداً رغم نظراته الباردة التي تثير الخوف. ابتسم وهو يدعوه للجلوس ويطلب من الحارس مغادرة المكتب. جلس لخضر وهو يفكر في الحكاية نفسها التي قالها عشرات المرات، مستعد لسردها من جديد لو طلب منه ذلك. لكنه بدل ذلك قرب منه الرجل ـ

الذي عرف فيما بعد أنه السي فاروق شقيق الكولونيل ـ سيجارة بطريقة ودية ، لكنه رفضها مرتبكاً ، قائلاً إنه لا يدخن . ابتسم سي فاروق وهو يضع سيجارته بين شفتين الغليظتين ، وأشعل عود الثقاب وظل ينظر إليه . ثم قال أخيراً :

ـ الحادث الأخير جعلنا نفكر جيداً في نوع الحراس الذين يجب إبقاؤهم في المستودع ، وأعترف لك شخصيا أنك ساعدت في لفت نظرنا إلى هذا!

لم يكن لخضر يعرف هل هي بداية عادية لحوار معقد أم أنها مقدمة نحو الهاوية . ظل صامتاً ينظر إلى محدثه بعينين خائفتين وشعور غريب بالخطر . فكر أن عليه الرد بكلمات ما ، لكنه لم يجد ما يقوله . ظل يحملق في محدثه ببلاهة جعلت سي فاروق يبتسم من جديد .

ـ لن أطلب منك أكثر من أن تكون يقظاً في عملك . كل ما يحدث في المستودع ليلاً أريد أن أعرفه منك صباحاً ، هذا كل المطلوب منك!

ـ حاضر يا سيدي!

ـ سوف لن تبقى في هذا المستودع ، بل ستبدأ عملك الجديد من الأسبوع القادم في مستودع آخر سيدلك عليه رئيس الحراس فيما بعد . المهم أنني أريدك أن تحكي لي ما يحدث من الحراس ليلا ، حواراتهم ، وكم من الوقت يقضونه في الدردشة فيما بينهم . ماذا يقولون! ماذا يفعلون! من الأشخاص الذين يتحدثون عنهم؟ لا أريد أن تخيب ثقتنا بك!

ـ لن أخيب ثقتكم بي يا سيدي .

ـ أنا واثق من ذلك!

وقف السي فاروق بسرعة جعلت لخضر يقف في الوقت نفسه . كان يبدو كتلميذ نجيب ينتظر السماح له بالانصراف ، وعندما سمح له غادر

المكتب بخطوات سريعة . فكر السي فاروق في رد ذلك الشاب البائس . لعله تمنى لو يكتشف شيئا جديداً فيه ، تمنى لو يظهر له شيئاً غير هذا البؤس والسذاجة ليعيد حساباته كلها . فبرغم كل شيء يشعر أنه من الصعب التصديق أن هذا الشخص البائس بريء مما جرى ، وأن ما قاله حقيقة مطلقة طالما لم يورط نفسه فيها! حتى الكولونيل لم يصدق تماماً كل القصة ، حتى وإن تظاهر بعكس ذلك . فقد أصدر أمراً بمراقبته ، وتقصي أخباره ، وكانت صدمته كبيرة أن الأخبار كلها تافهة وسخيفة عن شاب بلا طموح ، بلا هدف ، لا يتكلم مع أحد ولا يصادق أحداً ، يعود إلى بيته مباشرة وينام ليخرج من البيت ظهراً . يتسكع قليلا ثم يدخل مطعماً يأكل فيه ويخرج نحو عمله . دون أن يخطئ يوماً في تصرف جديد ، أو استثنائي ، لكنه انتبه إلى أن هذا الشاب الذي يبدو ساذجاً قطع كل صلة بإخوته . لم يزرهم ، ولا أحد زاره منهم! هل يمكن أن يكون ابناً طيباً كما قال الذين سألوا عنه؟! كان ثمة شيء يقول إن هذا الشخص أكثر مما يظهره! وكان السي فاروق يتمنى لو خرج باستنتاج عملي يوحي بأن هذا الشخص أكثر مما يظهره للناس! لهذا أوكل له مهمة غريبة . كان يريد أن يعرف هل يمكنه قول الحقيقة عند القيام بها؟ ففي الوقت الذي طلب منه ما طلبه ، كان ثمة شخص آخر سيحمل له تقريرا مماثلا ، والفرق أن أحدهما سيقول الحقيقة والآخر سيكذب! لكن التفاصيل التي بدأ لخضر يحملها إليهم أوحت أنه يقول الحقيقة . ليس لأنها متطابقة مع التفاصيل التي يحملها الشخص الآخر ، بل لأنها دقيقة . فيها شيء غير عادي يجعل التفاصيل تتحول إلى شيء خطير كإنذار مسبق بكارثة ما! بينما لم يكن لخضر يفهم لماذا عليه أن يتنصّت على الحراس كل ليلة بدل الاسترخاء والتخيل في عتمته اليومية؟ . تساءل مرعوباً : هل يشكون بي؟

هل هنالك فخ ينصب لي في الخفاء؟ خيل إليه أن ثمة من يراقبه ، ولعل ثمة من يتبعه أيضا! شعر أنه يدخل في دور أكبر منه ، لكن . . ألم ينجُ من الموت؟ هل ثمة من هو أكبر من الموت؟ قالها وهو يمشي مغادراً المستودع مطأطئاً رأسه . كان عليه أن يعيش كما يعيش أي يائس تافه على هذه الأرض ، فإن طلب منه هو بالذات أن يراقب الحراس ، فأكيد ثمة أشخاص يراقبونه ، وأشخاص آخرون يراقبون الأشخاص الذين يراقبونه وهلم جرًّا!

هل سيقضي حياته في هذا الفراغ الموجع بين الشك والخوف وعدم الأمان؟ هل غادر البيت لأجل أن يعيش خائفاً بهذا الشكل؟ هل نجا من الموت ليظل يتلصص على ما يقوله الآخرون؟ فكر أنها الوظيفة التي صنعها لنفسه عندما نسج حكايته التي أنقذته من الإعدام . ألم ينجُ لأنه حكى تلك التفاصيل؟ جعلهم يرون فيه «مخبراً قادرا على نقل الأشياء بدقة متناهية دون أن يستوعبها ، وكانوا بحاجة إلى شخص غبي ينقل ببغائية مطلقة دون أن يستوعب تفاصيل الأشياء التي يقولها . كان صدقه مرتبطاً بجهله لما يمكن أن تمثله تلك التفاصيل من خطورة ، وطالما هو بائس وغبي ، فهو لا يثير شكوك أحد من الحراس الذين سوف يفتحون قلوبهم وهمومهم لبعض في ليال الوحدة ، والحاجة إلى مقاسمة الآخر سيجارة أو فنجان قهوة باردة ، لينقلها إلى سي فاروق الذي كلف شخصا يأخذ منه المعلومات! أليس هذا المطلوب منه؟ أن يتلصص على أحلام الحراس وينسج منها حكاية تصلح ليتسلى بها صاحب المستودع وأخوه الكولونيل ، وقد يجدون في إحدى الحكايات سبباً في الردع قبل وقوع حادثة مماثلة . سمع فيما بعد حكاية مختلفة تماماً عن تلك التي حكاها ، بأن الحراس عوقبوا لأنهم كانوا يسرقون البضائع من المستودع ويبيعونها لحسابهم في السوق السوداء! كان يدرك أنه قادر على استثمار هذا الأمر لصالحه ، لأجل أن

يتغير ، ولم يكن يهمه كيف يكون التغيير وعلى حساب من! لكن ذلك الخوف اللعين عاد يحد من حماسته . كان يشعر بالخوف من الخطأ . الخوف من أن يكون مجرد كومبارس في مسرحية ستنتهي بإعدامه! ألم يشاهد في السينما كيف يغتال المجرمون الكبار الشاهد على جريمتهم؟ هل يمكنه تحمل فكرة الموت مقتولاً؟ هو الذي صوب رصاصة نحو صدره ولم يمت . مات شخصان وعوقب حراس على ذنب لم يقترفوه . تنهد وهو ينظر حوله . شعر أن الليل يمنحه الكثير من المميزات التي لم يكن يتلمسها في النهار . كان الليل بيته الحقيقي ، قبالة العتمة التي يسكنها يتحول إلى شخص استثنائي ، قادر على القيام بكل شيء ، وأي شيء . كان يستمع إلى الحوارات البسيطة التي يتبادلها الحراس ، أحيانا يتكلمون عن أشياء تخصهم ، وأحيانا يتكلمون في السياسة ، في المظاهرات التي قادها طلبة الجامعة وانتهت إلى تدخل عنيف من رجال الأمن . اعتقل عشرات الشباب ، بعضهم طلبة والأغلبية عاطلون عن العمل ، وجدوا في المظاهرة سببا للخروج والصراخ والغضب ولو لمدة ربع ساعة كافية ليرفعوا فيها أصواتهم ، ليسمعوا صرختهم تقول : يكفي! ولو قليلاً! لكنهم اعتقلوا ونقلوا إلى ثكنات عسكرية للتحقيق معهم . سمع تفاصيل مروعة عن عمليات التعذيب تعرض إليها الشباب بسبب تلك المظاهرات ، مظاهرات قد تحدث كل يوم وكل وقت وفي أي مكان ، فوحدهم الموتى من لا يخرجون في المظاهرات! قالها أحد الحراس بصوت أشبه بالهمس . إنهم يطالبون بالكرامة والخبز ، فكيف يمكن تعذيبهم لأنهم طالبوا بالكرامة والخبز؟ قال الثاني : بل يستحقون أكثر من ذلك! كيف يجرؤون على تشويه سمعة البلد كما لو كنا جياعاً! سمعة البلد أهم من كل المشاكل! قال ثالث بصوت أقرب إلى الغضب . رد عليه الأول : لا! هم شباب مثلنا ، يعيشون

على الحافة . انظر كيف تحولت البلد إلى إسطبل يحكمه الغيلان! الشعب صار مجرد قطيع يؤخذ إلى الذبح في المناسبات التي يختارها لهم هؤلاء! رد عليه الصوت الغاضب بنبرة غريبة : أنت تقول كلاماً خطيراً يا عزيزي . يجب أن يسود الانضباط كي لا يتمادى هؤلاء الجياع على أسيادهم . قال الثاني يحاول فك نزاع خفي وقع بين اثنين : هل سوف تتشاجران على اللاشيء؟ المواطنون يدافعون عن حقهم في الخبز والسلطة تدافع عن حقها في إسكاتهم ، وفي الحالتين المباراة متعادلة! قالها ضاحكاً دون أن يشاركه أحد ضحكه ، ثم تفرق الحراس كل نحو جهته ليحرسها . كانوا يلتقون من جديد في المكان نفسه ليشربوا قهوتهم الليلية ، قرب المستودع الساكن حد الموت . لم يفكر أحد منهم أن خلف هذا الجدار أذن تلتقط تلك الحوارات السهلة والعادية لتنقلها في الغد مليئة بالتهويل! ما شجعه على التهويل هو ردة فعل الرجل الذي كان يأتيه يومياً ليسمع منه التقرير الليلي . عندما كان لخضر ينقل الحقيقة كما هي ، يظل الرجل ينظر إليه نظرة مليئة بالاستياء .! كان يشعر أن لجوءه إلى الصدق والأمانة في نقل التفاصيل تثير الشكوك حوله ، وتعيد الذاكرة إلى تلك الحادثة التي حمل فيها تفاصيل بوليسية دقيقة صالحة لفيلم جيمس بوند! كيف يمكن أن تكون تفاصيله الآن بهذه السطحية والسذاجة؟ وكلما أضاف بعض التهويل في سرده ، التمعت عينا الرجل وظهرت ابتسامة باردة على شفتيه ، كأنه يقول له : هذا هو المطلوب! فكر أن عليه أن يعتمد على مخيلته من جديد لتضخيم الأمور ، لخلق حالة من الريبة إزاء الحراس وبين الحراس ، فأن تصل أسرارهم وتفاصيل محادثتهم البسيطة إلى السي فاروق معناه أن ثمة خائناً ما يسرب تلك الأشياء على سذاجتها وبساطتها ، ولن تصبح ثمة ثقة بين شخص وآخر ، وسيشعر كل واحد منهم أن حياته مهددة ، وأن

عليه أن يبادر بالتبليغ قبل الآخر، لئلا يقع في الخطر! أليس هذا بالضبط ما جرى؟ ألم يساهم هو نفسه في نقل التقارير الكاذبة المليئة بالتهويل؟ لم يكن يكذب في التفاصيل نفسها، لكنه كان يبالغ في جعلها خطيرة، يبالغ في منح المستمع سبباً للخوف من أن يساهم الحراس في سرقة الأسلحة والهرب بها نحو المجهول، وإن كان رأيهم في الشعب والسلطة بهذا الشكل فهم قابلون للعصيان! تلك هي الخاتمة التي كان يسربها في سرده لتلك التفاصيل الليلية، محاولا القول إنه لم يكذب، إنما ينقل ما يسمعه، تماما كما نقل ما سمعه في تلك الليلة التي وقعت فيها عملية سرقة المخزن وقتل الحارسين، لأن الحوادث تحتاج دائما إلى ضحايا! من البداية عرف أنهم لا يريدون التفاصيل التافهة. لا يهمهم أن يسمعوا أن لحارس حبيبة أو زوجة تنتظره نهاراً، ما يهمهم هو كيف ينظر الحراس إلى الوضع. هل هم مع السلطة أم ضدها. هل ينتقدون ما يجري أم لا يكترثون لما يجري؟ ألم تكن تلك الفترة الرهيبة الغارقة في الخوف والغموض فرصته الوحيدة ليتغير؟ هل كان عليه أن يظل حارساً بائساً على بضائع يملأ الكبار جيوبهم بثمنها؟ كان يدرك أنه بحاجة إلى التغيير، كان عليه أن يغتنم الفرصة تلو الأخرى ليثبت لنفسه أنه ليس بائساً، وأن الموت الذي أبى أن يأخذه أكثر من مرة سيعطيه ألف سبب للحياة، وساعدته الظروف من جديد، عندما اشتد ذات مرة نقاش حاد بين الحراس وكان أغلبهم في حالة سكر، وصاروا يتشاتمون وكل واحد يهدد الآخر بفضحه! كان الشجار على تفاهته مناسبة حقيقية بالنسبة إليه، فلن يتذكر الحراس ما قالوه في حالة سكر، وسيكون له الحق في إدانتهم جميعاً دون أن يرف له جفن! اكتشف لخضر أن تقريره الصباحي كان مثيراً للاهتمام. لم يأت الشخص الذي تعود على الاستماع إليه لوحده، جاء معه شخص آخر

يلبس سترة جلدية سوداء ويضع نظارة سوداء سميكة تغطي عينيه وحاجبيه معا . ظل يسرد القصة مضيفاً إليها ما يراه ضرورياً ، إلى أن تحولت الحكاية إلى مؤامرة . اكتشف وهو يحكيها أنه يحكي عن مؤامرة قادمة ضد المستودع ، وأن الحراس يعرفون بعض تفاصيلها ، كان يعي في قرارة نفسه أن تهديدهم لبعض بفضح الآخر يكفي لإدانتهم . هل يمكن لحراس قضوا ليلتهم في الشرب والشجار أن يتذكروا ما قالوه أو فعلوه؟ فكر لخضر للحظة وهو يقول في نفسه : يجب ألا أضعف! كانت قوته الوحيدة في ذهابه بعيدا في الكذب ، في جعل المستمع يشاهد مشهداً سينمائياً عن خيانة محتملة أو قابلة للاحتمال ، فكلما زادت مشاكل البلد زاد توجس الكبار ، ليصبح التوجس كابوساً طالما هو مرتبط بمستودعات السلاح! هل يمكن الوثوق في حراس يعتبرون مطالب الشعب شرعية؟ قالها الرجل ذو السترة الجلدية السوداء بينه وبين نفسه ، وإن شعر ببعض التقزز عندما رأى لخضر أول مرة ، إلا أنه اعترف في نفسه أنه أذهله في طريقة سرد للتفاصيل . كان يبدو واثقاً من نفسه ، وهي الثقة التي جعلت شقيق الكولونيل يحوله من حارس مستودع إلى موظف من نوع خاص . قال له سي فاروق ذات مرة : هنالك مهمات تنتظرك ، وعليك أن تؤديها بأمانة . وكان مستعداً لأدائها بأمانة طالما سيحصل على المال وعلى . . . . السلطة!

السلطة! أليست هي التي قادته إلى كل هذا الجنون؟ كان يصدق من البداية أن السلطة أهم من المال لأنها تصنعه! وعندما أعطاه السي فاروق تفاصيل مهمته الجديدة ، عرف أنه دخل عالما آخر سيحمله بعيداً! قال له السي فاروق بصوت يشبه التهنئة :

ـ من الآن فصاعدا سوف تكون تحت إشراف أحد الضباط ، سيدربك على بعض الأمور التي ستحتاجها في العمل مستقبلا . وسيكون لك

وقت للدراسة أيضا ، لأجل أن تكون تقاريرك على درجة من الدقة والكفاءة! عليك ألا تفشل!

كان لخضر يعرف أن الفشل سيعني الموت ، وكان يريد أن ينجح ليس لأنه لا يريد أن يموت ، بل لأنه لا يريد أن يفشل!

-١٣-

عندما طلب منه أن يعمل لصالح الكولونيل كان الأمر مدهشاً ومخيفاً . كان يعرف وقتها أن حياته لن تعود كما الأول . ألم يبحث عن الفرصة ليغير من حياته؟ وقد جاءته الفرصة لتحوّله من حارس مستودع إلى مُخبر جدير بالثقة! كان يعرف أن قيمة التقارير التي يحملها تكمن في طريقة صياغتها ، وقد صار يتعلم كتابتها من ضباط محترفين . كان يعتمد على جزء صغير من الحقيقة يعجنها بمخيلته ، فيتحول الحدث العادي إلى حدث استثنائي ، والعدو الافتراضي إلى عدو حقيقي . . لكنه سرعان ما بدأ يشعر بالضجر وعدم الرضا عندما وجد نفسه يعمل تحت أوامر ضابط شاب عصبي كثير التأفف والأوامر ، لا يفوت فرصة للسخرية منه ومن بقية المخبرين الذين يصفهم بالرعاع والفاشلين . كان يكره ذلك الضابط المتعالي الذي أهانه منذ أول يوم رآه فيه ، ابتلع لخضر الإهانة وهو يطأطئ رأسه بتلك الحركة التي تجعل منه فاشلاً بامتياز ، فيغتنمها الضابط فرصة ويصفه بالراعي القذر! ذلك الوصف السهل الذي يستعمله الجميع لوصف من هم أقل منهم مكانة . قال له الضابط (عرف أن اسمه جعفر) وهو يتصفح أوراقاً لم يكن ينظر إليها بقدر ماكان ينظر إلى نقطة سوداء على مكتبه الخشبي .

- تقاريرك الأخيرة لم تكن جيدة . . أنت لا تأخذ راتباً لتتسكع في

الشوارع ، بل لتحمل تقارير تستحق الاهتمام!

وقبل أن يرد أضاف بالصوت الغاضب نفسه :

ـ رؤسائي انتقدوا أداءك أمامي وهذا لا أقبل به أبداً ، لأنك تشتغل تحت أوامري ، ومن المفروض أن كل من يشتغل تحت أوامري يكون مميزاً في كل شيء!

ولم يكن للخضر أي رد سوى النظر إلى عيني الضابط بتلك النظرة التي يعرف أنها ستثير غضبه ، ظل الضابط يرمقه بنظرة قاتمة ، قبل أن يضيف :

ـ تقرير سخيف كالذي حملته أول أمس سأحاسبك عليه بنفسي! وثق أن حسابك سيكون عسيراً!

ذلك التهديد الجاهز الذي يعتقد الضابط المغرور أنه يخيفه به . . تنهد لخضر بصمت وهو يتساءل هل قدره في مثل هؤلاء المغرورين الذين يكتشفون أهميتهم في وجوده؟ كان يعرف جيداً أنه قادر على الذهاب بعيداً في عمله ، فقد استطاع أن يفهم ما يريده الأسياد ليبقوا أسياداً! فبقاؤهم يستحيل دون أن يؤدي لخضر والآخرون العمل الذي عبره يقضون على مستقبل المئات من الأبرياء ، بعضهم كان سيرتكب جنحة ضد الكبار ، والبعض الآخر كان يحلم بارتكابها ، لكنهم عوقبوا كلهم بالطريقة نفسها . ألم يكن يستحق أكثر مما حصل عليه إذاً؟ منذ اشتغل تحت خدمة جعفر لم يستمع إلى كلمة شكر واحدة . ترقى الضابط وظل لخضر في مكانه يتلقى على قفاه . . كان يشعر أنه لن يتغير طالما سيظل يؤدي دور الكومبارس في مسرحية هزلية ومملة ، وكان يجب أن ينتقل من الدور الثانوي إلى دور البطولة! فهل كان عليه أن يبقى كما كان بعدئذ؟ قالها في نفسه وهو يتناول سيجارة ويضعها بين شفتيه . كان يدرك أنه بحاجة إلى

التغيير لأنه يستحقه، وأنه لن يتغير طالما سيظل بائساً في نظر أولئك الذين يعتبرون إهانته جزء من عمله، وأنه لن يقبض راتبه لو لم يتلق الإهانة من رؤسائه الجالسين خلف مكاتبهم المكيفة، بانتظار التقارير التي يراجعونها على عجل ويوقعون أسماءهم عليها لوضعها على مكتب المسؤول الأهم، الذي بدوره سيوقعها باسمه ليضعها على مكتب المسؤول الأهم منه وهلم جرا، وقبل أن تصل التقارير إلى الكولونيل يكون آخر مسؤول قد وضبها بتوقيعه لينال الرضا! كل واحد كان ينال رضا مسؤوله إلا هو كان يتلقى الإهانة التي تجعله يكره أولئك الذين يريدون جلده، فبالنسبة إليهم لا يختلف لخضر عن أي زنديق أو مغامر يستحق القتل! فكر في أنه بحاجة إلى طريقة عادلة لمعاقبة جعفر وتنحيته عن طريقه! القتل؟ يا إلهي. قالها في نفسه، ثم تذكر أنه جرب القتل من قبل. ألم يقتل حارسين من قبل؟ لم يرف له جفن وهو يواجه الجميع بحكاية خالية من الصحة. لم يشك أحد أنه القاتل! ربما لأن الساحة وقتها كانت مليئة بالمشبوهين داخل مؤامرة واضحة كان عليه استغلالها فقط ليبني حكايته فوقها. هل يمكنه قتل هذا الضابط دون أن يثير الشبهة ضده؟ ولو من بعيد؟ جعله خوفه الشديد يتراجع عن الفكرة متيقناً أن البطولة المطلقة ما تزال بعيدة المنال. إلى أن استدعاه جعفر إلى مكتبه بخصوص مهمة تم اختياره للقيام بها! كانت المهمة على بساطتها تحتاج إلى شيء آخر غير دور المخبر، فقد كان يفترض أن يقوم بها شخص آخر. لكن الضباط الكبار اختاروا لخضر ليقوم بها، رغم استغراب جعفر الذي حاول إقناعهم أنه لن ينجح في مهمة كهذه، ولكن أحدهم رد عليه بصوت رادع:

ـ لا تناقش الأوامر، هذا أولاً. ثانيا لخضر غير معروف، وشكله مقنع لهذه المهمة!

ابتلع جعفر ريقه وهو يطأطئ رأسه صامتاً أمام أعين الضباط الذين كانوا يرمقونه بضجر. عاد إلى مكتبه غاضباً في سره غير مقتنع أن لخضر البائس يمكن أن توكل إليه مهمة تحتاج إلى شخص استثنائي، ذكي وخطير! لكنها الأوامر التي لا يمكن مناقشتها! عندما دخل لخضر إلى مكتب مسؤوله قال له هذا الأخير بصوت مستعجل وغير قابل للمناقشة:

- هنالك مهمة تنتظرك، ستتدرب على بعض المهام الإضافية للقيام بها!

رمقه الضابط بنظرة جانبية وهو يضيف:

- ستحقق حلم حياتك بالدخول إلى الجامعة هذا العام..!

قالها بسخرية واضحة، كان لخضر يعي تماماً أن جعفر الجالس خلف مكتبه يستمتع بالسخرية منه كما العادة، لكنه شعر بالغضب في داخله لأنه سخر منه أمام شخصين دخلا المكتب بخطوات متثاقلة. أضاف يقول وهو ينظر إلى الشخصين اللذين أخذا مكانهما على مقعدين بجوار المكتب، بينما بقي لخضر واقفاً مكانه:

- هذا السي منير ضابط مكلف بالاستعلامات. سوف يعطيك فكرة سريعة عما عليك القيام به! وهذا السي رضوان الذي سيدربك على بعض الأمور!

وقبل أن يقف مقترباً من النافذة على يساره أضاف وهو يضحك بتهكم:

- مبروك عليك الجامعة، ستدخلها بفضلنا....!

لم ينكر لخضر أنه دخل الجامعة بفضلهم. الحياة نفسها دخلها بفضلهم! وبفضلهم أصبح يأكل ملء نفسه ويلبس ما يجعله سيدا في نظر النادل، وموظف المقهى الذي يرتاده ليشرب قهوة ويتصنت على الناس،

تلك مهمته اليومية التي أوكلوها له ليقوم بها بمزيد من الحرص على التميز في تقاريره كلما أراد أن يصنع من شخص بريء مشروع شبهة ، وكلما ساهمت تقاريره في اعتقال أشخاص أغلبهم أبرياء ، تهمتهم أنهم تكلموا داخل المقهى أو في مكان عام عن ضجرهم من الأوضاع وعن رغبتهم في التغيير . هذه هي المؤامرات التي يشرف الجميع على صناعتها ، كلّ بطريقته ليبقى في مكانه ويحصل على الترقية ويعيش سيداً . . إلا هو ، كان يفبرك التقارير دون أن يطبطب أحدهم على كتفه بعبارة «عملك هو الذي ينقذ البلد من المدسوسين»! كان يدرك أنه يؤدي الدور الذي لم يختره تماماً ولكنه ارتبط به وقد أصبح يتقاضى بفضله راتباً جيداً ويلبس جيداً ، مثلما غير بفضله المسكن مرتين واستطاع أن يؤجر شقة صغيرة من ثلاث غرف في منطقة شعبية عادية ، لا يعرف سكانها ولا أحد يعرف عنه سوى أن أسرته تسكن في جنوب البلاد ، وأنه يعيش وحيداً في العاصمة ويعمل موظفاً في مركز البريد! كان الجميع يحترمه لأنه موظف ولأنه لا يثير مشاكل مع أحد ، وتلك صفات جيدة لشاب في مثل سنه!

قال له منير وهو يمشي معه على طول الممر المؤدي إلى خارج البناية :

ـ ما نريد الحصول عليه من معلومات لا يخص مدير الجامعة فحسب ، بل محيطه ، من طلبة وأساتذة وزوار الخ ، كما نريد معرفة طبيعة علاقاته ببعض الأشخاص! نوع اتصالاته وحديثه مع الطلبة في الاجتماعات المغلقة . . حاول التقرب منه ، ودعه يثق بك ، لا ننكر أنه شخص صعب لا يثق في الكثير من الناس لهذا يبدو متعباً بالنسبة إلينا . أرسلنا من قبل أشخاصاً لم ينالوا الثقة الكافية فتم فصلهم من الجامعة بأمر منه ، كأنه شك بهم! وأظن أن اختيار الجميع لك سببه اقتناعهم أنك قادر على عمل شيء لم يفعله الآخرون!

قالها له منير بابتسامة لا تخلو من سخرية واضحة ، مع أنه كان ودودا وهو يشرح له أشياء بدت له خطيرة ليفهم ماذا عليه القيام به . أضاف وهو ينظر إليه نظرة حادة .

ـ ستحتاج إلى تدريب سريع على عمل السكرتارية ، إذ من المفروض أنك اشتغلت مساعد سكرتير من قبل!

قالها بالابتسامة الساخرة نفسها التي بدت له طيبة على الرغم من أنها لم تكن تخلو من مكر جلي . ظل لخضر صامتاً وهو يصغي إلى الضابط يشرح له أمراً بدا له غريباً! في البداية اعتقد أن المهمة التي يطلبون منه القيام بها مفتعلة . تساءل وقتها لماذا تم اختياره لإزاحة شخص يمكنهم إزاحته بطرقهم الكثيرة؟ وهل المطلوب هو مدير الجامعة أم أشخاص آخرون؟ استطاع لخضر أن يعرف بأن المدير ابن شهيد ، ففهم لماذا لم يقدروا على التخلص منه بتهمة سهلة . هل يمكن توريط ابن شهيد في جريمة سخيفة مهما كانت مقنعة؟ لا أحد يمكنه أن يصدق أن ابن شهيد قادر على خيانة وطن استشهد والده لأجله! لهذا اختاروا الطريقة الأكثر بطئا في القتل . . .! وتذكر لخضر يومها سي منصور رئيس العمال الذي كان ابن شهيد أيضا . ألم يكن له الفضل فيما هو فيه الآن؟ شعر بشيء غريب يحرك ذاكرته إلى الخلف ، ولأول مرة منذ زمن يتذكر والده ، وإخوته والشارع الذي كان يؤدي إلى بيته . . وتذكر نجاة!

ياه! خيل إليه أنه مضى عمراً كاملاً منذ غادر البيت آخر مرة مصرا على عدم الرجوع . كأن العمر كله مر من تحت جسر الذاكرة دفعة واحدة . انتابته مشاعر مختلطة وإحساس قديم بالحزن ، والوحدة وهو يتحسس ذراعه بحركة عفوية . تساءل : هل سيتعرفون عليه الآن لو رأوه في الشارع صدفة؟ لقد تغير كثيراً . نبت له شارب تعلم كيف يعتني به ليبدو رجلا

محترماً في أعين الآخرين . تغير في نظرته إلى المدينة التي كان يكرهها من قبل ، وصار اليوم يتعايش معها ، لأنه لم يعد يفكر في الهرب ، ولأنه يعرف أنه لا يستطيع الهرب!

كان منير يدخن سيجارته صامتا وهو ينظر إلى الشخص الذي جاء ليلقن لخضر كيفية التعامل مع أجهزة السكرتارية وترتيب الأوراق كما يفعل أي سكرتير جيد ، وإن استغرب الشخص الجديد من مستواه الدراسي الذي لم يتجاوز المرحلة المتوسطة ، إلا أنه أبدى إعجابه بحرص لخضر عل التعلم وتدارك ما فاته ليصبح جديراً بأن يكون محترماً ، فقد كان يعرف أن مهنتهم لا تحتاج إلى المتعلمين ، بل إلى المغامرين الذين يضعون حياتهم على كف عفريت لبلوغ أهداف معينة . كان الدرس على بساطته صعباً ومثيراً للأعصاب ، مع أنه أراد أن يثبت قدرته على الاستيعاب في أقل وقت ممكن ، كي يثبت أنه جدير بالمهمة التي أوكلت إليه! كل شيء كان جاهزاً لدخوله إلى الجامعة . كان يعرف أن دخوله إلى الجامعة بداية سوف تغير حياته كلها!

-١٤-

يتذكر جيدا أول يوم تقدم فيه إلى الجامعة ليتسلم عمله ، بدا بائسا وهو يتجاوز البوابة الرئيسية بخطوات مرتبكة وعينين مليئتين بالخوف . كان الخوف ملازما له في عمله ، مثلما لازمه في حياته . كان يدرك أنه خائف لأنه قد يفشل!

ـ أرجو أن تستمتع بالعمل معنا!

قالها السكرتير الأول الذي بدا في مثل سنه ، نشيطا وكثير الحركة . أضاف وهو ينظر إلى عينيه :

ـ حسب ما جاء في ملفك ، لديك خبرة ثلاثة أعوام كسكرتير في معهد العلوم؟

تلك الكذبة التي نسجها مسؤولوه جيداً . استطاعوا أن يضبطوا له ملفاً شعر بالرضا وهو يطلع عليه . وكان في الملف أيضا شهادة من المعهد بختم رسمي تؤكد أنه حسن السيرة والسلوك!

همهم السكرتير من جديد كأنه لا يجد ما يقوله له . لكنه أضاف بالنبرة نفسها :

ـ أرجو أن تستمتع بالعمل معنا!

قالها بصوت بدا للخضر مثيراً للسخرية . هل يمكن القول لشخص يتسلم وظيفة «أرجو أن تستمتع معنا؟» . تمنى لو استطاع أن يبتسم ولو

للحظة صغيرة . لكنه تراجع بعد أن طلب المدير رؤيته . دخل بخطوات مرتبكة إلى المكتب الذي اكتشف بساطته . لفتت انتباهه مكتبة واسعة ممتدة على طول الجدار خلف كرسي يجلس عليه رجل في الخمسين نحيف وهادئ الملامح . أشار المدير نحوه ليجلس ، وهو يقول بصوت لا يخلو من حرارة :

ـ العمل كثير في الإدارة ولهذا احتجنا إلى سكرتير مساعد ، خاصة مع بداية الموسم الجامعي الحالي الذي سيكون طويلاً ومتعباً! وعملك مع جمال سيكون متوازناً ، وما يهمني هو الانضباط ، وحسن السلوك والثقة!

قالها وهو يتناول غليونه ويملؤه بالتبغ ، ثم يشعله بحركة بسيطة تظهر تعوده على أداء العملية نفسها كل يوم . انتظر لخضر دقيقتين حتى نفث المدير الدخان :

ـ اشتغلت في معهد العلوم ، أليس كذلك؟ معهد منضبط وجيد ، وسدير المعهد كان زميلي في الدراسة!

قالها وهو يبتسم بتلك الطريقة التي جعلت لخضر يبتسم بعفوية . كان قلبه يدق ، ليس لأن المدير يتكلم بطريقة تفضح مساحة الحذر في صوته وفي عينيه ، وقد يكون كلامه عفوياً لا علاقة له بالحذر أساساً ، أجاب لخضر بصوت أراده صادقاً :

ـ نعم يا سيدي ، ولدي من المعهد شهادة حسن سيرة موقعة من مدير المعهد!

كأنه ليقول له «اتصل به واسأله عني»! ابتسم المدير ابتسامة صريحة وهو ينفث الدخان في الهواء . كان يراقب لخضر بعينين ثاقبتين . . يتأمل جسمه النحيل ووجهه الشاحب وعينيه السوداويتين ، وذلك البريق العميق فيهما . كان يبدو له شاباً بسيطاً وخجولاً ومتلعثماً كلما فاجأه

بسؤال بسيط لا يتوقعه . بدا له كطفل وحيد في عالم يبدو أكبر من حجمه ، ولعله شعر بالارتياح للخضر من أول نظرة . كان المدير يقيس الرجال على أساس ما يعطونه من إحساس إما بالراحة وإما التوجس وإما اللامبالاة . تلك خاصية يعرف أنه اكتسبها عن تجربة ، وغالبا ما يكون على حق في حكمه على الناس ، فلم يحدث أن خانه إحساسه قط ، حتى لو خانه قليلا مع أشخاص لم يكونوا يشكلون في النهاية أهمية بالغة بالنسبة إليه . لا ينكر أنه شعر بالقلق قليلاً عندما وجد نفسه مضطرا إلى إحضار سكرتير مساعد بسبب ضغط العمل على جمال ، وكان مترددا في نشر حاجته إلى سكرتير في الصحيفة ضمن الإعلانات المبوبة . خاف على مكتبه من أشخاص لا يستحقون وطأ عتبته بأحذيتهم الوسخة ، لأنه يعتبر مكتبه مقدساً ، لا يمكن لأي شخص الدخول إليه ، فهو لا يستقبل إلا من يراهم أهلا للجلوس على الكرسي المقابل له ، وارتشاف قهوة على شرف حوار يصنعه الشعور بالراحة للشخص نفسه . وغالبا ما يحضر بعض الطلبة إلى مكتبه للحديث معهم في أشياء يراها ضرورية ، لامتصاص غضبهم أحيانا ، ولإثارة غضبهم مما يجري خارج الجامعة في أحيان أخرى ، وهو يعي أنه لم يفعل ذلك انتقاماً لشيء أو من أحد ، بل لأنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن وعي هؤلاء الشباب ، الذين سيتقلد أحدهم منصباً كبيراً في الدولة! تنحنح المدير بهدوء وهو ينظر إلى لخضر الذي بدا عليه الضجر وهو جالس جلسته تلك . ابتسم من جديد وهو يضيف كأنه ينهي حوارا سابقاً :

ـ الوثائق التي أمامي والأختام الرسمية تجعلني على ثقة أنك ستكون إضافة جيدة للمكتب . أنا لا يهمني في هذه الحياة سوى كسب الرجال يا بني . الدنيا فانية ولا يبقى إلا وجه الله!

لا يعرف كيف أصابته الجملة في الصميم يومها . شعر وكأن رصاصة خفية انطلقت من مكان ما وأصابته . هل إليه قال ذلك الكلام أم قاله ليعلن عن فكرة راودته في لحظة لا يمكن تأريخها خارج الصدفة؟ لكنه أحس أن المدير يوكل إليه شيئا مهماً في حوار بدأ عفوياً وتحول إلى قضية وجودية مرتبطة بالضمير والثقة . طأطأ لخضر رأسه وهو يستأذن من المدير الذي ظل ينظر إليه منسحباً بخطوات حزينة . كان الحوار أشبه بالفخ المحكم الذي يعرف المدير مدى تأثيره على أشخاص مثل لخضر ، تجربتهم في الحياة مرتبطة بما يعتقدون أنهم يعرفونه أكثر من غيرهم ، في الوقت الذي يجهلون فيه الحياة نفسها . الحياة التي يربطها المدير بالرجولة حين يتعلق الأمر بالمصطلحات الكبيرة التي تصب في ماهية العلاقة التي يجب أن تكون بين مدير وموظف . علاقة تبدأ ب«كيف حالك يا بني» وتنتهي «اتهلى في روحك» ، يقولها المدير لكل الشباب ناصحاً إياهم بأن يعتنوا بأنفسهم . كانت تلك النصيحة فخاً آخر ضمن الحوار اليومي نفسه ، والحار والمفعم بالعواطف والرسائل المشفرة التي تجعل الجميع يكتشف أنه لا يعرف كيف يعتني بنفسه في مدينة تمنحه فرصة الموت بنوبة صمت! ولم يندهش لخضر وهو يستمع إلى كلام المدير عن المستقبل ، وعن التغيير كطريق وحيد للمستقبل! ولم يستغرب وهو يصغي إلى حوار الطلبة ورهانهم على التغيير . لا شيء يمكن أن يقدم على طبق من ذهب ، التغيير هو الحل! هل يمكن التسامح مع طلبة يتكلمون عن التغيير بصيغة الانقلاب؟ طلبة شباب أغلبهم أصغر منه سناً وأكثرهم طموحاً ورغبة في الوصول إلى التغيير . طلبة جاءوا من ولايات بعيدة وفقيرة ، تركوا خلفهم عائلات بائسة وقرية وعدتها الدولة منذ سنوات بالكرامة ولم يتحقق الوعد . هؤلاء الذين جاءوا من غياهب الفقر كانوا أكثر الناس تحمساً

للنجاح ؛ لأنهم يعرفون أن التغيير الذي يؤمنون به في نقاشاتهم البسيطة هو الذي سوف يدخل إلى بيوتهم الكهرباء ، وينشئ في قراهم النائية مدرسة وطريقاً معبداً بالأمل . .!

التغيير! تلك الكلمة السهلة التي يرددها السذج والأذكياء معا ، المجانين والعقلاء معاً . لم يكن للتغيير مساراً آخر غير ما يمكن أن يشكل ورقة رابحة بالنسبة لشخص جاء إلى الجامعة لأداء وظيفة دقيقة لا تتحمل الخطأ . كان التغيير أشبه بالشفرة السرية التي تحل الكثير من الألغاز ، ووقتها فهم لخضر أن مهمته لن تكون سهلة ولا كاملة! شهر ونصف مضى وهو يجتهد باذلاً جهداً مضنياً ليلقى القبول من طرف الجميع . لم يجد صعوبة في تقبل جمال له ، فقد اكتشف أنه يستغله ليعمل ضعف ما عليه القيام به ، كان يطلب منه إعادة كتابة الرسائل والنصوص نيابة عنه ، ويطلب منه أحياناً القيام بدور ساعي البريد بينه وبين بعض الأساتذة والموجّهين ، ليبقى هو في مكتبه يتحدث في الهاتف مع صديقة لدقائق تبدو طويلة ومثيرة . كان يلمح بعد كل مكالمة يجريها جمال مع صديقته تلك النظرة المحاطة ببريق الغرور والرضا معا ، ليشعر بشيء يقرص قلبه من الداخل . كان جمال يعرف أن وجود لخضر معه في المكتب أشبه بالخلاص من كل الأعباء التي كانت فوق كتفيه . لا ينكر بينه وبين نفسه أنه شعر بالخوف عندما أخبره المدير عن نيته في نشر إعلان بالجريدة عن منصب مساعد سكرتير . يعرف جيداً أن المدير لن يقبل بتشغيل امرأة ، ليس عن تعصب بل عن قناعة أنه يريد أن ينشغل بالعمل وليس بأشياء أخرى! فبالنسبة له سكرتيرة في المكتب بمثابة الفخ المغري للكثيرين . تلك أشياء يعرفها الجميع ، بما في ذلك «جمال» الذي لم يشعر بالعجز عن القيام بالعمل منذ التحاقه بالجامعة قبل أربعة أعوام ،

بعد وساطة قام بها قريب له كان على علاقة جيدة بمدير الجامعة . مع أنه لم يكن يمتلك الخبرة اللازمة بعد سنة قضاها كاتباً بائساً في مؤسسة للتبغ خرج منها مصاباً بصعوبة في التنفس . لم يكن جمال غنياً ولا فقيراً . كان شخصاً عادياً يعيش في أسرة مكونة من أختين أكبر منه ، استطاع والده ضمان حياتهما بالزواج . فكل أب يرى نجاح مهمته الحياتية في ضمان حياة بناته بتزويجهن ، أكثر مما يضمنه تعليمهن أو عملهن . لم يكن والده يرى في الحياة أكثر من وسيلة ستر للبنت والاعتماد على النفس بالنسبة للولد ، منذ توفيت أمه قبل سنوات تاركة مسؤولية الأبناء لوالد عاش على أمل الانتهاء منها بأقل أضرار ممكنة ، وعندما تزوجت أخته الكبرى ثم الصغرى رأى في عيني أبيه ذلك الرضا الذي يوحي أنه أدى ما عليه ولا يهمه شيء بعدئذ ، حتى والمرض يقعده عن العمل كحارس في مدرسة قبل عامين ، لم يعد يقدر على مغادرة البيت إلا في فترات متباعدة ، لكنه كان سعيداً لأنه تخلص من عبء البنات ، وغير مكترث بعبء الولد الذي لم يكن يسأله أبدا عن شغله أو يناقشه في أحلامه الخاصة ، كأنها لا تعنيه! تلك طبيعة أغلب الرجال الذين يعتبرون أولادهم رجالا منذ سن مبكرة ، لا حق لهم في البكاء أو التأفف من سوء الطالع كالبنات! ولا يحق لهم أن يعترفوا بالفشل حتى لو فشلوا ، لأن الرجال لا يفشلون! اكتشف جمال في سن مبكرة أن عدم اهتمام والده لا ينم عن إهمال ، بل عن رغبة في تحريره من الأسئلة والمخاوف التي لا يجوز ارتكابها مع الأولاد ، فأن يتأخر الولد عن البيت أمر في غاية البساطة ، بينما لا يجوز للبنت أن تتأخر فوق الساعة السابعة كي لا توقظ المخاوف والأسئلة معاً! لهذا لم يسأل ابنه لماذا فشل في دراسته الثانوية ، ولماذا لم يمكث طويلاً في مصنع التبغ . لهذا لم يكن سعيداً مثلما لم يكن تعيساً . كان يعيش حياته

وفق ما رباه والده ، بأن يكون رجلاً لا يحق له أن يجادل قيمته إزاء حياته ، فهو لم يولد ليكون ثرياً ولا مسؤولاً ، بل ليكون مجرد شخص من عامة الناس ، وعليه أن يكون كذلك! ربما هذا هو السبب الذي أدى به إلى التفكير بأن عليه أن يشتغل في مكان لائق ، يجعله ينظر إلى نفسه في المرآة قبل خروجه من البيت ، وكان عمله في الجامعة هو الشيء الوحيد الذي جعله يكتشف أهميته في عيني الآخرين ، وفي عيني طالبات الجامعة اللواتي كن يحببن الحديث معه . ، مع أنه لم يكن وسيماً ولا جذاباً بل سكرتيراً في مكتب مدير يحظى بتقدير كل من هم حوله ، ولأول مرة شعر أن قلبه لم يكن خالياً من العواطف ، وأن ثمة فتاة في مثل سنه تبادله شيئاً مختلفاً عن ذلك الذي كان يبادلها مع أبيه والناس العاديين . كان يشعر أن في فتاته شيئاً مختلفاً ، فهي ليست طالبة ، بل مجرد فتاة التقى بها في مكان عام . تبادل معها حديثاً عادياً ، ولأنه يعرف أنه سيراها في المكان نفسه ثانية ، ولأنها تعرف أنه سيعود إلى المكان نفسه لتتمة كلام بدأه ، التقيا ثانية وثالثة . لم يكن حديثهما مباشراً عن الحب ، والمستقبل ، كانا يتكلمان عن حياة الآخرين ، وينظران إلى حياتهما من خلالها . يحكيان عن شخص في العائلة مرض فجأة ، وعن الحياة التي تتغير لأن شخصاً عزيزاً مرض ولم يعد كما كان . تلك الأحاديث على بساطتها وحياديتها قربتهما من بعض كيتيمين يشعران أن الحب ليس أكثر من تحصيل حاصل ، وقد يأتي قوياً ومختلفاً فيما بعد!

ابتسم جمال بينه وبين نفسه وهو يرفع عينيه ليصطدم بعيني لخضر الذي ظل طوال الوقت ينظر إليه . سأله فجأة :

ـ هل تؤمن بالحب؟

ولم ينتظر رد زميله ، ضحك بخبث ، وشعر لخضر بشيء يصيبه في

كبريائه . أضاف جمال وهو يستمر في الضحك .

ـ آسف على السؤال!

قالها وهو ينتبه إلى هذا الشخص الذي يشتغل معه منذ فترة ، مغلقاً كمحارة بحرية . كان يبدو له خالياً من الفرح ، ومن المواعيد التي يصدقها البؤساء مثله . لطالما تساءل بينه وبين نفسه عن سر تلك النظرة المجروحة في عينيه . نظرة توحي أن صاحبها مصاب بشيء بليغ في ذاته ، على الرغم من كونها تثير التحدي أحيانا ، وتثير الغيظ في أحيان أخرى . قال له فجأة :

ـ أرجو أن تعرف الحب ذات يوم!

تململ لخضر فوق مقعده متألماً . بدت له الجملة مهينة وهي تعده بشيء لن يحدث! كان واضحاً أن السكرتير في حالة حب ، وأن استغلاله له بتلك الطريقة يجعله أكثر حرية في الحديث على الهاتف ، والخروج إلى مواعيده مدعياً أن والده مريض! وقتها فقط ، شعر لخضر أن المكتب صار واسعاً لأجله ، وأن بإمكانه أن يبدأ العمل بشكل حقيقي! كان أول يوم غادر فيه جمال المكتب قبل نهاية الدوام مناسبة جيدة ليضع أول الخيوط التي طلب منه وضعها هنا وهناك ، كان مطالبا بتثبيت بعض الميكروفونات في مكتب المدير أراد منه جعفر ومنير زرعها في أماكن اختاراها بدقة ، موصولة إلى جهاز صغير يضعه في مكتبه . كل الكلام الذي يجري داخل المكتب والاتصالات الهاتفية كانت تصل إلى جهة قريبة تجلس الآذان لتصغي إليها جيداً! كان العمل الحقيقي قد بدأ فعلاً!

***

-١٥-

كل الوقت الذي مضى بانتظار الفرصة التي صدق أنها تنتظره ليلتهمها كاملة وجاهزة . كان يعرف أنه أصبح محل ثقة ،ليس لأنه يعمل دون تأفف بل لأن وجوده خلّص جمال من هاجس التفكير في المكتب ، مثلما أعطى للمدير شعوراً غريباً بالارتياح ، في ذروة العمل اليومي ، والجامعة مقبلة على إضراب مفاجئ سمع به قبل أسبوع من حدوثه . كتب في تقريره أن الإضراب يحمل طابع المطالبة بتحسين ظروف الإقامة وظروف الأكل للطلبة القادمين من المدن البعيدة ، والمقيمين في الأحياء الجامعية . أضاف إلى التقرير ورقة ذكر فيها عدد اللقاءات التي تمت بين المدير وعدد من الطلبة الذين يقودون الإضراب ، وكتب باللون الأحمر«جرت الاجتماعات في وقت متأخر في القاعة الرياضية» . كتب باللون الأحمر تلك الملاحظة ليعطيها طابعاً خاصاً يعرف أنه سوف يتم فهمه كما أراده ، ثم حرص على أن يترك خطين تحت الملاحظة ليضفي عليها أهمية أخطر . كان يدرك أنها الملاحظات التي يحبون تصديقها ، والتي تكشف عن شيء قد يحدث ، وسوف يحدث لو لم يتم توقيفه قبل أن يحدث! ولأنه ساعد على غرس ميكروفونات في مكتب المدير ، فقد كان عليه أن يفكر في مكان مقنع للقاءات سرية يفترض أن تتم بين المدير والطلبة! ولن يجد أفضل من القاعة الرياضية التي أصبح يلجأ إليها الطلبة

للصلاة بعد أن أجبروا المدير قبل أسبوعين على وقف النشاطات الرياضية وتحويل القاعة إلى مصلى جامعي. كانت تلك أول مرة يرى فيها لخضر طلبة ملتحين يهتفون بكلمات لم يستوعبها جيداً «الصلاة أهم من الرياضة». «هل هنالك أهم من الصلاة يا سيدي المدير؟ هل ستنجينا الرياضة من جحيم جهنم يوم لا ينفع مال ولا بنون»؟ قالها أحد الطلبة الأكثر قدرة على الإقناع بصوت بدا شجياً وواضحاً، وكان لهم ذلك، إذ بعد أسبوع تم تحويل القاعة إلى مصلى. في اليوم الأول لم يتجاوز عددهم عشرة، لكنهم صاروا ثلاثين بعد أسبوع، وقد رأى لخضر المدير وهو يؤدي الصلاة معهم ليشجع البقية على الانضمام. كان المدير يرى في الدين عاملاً إنسانياً قادراً على صناعة المعجزات، فالإنسان المتدين لن تخاف منه إن ائتمنته على نفسك وعرضك ومالك، بينما الإنسان غير المتدين، فمهما كان متعلماً فيظل ناقصاً تلك القيمة الجوهرية التي تصنع منه أخاً لك في الوعي والعقيدة، وفي طريق لا يمكن أن يمشي فيه سوى المؤمنين.. هكذا يقول للطلبة أحياناً حين يدخل معهم في نقاش عفوي بعد كل صلاة، وكان الطلبة يحبون فيه هذا الإيمان بالعقيدة، على الرغم من اختلافهم معه في طريقة فرض الدين، وكيفية الوصول إلى ذلك اليقين المطلق وفرضه على الآخرين، فبالنسبة للمدير الدين المعاملة، وبالنسبة إليهم الدين يجب أن يفرض فرضاً على الجميع، ولعل المدير أخطأ في نظرته المثالية للطلبة الذين استأمنهم على نفسه أيضاً، وكان يقاسمهم رغيفهم البسيط، وحكايات كثيرة يتبادلها معهم بإحساس صادق وحار. كان يرى فيهم جيلاً جميلاً ومؤمنا بأمل خفي، وكان يجد في إقبالهم على الدين السعادة الحقيقية التي تفرض عليه النزول إليهم يومياً ومشاركتهم صلاتهم وأفكارهم. ولم يخطر على باله أنهم يحلمون بأكثر مما

ينتظره منهم ، ويفكرون في أكبر مما يمكنه التفكير به إلا حين أعلن الطلبة الإضراب عن الدراسة ، كانت مطالبهم على أهميتها قابلة للتفاوض ، وللحل ، فقد كان يراسل الوزارة لأجل تحسين ظروف الأكل والإقامة الجامعية للطلبة الذين جاءوا من القرى البعيدة . فجأة شعر المدير بالخوف وهو يرى الطلبة الذين كان يقاسمهم الصلاة والكلام ، يحملون قضباناً حديدية ويجبرون زملاءهم الطلبة على الانضمام إليهم بالقوة . كانوا يرون في القوة انتصاراً لهم ولو بالتهديد! وتحول الخوف إلى ذهول وهو يرى الطلبة يهتفون بصوت واحد «لا إله إلا الله والله أكبر عليها نحيا وعليها نموت»! ، حتى الطلبة الذين أجبروا على الالتحاق بساحة الجامعة رددوا الهتافات نفسها بإحساس مختلف أنهم يرفعون لأول مرة أصواتهم لقول شيء بدا كبيراً وخطيراً . يومها شعر المدير بالخوف الشديد وهو يكتشف أنه وقع في الفخ! حاول الحديث معهم مدافعاً عن منطق الحوار ، لكن الأمور خرجت عن السيطرة عندما لم يرد الطلبة الاستماع إلى نداءاته ، ظل يصرخ :«كل شيء سيحل بالهدوء يا أبنائي . العنف لن يغير شيئاً ، على العكس ، سوف يزيد من المشاكل»! قالها لهم بالصوت الأبوي نفسه ، الذي تعود على مخاطبتهم به ، لكنهم كانوا يهتفون بأعلى أصواتهم «لا إله إلا الله والله أكبر عليها نحيا وعليها نموت» ، كانت أصواتهم تغطي على صوت المدير ، وشعر لخضر أن عليه أن يقول شيئاً :

ـ سيدي ، يجب الاتصال بالأمن وإبلاغ الوزارة بما يجري قبل أن يتهور الطلبة بتصرفات أخطر!

قالها بصوت أراده واثقاً ، وجاء التأييد من زميله جمال ومن بعض الأساتذة الذين اصطفوا في جهة المدير غير قادرين على استيعاب ما يجري ، ووجد المدير في كلام لخضر الحل المناسب . حرك رأسه موافقاً . .

ـ نعم . يجب السيطرة على الوضع قبل أن يفلت منا نهائياً . يجب إبلاغ الأمن والوزارة!

وقبل أن يرفع لخضر سماعة الهاتف سمع المدير يقول :

ـ لا أريد عنفا في الجامعة . لا أريد أن يصاب أحد من الطلبة . يجب أن ينتصر العقل!

هل يمكن أن ينتصر العقل في مدينة تفقد عقلها؟ كان لخضر يشعر بشيء غريب يتحرك داخله . لأول مرة يشعر بقيمة ما يقوم به ، وبأهمية أن يعمل في خدمة أولئك الذين سوف يحمون ظهره إن هو وقع أو أصيب! لم ينس قط أنه دخل إلى الجامعة للقيام بمهمة اختارها له رؤساؤه ، مقتنعين أنه الأقدر على القيام بها ، وإن شعر بالخيبة وهو يكتشف أن المدير لا يستحق كل ذلك الأذى الذي حضّروه له ، إلا أنه كان عازماً على المشي إلى الأخير! يتذكر جيداً ذلك اليوم العصيب ، بعد الاتصال بالوزارة والأمن ، انتظر نهاية المسرحية كما انتظرها جمال والأساتذة والمدير ، الذي لم يفقد أمله قط في انتصار العقل . ظل ينادي الطلبة بأسمائهم كي يهدأوا . استحلفهم بالله الذي يصرخون باسمه أن يهدأوا ، ولكنهم رفضوا الاستماع إليه ، بينما رجال الأمن خارجاً يطلبون فتح البوابة للدخول . هل يمكن نسيان تلك اللحظات التي استطاع فيها أحد الطلبة الصعود أعلى الجدار ليطل على رجال الأمن من الجهة الخلفية ، ويطلق رصاصة دوت كانفجار مفاجئ ، صرخ الجميع ذعراً . في البداية اعتقد أن عناصر الأمن هم الذين أطلقوا النار على الطالب ، ليكتشف أن الطالب عاد راكضاً إلى زملائه بمسدس في يده ، لحظات مهولة قبل أن يستوعبوا ما جرى ، عندما علموا أن الطالب أصاب رجل أمن إصابة بليغة زادت من حدة التوتر . تلك الرصاصة فتحت باب الجحيم! بسرعة بدأ الأمن يستعمل القوة

للدخول ، إلى أن دخلوا ، وبدأت الفوضى تعم كل مكان . استطاع الطلبة الهرب في كل اتجاه ، واستطاع الأمن أن يقذف بقنابله المسيلة للدموع في كل اتجاه ، بما في ذلك المكان الذي كان لخضر وجمال والأساتذة موجودون فيه . سادت حالة من الذهول تحولت إلى اختناق شديد . ركض لخضر بسرعة وهو يجر المدير من يده ليختبئ بعيداً عن الساحة ، كان يسعل بقوة والمدير يحاول حماية عينيه من الدخان .

ـ لا أريد عنفا في الجامعة . لا أريد أن يصاب أي أحد!

قالها المدير وهو يغطي وجهه بكلتا يديه ، وقبل أن يرد لخضر بأي شيء رأى المدير ينفجر بالبكاء . هل يمكن استيعاب لحظة غريبة كهذه دون التفكير في الخسائر الممكنة؟ لأول مرة يشعر فيها بشيء غريب نحو المدير الذي كان قاب قوسين من الانهيار ، شيء غريب جعله يضغط على كتف المدير ويقول له بأعلى صوته :

ـ سيدي . . أنت لست مسؤولاً عما جرى . لا يمكن أن يتوقع أحد ما يمكن أن يفعله طلبة يحصلون على الثقة والحب والاحترام ، دون أن يستوعبوا أهمية الثقة وأهمية الحب وأهمية الاحترام!

هل هو من قال هذا؟ فكر طويلاً فيما بعد إن كان يتحمل مسؤولية ما جرى أم القدر؟ أليس ما جرى يدخل في سياق القدر في النهاية؟ صحيح أنه اعتقد للحظة أنه مهم ، لكنه سرعان ما اكتشف أنه سيظل بائساً إلى الأبد ، وسوف يسبب في طريقه الأذى لكل الذين يصادفهم عن ترتيب أو عن صدفة! ألم يؤذ من مروا في طريقه؟ بعضهم استحق الأذى وأغلبهم لم يستحقوا . ألم يكن المدير ممن لم يستحقون الأذى؟ هكذا فكر في نفسه وهو يساعد المدير على المشي نحو مكتبه . كان يبدو له منهارا وغير قادر على التنفس . استوقفه رجل أمن ليقول له بصوت لا يحتاج إلى تكرار :

ـ يجب أن تأتي معنا إلى مركز الأمن!

ولم يعلق المدير بشيء . نظر حوله ، فالتقت نظراته بنظرات سكرتيره جمال ، الذي كان واقفاً مع الجميع شاحباً وغير قادر على فهم ما جرى . قال له يحاول أن يحافظ على وقاره :

ـ لا تنسى أن تغلق الباب جيداً يا بني!

وشعر لخضر بشيء يقرص قلبه وهو يستمع إلى تلك الجملة التي بدت له جارحة . شعر أن جمال لا يستحق أن يغلق باب المكتب ، وقد بقي طوال الأحداث في الطابق العلوي منزوياً مع الطالبات خوفا مما يجري . نظر المدير حوله ثم مشى مع رجل الأمن الذي أشار نحو إحدى السيارات التي ركبها بمساعدة شرطي فتح له الباب باحترام واضح . قبل أن يركب المدير على متن السيارة رفع عينيه إلى شاحنة الشرطة ليرى مجموعة الطلبة بداخلها وقد تم اعتقالهم . طأطأ رأسه ودخل السيارة ، وقبل أن ينطلق المحرك سمع الجميع هتاف الطلبة من داخل شاحنة الشرطة ، وهم يصرخون بصوت واحد : «الله أكبر . عليها نحيا وعليها نموت .»! لم يكن لخضر يجد صعوبة في معرفة ما الذي ينتظر المدير الذي اقتيد إلى مركز للأمن في وسط المدينة ، ولكن بعد ساعة من التحقيق الروتيني معه ، جاء أربعة أشخاص باللباس المدني للمطالبة بالمدير في مركز أمن الدولة . لم يكن المدير في حالة يستوعب فيه ما يجري له . وجد نفسه يسأل عن الطلبة الذين تم اعتقالهم . ولم يرد أحد عليه . كان باله مشغولاً كثيراً عليهم ، ومشغولاً على أسرته التي تذكر فجأة أن عليه الاتصال بها كي لا يقلقوا عليه إن هو تأخر . نظر إلى أحد الضباط نظرة استعطاف وطلب منه أن يسمح له بالاتصال ببيته ليطمئن زوجته . رفض الضابط بنبرة حادة . فكر المدير أنه لا يتحمل مسؤولية ما جرى ، فهو لم

يتوقع أن تصنع سياسته الحوارية هذا الكم الهائل من الضغينة التي فجرها الطلبة في لحظة رأوها الأنسب للصراخ، وشعر أن الطلبة مغلوبون على أمرهم. إنهم لا يعرفون الحياة! يعتقدون أن الثورة وحدها قادرة على التغيير، ولا يعرفون الصبر! قالها وهو يمسح على وجهه بيد مرتعشة. كان ينتظر نهاية هذا الكابوس للعودة إلى بيته والاستلقاء على سريره والنوم عميقاً! وكان لخضر يحاول وقتها التركيز في كل الأحداث التي جرت، لكنه لم يستطع نسيان أن المدير ترك المفاتيح عند جمال ولم يتركها معه! أيمكن ألا يرى فيه المدير أهلاً لهذه الثقة وهو الذي ظل معه طوال الأحداث يواسيه؟ الأساتذة لاحظوا شجاعة لخضر في الوقوف إلى جانب المدير وقد ربت بعضهم على كتفه كتحية ملأت قلبه بإحساس غريب، مع ذلك لم يفقد المدير اتزانه حتى في تلك اللحظات الحرجة، وقرر أن يترك المفاتيح مع جمال. تلك المفاتيح التي كان يعتبرها جزءاً من شرفه ومن قدسية الأشياء التي يؤمن بها! كانت الأوامر التي تدرب عليها تكمن في المداومة على عمله بعد كل مداهمة أمنية تحدث في الجامعة، وألا يتخلف عن عمله لأي سبب كان! ولهذا عندما ذهب لخضر إلى الجامعة في اليوم التالي بدت له كأنها خارجة من حرب أهلية، كان دخان القنابل المسيلة للدموع ما يزال يزكم الأنوف، على الرغم من حرص المنظفين على نزع آثار الأحداث، إلا أن الدخان كان أقوى من كل شيء. عندما دخل وجد مكتب المدير مفتوحاً، ودق قلبه وهو يدخل بسرعة ليجد الكرسي شاغراً، رأى جمال يفتح الشبابيك وهو يلعن الدخان الذي تسرب إلى المكتب. سأله بصوت أراده عادياً:

- ألم يأت المدير؟

نظر إليه جمال ورد بصوت خال من الحرارة:

ـ لم يطلقوا سراحه من أمس .

ـ يا إلهي! ما العمل في هذه الحالة؟

رد جمال يحاول استعادة هدوئه بحركات يديه وهو يطارد ذبابة كبيرة دخلت من النافذة :

ـ سيطلقون سراحه لأن الوزارة لن تسكت! المهم أنني استطعت إبلاغ أسرته أمس!

وشعر لخضر وكأن صفعة قوية وقعت على وجهه . أسرته؟ لم يفكر لخضر في أسرته ، لكن جمال فكر في ذلك! طأطأ رأسه وهو يجلس على كرسي بجوار المكتب . لسبب غريب بدا محبطاً وشعر جمال بتعاطف مع زميله ، قال يحاول أن يقوي عزيمته :

ـ سيطلقون سراحه لأنه لم يفعل شيئاً . الطلبة هم السبب وليس المدير!

ـ لكن الطلبة يحتاجون إلى التعاطف أيضا!

ـ عليهم أن يتحملوا المسؤولية بدل ترديد كلمات أكبر من عقولهم المتحجرة!

ـ هل ترى أنهم على خطأ؟

ونظر جمال إلى لخضر نظرة حذرة . وشعر لخضر أنه تجاوز بسؤاله مركزه كمجرد سكرتير ثان . قال يحاول أن يبدو أقل دراية بما يجري :

ـ هل سيسمحون لنا بزيارته للاطمئنان عليه؟ فقد كان متعباً أمس!

ـ نرجو ذلك . .!

قالها بصوت أراده صادقاً . في ذلك اليوم قرر لخضر السؤال عن مصير المدير في المركز الأمني الذي تعود تسليم تقاريره فيه . فكر أن مجرد سؤاله عن المدير قد يساء فهمه ، ولكنه اقتنع في الأخير أنه هو المكلف بهذه

العملية داخل الجامعة . فجأة شعر بشيء يشبه الغرور وهو يدخل إلى المركز بهدوء ، وكان يتوقع رؤية الضباط الذين تعامل معهم طوال الأسابيع الماضية ، لكنه شعر بالخيبة وهو يجد مكتبهم فارغا ، وعندما هم بالمغادرة رأى «كريم» مقبلاً . كان «كريم» ضابطاً في العشرينات من العمر ، حيوياً وماكراً في الوقت نفسه ، التقاه لخضر أكثر من مرة أثناء قدومه إلى المركز ، ولسبب غريب شعر براحة غريبة نحوه ، مع أنه لم يتبادل معه أكثر من كلمات مقتضبة كانت كافية ليشعر براحة نحو ذلك الشاب المرح الذي لا يبدو عليه أبداً أنه جزء من مركز تحيطه الأسوار والأسرار . كان كريم المشرف الرئيسي على عملية التخطيط للأمكنة التي تم زرع الميكروفونات فيها داخل مكتب المدير ، وفي الصالة الرياضية التي تحولت إلى مصلى ، ولأن «كريم» تقني إلكترونات جيد فقد كان سهلاً تقديمه كتقني إلكتروني يعمل في شركة كهربائية ، ولأن مظهره يوحي بأنه طفل كبير فلم يكن يثير أدنى شك ، ولعل مظهره هو الذي أثار حالة الارتياح في نفسية لخضر ، فقد كان «كريم» من النوع العملي الهادئ ، لم يسمعه يصرخ في أحد ، كما أنه دائم الحديث بصوت هادئ وواضح ، وكانت لابتسامته وقع الشكر في نظر لخضر الذي كان يجد فيه شخصاً سهلاً ، في مكان يبدو فيه الجميع سيداً على الجميع . قال له يوم التقاه لأول مرة :

ـ تقاريرك مكتوبة بفكر شخص يريد أن يقتل الجميع بالتهمة نفسها : الخيانة!

قالها وهو يضحك ضحكة طفولية خالية من السخرية ، ووجد لخضر نفسه يبتسم دون أن يعلق بشيء ، وعندما ربت «كريم» على كتفه شعر براحة غريبة ، كأنه يقول له : تقاريرك هي التي يحتاجها هؤلاء عن رغبة في قتل أكبر عدد من الناس لتطهير البلد من المشتبه فيهم ولو بالخطأ!

وكانت تكفي تلك اليد التي وضعها على كتفه ليشعر أنه يرتاح له فعلاً ، ربما عن حاجة إلى شخص لا يخاف منه ولا يهينه باسم السيادة! لكن بعد أيام عندما عاد ليسلم تقريراً جديداً وجد «كريم» مكفهر الوجه ، على الرغم من محاولته إخفاء ذلك بابتسامة زادت من حنقه . تمنى يومها لو كانت له الشجاعة ليسأله : ما بك؟ كما يسأل شخص شخصاً يعرفه عن صداقة! وعرف في زيارة أخرى أن شقيق «كريم» سجن بتهمة اختلاس في الشركة التي عمل بها ! شعور «كريم» أنه عاجز عن إنقاذ أخيه من تهمة حقيقية جعله يشعر بالغضب بينه وبين نفسه . كان يعتقد أن عمله في هذا الجهاز سوف يجعله بمنأى من المفاجآت هو وأسرته ، مهما كانت التهمة واضحة يظل هنالك مخرج باسم القانون الذي يسجن ويبرئ من يشاء! وكان «كريم» يظن أن عمله وبطاقته المهنية قادران على إنقاذ أخيه من السجن ، حتى رؤساؤه الذين كان بإمكانهم التدخل بمكالمة هاتفية لم يحركوا ساكناً ، ليس لأنهم يحترمون القانون ، بل لأنهم يرون في عقاب شقيق ضابط ناقوس خطر للضابط نفسه ، كي لا يفكر في تجاوز الأسياد ، وأما القانون فليذهب إلى الجحيم طالما أن القانون الوحيد هو ذلك الذي يطبقونه هنا وهناك ؛ بموجب المهمات والعمليات التي تحتاج إلى لخضر ورفاقه للقيام بها عن إحساس مسبق بالأهمية! وكان ذلك يُشعر شخصاً مثل «كريم» باستياء حقيقي وغضب لم يكن يستطيع تفجيرهما سوى بابتسامة شاحب ،ة ونظرات كانت تخفي خيبة أمل كبيرة . رفع كريم عينيه للخضر وابتسم ابتسامة لا معنى لها . كان غارقا في كتابة تقريره اليومي الذي واصل كتابته دون أن يقول شيئا ، وشعر لخضر أن عليه الانتظار ليسأله ، كان يعرف أنه الوحيد الذي لن يثور في وجهه كما يفعل البقية . لحظات بدت طويلة ثم وضع «كريم» القلم أمام الأوراق التي كانت

مبعثرة على مكتبه الخشبي الصغير . وعاد للنظر إليه . ثم سأله فجأة :

ـ كيف هي الأوضاع في الجامعة بعد اعتقال المتمردين ومديرهم؟

بدت عبارة «المتمردين ومديرهم» كبيرة جدا على مسمع لخضر الذي رد بصوت أراده حيادياً :

ـ الطلبة رفضوا الدراسة اليوم ، لكنهم لم يغادروا إلى نهاية الدوام!

ـ وهل كتبت تقريراً بهذا؟

ارتبك لخضر وهو ينظر إلى كريم نظرة جعلته يبتسم رغما عنه ، وهو يلم الأوراق المبعثرة ويصففها بهدوء . قال كأنه يخاطب شخصاً غيره :

ـ لا تنس أن أهميتك في التقارير التي تحضرها معك ، وإلا لما نظر أحد إلى وجهك!

ـ سأكتب تقريراً شاملاً أسلمه غداً يا سيدي!

وابتسم كريم من جديد وهو يسمع إلى عبارة «سيدي» ، التي بدت له سخيفة وغير مبررة . قال له بالابتسامة الشاحبة نفسها المليئة بالمرارة :

ـ الأسياد لا يعملون عملنا ، وطالما نحن نؤدي هذا العمل فلا يوجد سيد بيننا!

قالها وهو يخفي القلم في الجيب الداخلي لسترته الجلدية . نظر لخضر إلى هذا الشاب الذي كان في حالة غريبة ، وهو ينظر إلى نقطة بعيدة وغير واضحة . شاب يبدو سعيداً بعمله وهيئته التي توحي أنه لم يعش الجوع والإهانة في حياته . كان يبدو وسيماً بآثار لحية لم يحلقها منذ أيام ، ونظرات توحي أنه لم ينم جيداً منذ أيام أيضاً . مع ذلك شعر بشيء يشبه الفخر وهو يقف أمامه دون أن يبرر الأشياء التي يقولها . وفجأة طرح السؤال الذي جاء لأجله :

ـ أين أرسلوا المدير؟

ـ أرسلوه إلى المستشفى بعد ليلة «بيضاء»! أحالوه إلى المستشفى العسكري قبل أن يحولوه إلى المستشفى العام!

ولم يرد لخضر بشيء . كان يعرف أن المدير يعاني من القلب . الجميع كان يعرف ذلك حتى الذين استجوبوه ليلة كاملة يعرفون ذلك . ولعل شيئاً بدا على وجهه إذ قال له «كريم» بصوت خال من العاطفة :

ـ لا تنس أنك هنا لأنك قررت أن تعمل هذا العمل! مسؤوليتك تتلخص في أنك تريد التخلص من أشخاص معينين بالوشاية عليهم! لا تنس هذا!

وصعق لخضر وهو يسمع إلى هذه الحقيقة التي كان يدركها . لكن هل يمكن القول أنه هنا لأنه رفض أن يكون في مكان المدير وأمثاله؟ ولأنه لم يكن هناك فهو يعي أن الدور قد يأتي عليه ليجر في منتصف الليل إلى المعتقل لاستجوابه عن أشياء يجهلها وعليه أن يرد عليها ولو كذبا ، ولو لمجرد توريط نفسه في شيء يعرف الجميع أنه بريء منه ، فكر أن الجميع سيحتاج إلى ضحية ليكتب تقريره النهائي بعبارة «وهكذا قضينا على العدو» ، التي تعني كل شيء بالنسبة للمسؤولين الذين سوف ينامون قريري العين ، دون أن يسألوا عن اسم العدو وعن عدد أبنائه الذين سيعيشون دونه! نظر «كريم» إلى لخضر نظرة ثاقبة وهو يضيف :

ـ كل شيء أكبر من رقعة تفكيرك وتفكيري . كلنا هنا لأننا بحاجة إلى شيء ما ينقصنا ، وعندما نكتشف ذلك الشيء ربما سوف نشعر بالخيبة أنه لم يكن مهما كما اعتقدنا! كل شيء مفتوح على الخيبة يا عزيزي!

قالها بصوت بدا حزيناً ومكسوراً . . كان لخضر يدرك أن السجن الذي يقبع فيه شقيقه هو الذي هزه بهذا الشكل ، وربما يقول ما يقوله في هذه

اللحظة عن حاجة إلى الغضب ، وغدا سينسى ما قاله لأنه لن يسمح بتكرار كلمات قيلت نكاية في وقت ميت أراد أن يدفنه بالكلام! شعر لخضر بأن الحوار يخرج عن كونه عاديا في ليلة ساكنة وخالية من اليقين . قال أخيراً :

ـ المشكلة أنه لو حدث شيء للمدير ، قد تنتهي مهمتي ، فأنا هناك لأجل المدير!

ابتسم «كريم» ابتسامة عريضة وهو يمسح وجهه براحة يده ، باذلا جهدا واضحا في الهدوء . كان يبدو منهكا وهو ينهض من مكانه ويقترب من النافذة الصغيرة المطلة على اللا شيء . دس يديه داخل جيبي سترته وقال :

ـ المدير لا يساوي شيئا بالنسبة لهم . لا أحد يريد رأس المدير ، فلا تكن غبياً!

وقبل أن يضيف لخضر أي شيء عاد كريم إلى المكتب وحمل الأوراق وأخذها ، ثم قبل أن يتجاوز عتبة الباب قال بصوت هادئ وبارد :

ـ اللعبة أكبر من عقلك الصغير! ستتعلم الكثير من الأشياء مع الوقت . لا تستعجل! سوف تتعلم كيف تبتلع هزائمك وخيباتك قبل أن يراها أحد! هذه هي اللعبة الأكبر!

قالها وهو يربت على كتفيه مبتعدا بخطوات سريعة . فكر لخضر في ذلك الكلام الذي لم يفهمه ، ولكنه شعر أنها اللعبة التي تدير الأشياء حوله كما الأقدار . . ألم يصل إلى هنا ضمن اللعبة نفسها التي صنعت منه «مخبراً جيدا بعد أن كان حمّالا جيدا؟» الفرق بين حياته السابقة وحياته الحالية أنه يدرك الآن قيمته ليس كإنسان ، بل كحالة خرجت من العدم لتصبح ما هي عليه اليوم ، وهو في النهاية أحسن حالا مما كان عليه

في السابق . هو الآن حر يطارد حرية الآخرين . هو الآن حي يساهم في قتل الآخرين ولو بالوشاية ضدهم! كان يدرك أنه يقوم بشيء يجب القيام به ، فلو لم يقم به هو ، سيأتي غيره للقيام به ، فكل واحد سوف يورط الآخرين للبقاء على قيد الحياة! هل هذه هي اللعبة التي قصدها كريم في كلامه؟ أدار الحوار في رأسه ليجد نفسه يصل إلى القناعة نفسها أنه يقوم بالعمل الذي لا يملك بديلاً منه ، وحتى لو امتلك البديل فلن يقبل بغير هذه الوظيفة التي جعلته يدخل إلى مركز لا يمكنه الدخول إليه ، حراً في ظروف أخرى . مركز يدخله الجلادون والمتهمون! في اليوم التالي صعق عندما رأى طالبين يدخلان إلى الجامعة كما لو أن شيئاً لم يكن . كان الطالبان في صدارة التقارير التي أرسلها ، وكانا أهم عناصر الانتفاضة التي وقعت في الجامعة ، بل هما من قادا الإضراب بالخطب النارية التي احتوت على عبارات واضحة تغذي رغبة الطلبة في الثورة . صعق وهو ينظر إليهما يمران أمامه وقد ارتسمت على شفتي أحدهما ابتسامة غريبة ، نظر إليه الآخر نظرة مليئة بالسخرية وواصل طريقه نحو قاعة المحاضرات ، مع أن الدراسة كانت معطلة بسبب رفض الأساتذة العمل في غياب المدير الذي حُوّل في الصباح الباكر إلى المستشفى العام في حالة يرثى لها! قال له جمال وهو ينظر إليه نظرة قلقة :

ـ سوف أزور المدير بعد الظهر وعليك أن تغطي غيابي ، فالوضع صعب . أي شيء طارئ تتصل مباشرة على هذا الرقم . .!

ناوله ورقة صغيرة وأضاف :

ـ هذا رقم مكتب مفتش التعليم العالي ، هو الذي سيتصرف لو حدث أي طارئ! عموما سأعود بعد الزيارة مباشرة لأغلق المكتب بنفسي!

وقبل أن يتلفظ لخضر بأي رد ، أضاف جمال كأنه يخاطب نفسه :

ـ لقد أطلقوا سراح طالبين كانا في صدارة المظاهرة الأخيرة! في الوقت الذي احتجزوا فيه المدير المسكين ٨٤ ساعة على الرغم من علمهم بمرضه!

ولم ينتظر الرد، انسحب بسرعة حاملاً ملفاً في يده، تاركاً لخضر ينظر حوله في ذهول. لم يفكر من قبل أن ثمة طلبة يطالبون بإسقاط النظام، يملكون النفوذ داخل بالنظام نفسه، عبر قريب سوف يسرع إلى إطلاق سراحهم ليعودوا إلى الجامعة بإحساس من الفخر والغرور القريب إلى التشفي. تذكر ذلك الطالب الملتحي الذي مر أمامه ونظر إليه مبتسما بسخرية واضحة. كأنه يقول: «أقربائي المهمون أطلقوا سراحي، وسيطلقون سراحي كلما اعتقلت!» شعر بالتوتر. فكر فجأة أن عليه زيارة المدير كما سيزوره كل الأساتذة وبعض الطلبة الذين تعاطفوا معه أكثر من السابق! وفي المساء، عاد جمال مكفهر الوجه، يتأفف من المواصلات ومن الزحمة. سأله لخضر السؤال الذي يجب أن يسأله إياه:

ـ كيف حال المدير؟

ـ لم يسمحوا لي برؤيته. أخبرتني إحدى الممرضات أن الزيارات ممنوعة.

ـ والحل؟

ـ الحل في يد الوزارة!

قالها وهو يجلس على الكرسي الذي كان لخضر جالسا عليه قبل قدوم هذا الأخير. كان يبدو عليه الإعياء وهو يضيف:

ـ لقد اتصلت من هاتف عمومي بمكتب مفتش التعليم وسوف يبلغ الوزارة بدوره. أعتقد أن المدير لن يعود قريبا إلى العمل، وغيابه سوف يكون مشكلة كبيرة بالنسبة للجامعة، بانتظار تعيين مدير جديد من باب الاستخلاف المؤقت!

قالها كمن يلقي بياناً على مضض ، ونهض جمال من مكانه في الوقت الذي رن فيه الهاتف في مكتب المدير . وجد لخضر نفسه يتبعه ، سمعه يرد على الهاتف ويخاطب شخصاً عرف أنه مسؤول في الوزارة أعطاه بعض التعليمات التي دونها على ورقة بخط سريع ، وعندما وضع السماعة عاد ليرفعها ويتصل . بقي لخضر ينتظر ما سينتهي عليه هذا اليوم البائس . كان يعرف أن الأشياء التي يقوم بها جمال لن يقدر على القيام بها غيره ، فهو السكرتير الذي يعرف جيداً ما عليه فعله ، وكان لخضر مساعده الذي يؤدي مهمات سخيفة تجعل الأساتذة يرمقونه بنظرات خالية من الشكر . هل كان مطلوباً منه أن يؤدي دوراً أكبر من ذلك؟ دخوله إلى الجامعة لم يكن للعمل فيها ، بل للعمل عليها! لجلب الأخبار التي شلت المدير في غرفة المستشفى غير قادر على الحركة والكلام . عندما علم لخضر أن حالة المدير ربما لن تتحسن ، أصيب بما يشبه تأنيب الضمير ، وهو يصادف يوميا الطالبين الملتحيين اللذين أطلق سراحهما ، رغم أنه كتب عنهما أكثر مما كتبه عن المدير في تقريره الأخير . فكر أن الأمور ليست كما يظن ، وأن الحقيقة أكبر فعلا من عقله الصغير!

-١٦-

يذكر لخضر جيداً تلك الأمسية التي ذهب فيها كعادته لمقابلة رؤسائه ، جعفر ومراد وكريم . كان يريد أن يستفسر من بعض المخبرين مثله عما جرى ، فهو يعرف جيداً كيف يبدأ الحوار معهم ، معتمداً على كونه مثلهم يشتغل تحت إمرة الكبار ، لكنه صدم وهو يكتشف ما يشبه حالة طوارئ في المبنى الأرضي . سمع بعضهم يتكلم بصوت هامس عن هروب بعض المحتجزين ، الذين حولوا من السجن المركزي إلى جهة أخرى ، استطاعوا استغلال عطل في الشاحنة التي تقلهم ليتمكنوا من الهرب ، ليس هذا فقط ، قال له أحدهم : لقد استطاعوا قتل السائق والحارس وجرح حارس ثان . فروا إلى جهة مجهولة بعد أن أخذوا سلاح الحراس! سأله بصوت حذر : هل كانوا سجناء عاديين؟ رد عليه بالصوت نفسه : سمعت أن فيهم ملتحين وآخرين مجرمين . كان الخبر على فداحته يبدو مخيفاً جداً . رأى في وجه جعفر قتامة جعلته يفهم أن الخبر الذي سمعه صحيح ، فقد كان جعفر مسؤولاً عن بعض المحتجزين الذين استنطقهم بنفسه مستعملاً أساليبه الخاصة . كان يرى في هروبهم شيئاً خطيراً ليس على أمن البلد ، بل على أمنه الشخصي! عندما رأى لخضر يقترب بدا الضجر واضحاً على وجهه ؛ وهو يقول بصوت قريب إلى الصراخ :

ـ ما لديك من أخبار أتركها عند نبيل واذهب!

ذهب لخضر مسرعاً نحو مكتب نبيل الذي كان في آخر الممر الأرضي . طرق الباب طرقاً خفيفاً وعندما سمع الإذن بالدخول دخل :

ـ هل لديك أخبار جديدة؟

قالها له دون أن يرد على التحية التي ألقاها عليه . سحب لخضر الأوراق التي دوّن عليها كل الأخبار الجديدة . لم ينس التذكير أن ثمة طالبين «خطيرين» أطلقا سراحهما في اليوم الثاني من التمرد الطلابي ، وأن إطلاق سراحهما يثير الأقاويل في الجامعة! وضع الأوراق على مكتب نبيل الذي بدا غير مكترث بها . رفع عينيه الباردتين نحوه وقال فجأة :

ـ ذكرني أين كنت تعمل قبل الالتحاق بالعمل هنا؟

وارتبك لخضر وظهر الارتباك على محياه . لم يتوقع هذا السؤال المفاجئ . شعر بالعرق يتصبب منه ويبلل ظهره . قال بصوت أراده مسموعاً :

ـ كنت أشتغل عند السي فيصل شقيق الكولونيل!

وبرقت عينا نبيل وهو ينظر إليه نظرة غريبة ، ثم تناول التقرير وألقى عليه نظرة سريعة قبل أن يقول :

ـ هل أعجبك عملك هنا؟

ـ أنا أقوم بعملي يا سيدي ويهمني أن أقوم به جيداً!

ـ لم ترد على سؤالي!

تساءل كيف يمكن الرد على سؤال عائم كهذا؟ نظر لخضر إلى الجالس خلف مكتبه يمارس عليه دور المسؤول الكبير . فكر لو كان له أن يتبادل الأدوار معه فما الذي سيفعله؟ هل سيطرح عليه سؤالاً سخيفاً لإثارة الانتباه أم أنه سيسأل السؤال الأهم : ماذا يعني لك العمل مخبراً ضد أشخاص لا تعرفهم ، وقد يكونون أصدقاء أوفياء لو تعرفت عليهم ، وقد

يضحون بأنفسهم في سبيلك لو تقاسمت معهم شيئاً حميماً ومقدساً! ماذا يعني العمل كمخبر ضد هؤلاء الأبرياء الذين يحولهم تقرير يكتبه مخبر بائس إلى مشتبه بهم، يطاردون في الليل والنهار، تراقب تحركاتهم وهواتفهم وحواراتهم العادية، وإن لم يعثر على الجريمة يعمل المخبر على اختلاقها وجعلها حقيقة!!

- نعم يا سيدي. عملي يعجبني!

وكأن نبيل انتظر هذا الجواب تحديداً، لاحت ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يقول بلهجة بدت غير مهذبة:

- اذهب الآن!

وخرج من المكتب مطأطئ الرأس. كان يشعر أنه في دوامة من الأفكار والأحاسيس، وأنه لم يعد يعرف هل يؤدي عملاً أم يؤدي دوراً قد ينتهي في أي وقت! قالها في نفسه وهو يمشي في الممر الطويل للخروج، وفجأة رأى «كريم» الذي كان منشغلاً في الحديث مع شخص لا يعرفه، وبدل أن يمشي نحو الباب الخارجي وجد نفسه يمشي في ممر اليمين الذي لم يدخله من قبل. شعر بقلبه يدق وهو يمشي بخطوات مرتبكة، لمح بعض الأشخاص الذين لم يكترثوا لوجوده هنا، كانوا يعلمون أن أي شخص يوجد في هذا المركز لا بد أنه جزء منه، ولا يحتاجون إلى سؤاله من هو. مشى نحو الجهة التي مشى فيها كريم ومرافقه قبل قليل، ووجد نفسه يفقد أثرهما مما زاد في ارتباكه، اقترب منه شخص بنظرات غاضبة وهو يسأله بحدة:

- ماذا تريد؟

رد لخضر بهدوء تفاجأ به هو نفسه:

- أبحث عن كريم. هل رأيته؟

وهدأت نظرات الرجل وهو يشير نحو أحد المكاتب المغلقة في طرف الممر . شعر لخضر براحة غريبة وهو يرى الرجل يبتعد . فكر فجأة أنه يحتاج إلى الثقة في مثل هذه المخاطر ، وأن ارتباكه سوف يثير الاشتباه به . رفع رأسه بإحساس غريب في الرغبة في المضي قدماً نحو ذلك الممر الذي أشار إليه الرجل ، ليكتشف أن الممر ينتهي بمكتبين وزاوية صغيرة معتمة وجد نفسه يقف فيها . كان قلبه يدق بقوة وهو يستعد لطرق الباب ، فكر أنه يريد الحديث في التقرير الذي حمله اليوم ، وعن المدير الجديد الذي سوف يتم إحضاره إلى الجامعة ، وإن كان يدرك أن هذه التفاصيل لن تهمه طالما هناك شخص تم تعيينه ليأخذها منه . شعر بالتوتر أكثر وهو يفكر أن وجوده في هذا المكان مخاطرة مجانية ما كان عليه القيام بها . سوف يعتبرونه مذنباً إن تم اكتشافه الآن ، وسيجد من يكتب عنه تقريراً ضخما يورطه في أشياء لم يكن ينويها . دق قلبه بشدة وهو يحاول انتشال نفسه من تلك الزاوية المعتمة والهرب بعيداً ، لكنه صعق وهو يرى جعفر مقبلاً نحو تلك الجهة ، ألصق لخضر ظهره بالجدار وانكمش من الرعب . أحس أنه وقع في شر أعماله وهو يفكر أنه سينال العقاب لمجرد تجاوزه الخط الذي يفصل البهو العام عن هذا المكان الذي لا يدخله كل الناس . تصبب العرق منه وهو يزداد التصاقاً بالجدار متمسكاً بتلك العتمة التي كانت تغطي الزاوية ، وإذ بجعفر يدخل المكتب دون أن يلمحه . كان يتنفس بصعوبة وهو ينتظر قليلاً ليقفز نحو الخارج بسرعة البرق . لكنه بدل أن يقفز وجد نفسه يصغي إلى الأصوات التي كانت داخل المكتب ، وانحنى قليلا وإذ به يكتشف ثقباً صغيراً من نافذة مغلقة . كانت رائحة الرطوبة تفوح من المكان . شعر بضيق في التنفس لكنه راح يحدق بعينه من الثقب ، لمح كريم جالساً على مكتب أصغر من جسمه ، وكان جعفر واقفاً يدخن

سيجارة بشراهة ، بينما الرجل الثالث كان جالساً على مقعد خشبي صغير ، لم يستطع أن يلمح وجهه لأن ظهره كان نحو الباب . فكر لخضر أنه ليس بحاجة إلى رؤية أكثر وقد وصل الخوف إلى ذروته . لن يقدر على الرد لو سأله أحد ما الذي يفعله هنا؟ ولن يقدر على إبعاد أي تهمة قد يوجهها إليه «جعفر» بالتجسس على مسؤوليه ، هو المخبر البائس الذي ينحصر عمله كله في تسليم التقرير والخروج في اللحظة نفسها!

ـ المهم أن المسؤولين مرتاحون للنتائج! العملية سرية لا يعرف بها سوى قلة من الأشخاص!

قالها الرجل الجالس الذي بدا صوته بارداً ، بينما كان الضابطان مشدودين إليه بكل حواسهم ، فلم يقاطعه أحد حتى أنهى كلماته . أضاف الرجل الجالس :

ـ هنالك جهة سوف تستقبل الفارين وتدربهم على العمل ، وسيكون بيننا وبينهم شخص مشترك . العملية في غاية الحساسية ، والمهم أن تكون النتائج جيدة لأن المسؤولين سينتقمون منا كلنا لو أخفقنا في تنفيذ الأوامر!

قال جعفر فجأة :

ـ لن نخفق في التنفيذ ، لأن حياتنا كلها صارت مربوطة بالعملية . سوف نقوم بها إلى النهاية!

ـ هذا المطلوب . خبر فرار المسجونين بدأ ينتشر وهذا ما بدأنا في عمله ، حتى الصحافة سوف نستعين بها في الوقت المناسب . الأوامر التي عندي هي أن يكون الأشخاص المسؤولون عن العملية على اتصال دائم ببعضهم ، في الليل والنهار . الاجتماع سيكون هنا وفي أماكن أخرى ، وثمة احتمال فرار مساجين آخرين سوف ينقلون أيضاً إلى المكان نفسه للتدرب على السلاح! وأول جماعة لن تقل عن عشرة أشخاص ، وستكون

تحت أعيننا ، لأن السي طارق أصبح معهم ، وسيكون عيننا وأذننا بانتظار التحاق آخرين به لمساعدته على إدارة العمليات!!

صمت قليلاً وأضاف بالصوت الواثق والآمر نفسه :

ـ سيكون جعفر مسؤولاً أمامي فيما يخص المخبرين الذين يعملون تحت يديه ، وسيختار لنا من يراهم قادرين على إرسالهم أيضا ، وكريم ستكون لديك مهمة جديدة تبدأ من يوم السبت في منطقة الشرق ، سوف تجد «السي عمر» هناك ليشرح لك بالتفاصيل مهمتك ، التي من المفترض أن تدوم شهرين لتعود بعدها إلى العاصمة ، وستكون مسؤولاً أمامي عن نجاح عملك في الشرق رفقة زملاء آخرين سنحدد أسماءهم فيما بعد . المهم الآن أن العمل الحقيقي قد بدأ!

ولم يرد لا جعفر ولا كريم . .اكتفيا بالموافقة بصمت .

أحس لخضر بقلبه يدق كلما طال الحوار . انتابته رغبة في العطس كتمها بقوة واضعا يده على أنفه كي لا يعطس . كان العرق يتصبب منه وكانت فرصته للمغادرة بخطوات ثابتة وصامتة ، لكن الرجل الجالس وقف فجأة وهو يقول كأنه ينهي الكلام بطريقة مفاجئة :

ـ هذه أهم الأوامر التي بين يدي وعلينا تنفيذها . الرجال الذين أصدروها لن يتسامحوا مع أي خطأ!

قالها وهو يستدير ويفتح الباب ويخرج دون أن ينظر إلى الخلف! بقي الثلاثة في الداخل ، صامتين في الأول ، ثم قال جعفر موجها كلامه إلى كريم :

ـ هل من أخبار عن فريد؟

ـ فريد نشيط ويعرف العمل المنوط به ، ناهيك عن أنه لا يعمل وحيداً ، إبراهيم معه! .

ـ التقارير التي عندي تقول إن طلبة جامعات أخرى بدأوا في التعاطف مع طلبة الجامعة المركزية ، وطالبوا أمس بإطلاق سراح المعتقلين! هذا جيد ، ثمة تقارير أخرى تقول إن احتمال الاعتصام وارد في جامعتين أخريين .

ونظر كريم إلى جعفر وهو يقول بابتسامة غير مفهومة :

ـ هل تعرف أن لخضر كتب في تقريريه الأخيرين عن «فريد» و«إبراهيم» ، قائلاً إن إطلاق سراحهما يثير تساؤلات الطلبة والأساتذة!

ـ فريد وإبراهيم يحظيان باحترام الطلبة ، والجميع يعرف أن لهما أقارب يعملون في جهات رسمية . لن يشك أحد فيهما ، ناهيك عن أن تقارير لخضر بدأت تصيبني بالضجر ، بمجرد أن أتفرغ سوف أتصرف بشأنه!

ـ هل تريد الاستغناء عنه؟

قالها وقد زادت ابتسامته اتساعاً كأنه يتسلى بالأسئلة :

ـ شخص نكرة مثله لن نحتاج إلى جهد للتخلص منه!

ـ لكن المسؤولين يحبون تقاريره! ستحتاج إلى جريمة دقيقة للتخلص منه إذاً!

نظر جعفر إلى كريم نظرة ضجرة وهو يقول :

ـ ولن أتعب في الحصول على الجريمة إذاً!

وابتسم كريم تلك الابتسامة الساخرة قبل أن يقف ويعدل ياقة سترته ويخرج ثم يتبعه جعفر دون أن يلتفتا خلفهما! هل ما سمعه كان حقيقة أم لعبة من مخيلته؟ كان لخضر واقفاً ملتصقاً بالجدار يتصبب عرقاً . أحس أنه في ورطة وعليه المغادرة قبل أن يكتشف أحد أمره ، وبخطى أرادها سريعة وثابتة استطاع الخروج ، مستغلاً هدوء الحركة في تلك الساعة من المساء . حاول أن يجمع أفكاره لكنه لم يستطع . أراد أن يتحكم في رعشة

جسمه فلم يستطع . يا إلهي! كان يريد أن يقنع نفسه أن ما سمعه لا بد أن له تفسير منطقي ، وربما يدور حول شيء لا علاقة له بما فهمه . لكن لا . . لقد تكلما عن فريد وإبراهيم ، الطالبين اللذين قادا العصيان في الجامعة وتسببا في اعتقال زملائهم والمدير في آن واحد ، أيعقل أن فريد وإبراهيم مخبران أيضا؟ كان يمشي بسرعة كلص يخشى اكتشاف أمره ، مع أنه استطاع تجاوز البوابة الخارجية والوصول إلى الشارع العام . أحس بشيء غريب ينتابه وهو يمتزج بالمارة . كان يريد أن يفهم لماذا أرسلوه إلى الجامعة للتجسس على المدير إن كانوا قادرين على إرسال مخبرين في زي طالبين . تذكر ما قاله له كريم : «اللعبة أكبر من عقلك الصغير!» . وتساءل بحزن لا يخلو من غضب : هل عقله صغير حقاً؟ كان يرفض أن يقتنع أن عقله صغير وأن ثمة من يدير مصيره كما يدار شطرنج يلعبه شخص غير مكترث بالربح والخسارة ، بقدر اكترائه بمتعة إخضاع الآخرين لمزاجه في الربح والخسارة . أيعقل أنه وقع في الفخ؟ قالها وهو يركض متجنباً نظرات الناس الذين كان يصطدم ببعضهم أثناء الركض . . كان يريد أن يفهم ، ليستطيع استيعاب ما يجب القيام به ، لينجو بنفسه من الفخ الذي توعّده به جعفر . شعر بالخطر الشديد ، وتحول السكون الذي ظل يشعر به طوال الأشهر الماضية إلى حالة طوارئ حقيقية . لم ينم يومها ، فقد استولى عليه الإحساس بالقلق ، وبأنه لن يعيش آمنا بعد الآن! كان سيء المزاج في اليوم التالي ، غير راغب في الحوار مع جمال الذي أخبره أن المدير الجديد سيأتي اليوم . قال له بصوت بدا تأبينياً :

ـ حاولت زيارة المدير أمس لكن الأطباء منعونا من رؤيته ، تبدو حالته سيئة فعلاً ، فقد منعوا زوجته وابنته من الدخول أيضا!

ولم يعلق لخضر بأكثر من هزة من رأسه . كان يشعر بشيء يؤنب

ضميره وهو يتذكر أنه لم يحاول زيارته ، وإن استطاع التحجج بمنع الزيارة إلا أنه كان يشعر أن من واجبه زيارة المدير ولو للمرة الأخيرة! في العاشرة والنصف من ذلك اليوم ، وصل المدير الجديد إلى الجامعة ، شعر لخضر بشيء غريب يحتويه ، وهو يكتشف أن المدير الجديد لن يكون بإنسانية المدير السابق ، وهو ينظر إلى لخضر نظرات باردة قبل أن يطلب ملفات كثيرة أحضرها جمال في لمح البصر . استغرب لخضر أن المدير لم يطلب منه شيئاً ، مع ذلك كان يشعر بشيء غير مريح وهو يصطدم بنظرات المدير الحازمة . . نطق أخيراً وسأل لخضر بطريقة متعالية :

ـ وأنت؟ ما هي وظيفتك هنا ؟

ـ أنا مساعد السكرتير يا سيدي!

ـ إذاً عليك أن تذهب لتساعده بدل الوقوف كالصنم الأبله!

لحظتها اقتنع أنه لن يتعايش مع المدير الجديد الذي كان في الخمسين ، قوي البنية وصارم النظرات . أخبره جمال بنبرة مقتضبة أن المدير الجديد على خصام قديم مع المدير السابق ، وأن إحضاره إلى هنا ليس مصادفة! ولم يعلق لخضر ، كان يشعر بحالة غريبة من الإحباط وهو يفكر أنه دخل إلى جوف قوقعة تنغلق عليه . كان محبطاً إلى درجة جعلت جمال يفكر أن سبب حالته يكمن في تأثره بوضع المدير . قال له كأنه يواسيه :

ـ نعي دائماً قيمة الشخص عندما يغيب عنا!

وتظاهر لخضر بالانشغال في تصفيف الملفات التي كانت على مكتبه الصغير . هل يمكن القول إنه متأثر لغياب المدير؟ لقد اقتنع أنه لا يملك يداً في ما جرى له لأن الذي جرى كان جاهزا قبلا ، وسواء كان حاضراً أو غائباً فسيلقى المصير نفسه ، مع ذلك كان غاضباً في قرارة نفسه وهو

يكتشف أنه لا شيء في النهاية والدور الذي ظنه كبيراً ليس أكثر من دور مهرج في مسرحية درامية! كان يريد أن يعرف لماذا أرسلوه طالما يستطيعون التخلص من المدير بأكثر من طريقة؟ ثم تذكر «فريد» و«إبراهيم» وشعر بالغضب .

تساءل بينه وبين نفسه ، هل يعرفانه؟ ربما يعرفان من الأول دوره الحقيقي ، لهذا كلما مر فريد من أمامه نظر إليه نظرة مليئة بالسخرية ، كأنه يقول له : أنا أعرف من تكون أيها الوغد! مسح لخضر على شعره بيد مرهقة ، وتنهد بعمق وهو يقول فجأة :

- أتمنى أن يسمحوا لي بزيارة المدير!

واستغرب جمال تلك الجملة التي بدت أشبه بقرار مفاجئ ، نظر إليه وهو يقول بصوت متعاطف :

- سيكون حظك كحظي! الزيارة ممنوعة عليه إلى إشعار آخر!

ورفع لخضر عينيه إلى جمال الذي كان ينظر إليه بصمت . فكر أن يقول شيئاً لكنه تراجع . كان لسبب غريب يشعر أنه محطم وأن القادم يبدو غامضاً ومخيفا!

-١٧-

كان المساء خالياً من الكلام عندما تجاوز لخضر البوابة الرئيسية للمستشفى . فكر أن زيارته المتأخرة للمدير تبدو ضرورية حتى لو لم يسمحوا له برؤيته . سيحاول متظاهراً بأهمية المريض بالنسبة إليه ، من باب القيام بدور عليه القيام به ، مع ذلك كان يشعر بشيء من التعاطف الصادق ، حتى وهو يردد في قرارة نفسه أنه ليس مسؤولاً عما جرى ، فالمدير يعاني من مرض القلب ، وصدمة الاعتقال زادت من حالته ؛ لأنه رأى أن الاعتقال إساءة تاريخية له! فقد كان المدير من الناس الذين يرون في وطنيتهم قداسة لا يمكن خدشها ؛ لأنه يرى نفسه محترماً في عمله وبيته وفي الشارع ، ويربط احترام الآخرين بالقداسة نفسها التي يسميها الوطنية ، والتي انتمى إليه مثلما انتمى إليها والده وجده . لكنه لم يتوقع أن يقلل الكبار من احترامهم له . هل يمكن التبرير لرجل مريض أن خطأ الكبار لا يقل عن خطأ الصغار؟ يتذكر الحوار الذي دار بينه وبين جمال حين دافع فيها الثاني عن الأسرة الثورية التي ينتمي إليها المدير ، ولعل لخضر أبدى يومها مخاوفه من الفكر المتطرف الذي بدأ ينتشر في الجامعة قال له جمال يومها :

- هؤلاء لن يؤذوا المدير لأنهم يعرفون أنه لا يشكل خطرا عليهم ، فهو في النهاية سيصل معهم إلى سقف للتعايش ، لأنه ثوري ولأنهم ثوار

بطريقتهم أيضاً!

ـ هل تعتبرهم ثواراً؟

وارتبك جمال وهو يقول كأنه يتدارك جملته السابقة :

ـ أنا أرفض طريقتهم في إيصال أفكارهم ، لكني أردت أن أقول إن كل إنسان وطني لا بد أن يجد في ثورتهم مساحة لثورته الخاصة ، لأن الجميع صار ثائراً بطريقته!

وأحس جمال يومها بالتورط في حوار أكبر منه ، ومن نظرات لخضر التي فقدت حرارتها ، وإن لم يحب لخضر كلام جمال إلا أنه كان يوافقه أن الثورات الكثيرة غالبا ما تلتقي في ممر ضيق اسمه البحث عن التغيير ، وإن كان المدير يرفض العنف ، إلا أن مجرد اقتناعه بفكرة التغيير تجعل منه شخصاً خطيراً في نظر الكبار ، الذين يعتبرون موقعه الحساس كمدير لأهم الجامعات شكلاً مثيراً للخوف ، مع ذلك أدرك أن المدير لم يكن الهدف الأساسي بالنسبة لهم ، لم يكن شيئاً في النهاية ، لكنهم قرروا القضاء عليه بأقل الخسائر الممكنة! فهم أن الجامعة نفسها هي الهدف ، ولم يفهم لخضر كيف يمكن أن تتحول الجامعة إلى هدف إلا بعد فوات الأوان!!

ـ الزيارة ممنوعة!

قالها له أحد الممرضين بطريقة خالية من الأدب ، ونظر إليه لخضر نظرة غاضبة وهو يسأله :

ـ بأمر مِن مَن؟

وارتبك الممرض وهو ينظر إلى لخضر نظرة استغراب ، ولم يرد ، بل تركه وانسحب على طول الممر ، وعندما لمح ممرضة أخرى أوقفها ليسألها :

ـ من فضلك ، من هو الطبيب المشرف على علاج سي الطيب مدير الجامعة؟

ـ الدكتور يوسف ، إنه على وصول!

جلس على أحد المقاعد المتراصة على طول الممر العريض . كان يشعر أنه وحيد وأشد خيبة مما توقع أن يكون .

ـ عفواً . أعتقد أنه لا يمكنك زيارة المريض ، حالته لا تسمح بذلك!

قالها له صوت أخرجه من أفكاره . رفع عينيه بسرعة ليجد طبيباً شاباً يبتسم بطريقة ساذجة ، تدل على أنه يفعل ذلك كجزء من وظيفته فقط!

ـ هل حالته سيئة إلى هذا الحد؟

ـ تعرض أمس إلى نوبة قلبية ، ولحسن الحظ أنه كان تحت رعاية طبية . من الصعب رؤيته قبل ٨٤ ساعة على الأقل!

وقبل أن يرد بشيء قال الطبيب فجأة :

ـ هل أنت ابنه؟

وارتبك لخضر ارتباكاً كبيراً وهو ينظر إلى الطبيب الذي ربت على كتفيه وهو يقول :

ـ إن شاء الله خير ، المهم أن الزيارة ممنوعة حتى تستقر أوضاعه!

قالها وانسحب بخطوات سريعة . هل كان ليهزه سؤال مفاجئ كما هزه سؤال الطبيب؟ تساءل وقتها طويلا هل يصلح لأن يكون ابناً لشخص مثل المدير؟ هو الذي عجز أن يكون ابناً لحمال هزمته أثقال الحياة حد القسوة . . هل كان سيصبح شخصاً مختلفاً لو كان المدير والده؟ قالها في نفسه وهو يجلس بتعب على المقعد نفسه في الممر الطويل الخالي من البهجة . كان يقول له والده : يتمنى المرء ألا يمشي في شارعين من شوارع العمر ، شارع السجن وشارع المستشفى! هل يمكن ألا يمشي في الشارعين معاً وقد وصل إلى مرحلة تمنى فيها الموت ، كما يتمنى المرء شيئا ضروريا

للخلاص! وقف يحاول أن يمشي بهدوء نحو المخرج ، وإذ به يلمح سيدة ومرافقتها تقتربان من المكان نفسه ، ورأى إحدى الممرضات تتجه نحوهما وتقول بصوت عطوف :

ـ الزيارة ممنوعة! يجب انتظار الساعات القادمة!

ـ ألا يمكننا رؤيته؟ لن نتكلم!

ـ لو كان بإمكاني ترككما تريانه لما ترددت ، لكنه ممنوع من الزيارة . أرجو أن تتفهما ذلك!

تقدم لخضر منهن وقال بصوت أراده صادقاً :

ـ أخبرني الطبيب منذ قليل أن الزيارة ممنوعة على الأقل ٨٤ ساعة!

والتفتت إليه المرأتان في اللحظة نفسها ، بينما الممرضة ارتاحت أساريرها وهي تجد من يساعدها على المرأتين!

ـ عفواً يا بني ، من أنت؟

قالتها المرأة الأولى وهي تنظر إليه بوجه متعب :

ـ أنا أشتغل سكرتيراً في الجامعة يا سيدتي!

قالها وهو ينظر إلى الفتاة التي ترافق السيدة . أضاف بصوت خجول :

ـ سيكون بخير إن شاء الله ، أنا متأكد أن السي الطيب لن يستسلم لحالته هذه ، فهو يعرف أن الجميع بحاجة إليه!

هل هو من قال هذه الجملة التي بدت له سخيفة حد السخرية . ابتسمت السيدة ابتسامة لطيفة ، بينما ظلت مرافقتها ترمقه بنظرة مليئة بالغضب ، مع ذلك بدت له نظرتها مجروحة ، ولسبب غريب شعر أنه يتفهم غضبها . عرف سريعاً أن السيدة زوجة المدير والفتاة ابنته الوحيدة ، وزاد شعوره بالشفقة عليها وهو يراها تمشي بصعوبة لتجلس على المقعد المقابل لمقعده . نظر إليها نظرة طويلة لتصطدم عيناه بعكاز طبي كانت

تستند إليه وهي جالسة . وكأنها رأت نظرته وضعت العكاز على الأرض وحاولت إخفاء رجلها المصابة . . أحست الفتاة بغضب عارم ولخضر يتفحصها بتلك الطريقة ، وفكرت أن تلفت انتباهه لكنها تراجعت وهي تقول إنه مجرد زائر سيمضي دون رجعة! كانت تعرف أن زيارات الناس سوف تنتهي بمجرد انتهاء سبب الزيارة ، والمريض إن توفي تنقطع أسباب زيارة الناس إليه ، وإن عاد إلى البيت فسيعود بصحة سيئة ، ولن يزوره أحد ولو للسؤال عنه ، لأن أسباب السؤال تنقطع أيضا بمجرد أن ينقطع المدير عن الذهاب إلى عمله لأسباب صحية! قال لخضر محاولاً أن يكسر حاجز الصمت :

ـ لقد تحدثت مع الطبيب وشرح لي الكثير من الأمور أهمها أنه متفائل جداً رغم منع الزيارة عنه ، وأنا أيضاً متفائل أن المدير سيعود إلى البيت معافى إن شاء الله!

ـ إن شاء الله يا بني . . إن شاء الله .

قالتها المرأة بنظرة امتنان له ، بينما بقيت ابنتها صامتة ، غير راغبة في الحديث أو التعليق! شعر لخضر بالحرج وهو جالس بتلك الطريقة . وقف واستأذن ، ثم غادر . لسبب غريب أحس بالذنب وهو يمشي طويلا في شارع خال من الناس . كان الليل قد أسدل أستاره . فكر طويلاً يومها كيف لشخص يعي حدود المخاطر التي تحيط به بالقدرة نفسها على استيعاب خطره على الآخرين أن يعيش بإحساسين ، واحد له والآخر لشخص يشبهه! كان يشعر أنه لن ينجح في التقدم في عمله إن تعاطف مع ضحاياه ، وذلك أهم درس لقنه إياه مراد يوم دربه على عمل السكرتير ليدخل إلى الجامعة بخبرة جاهزة! قال له يومها :

ـ في عملنا ليس هنالك مكان للتعاطف . أنت تعمل في مكان ا

مكان فيه لغيرك! أن تكون أو لا تكون . أن تعيش أو تموت ، ولا شك أنك ستختار الحياة!

واستغرب يومها من حجم الكلمات التي كان يرددها مراد بحماسة بدت مبالغاً فيها ، لكنه كان يريد أن يقنع محدثه أن المكان الذي جاء إليه ليس فيه مجال للخطأ ، والعاطفة هي أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه أي مخبر مهما كان بائساً أو تافهاً أو سخيفاً! يومها نظر إليه نظرة عميقة وأضاف :

ـ التعاطف مع الضحايا يعني عدم قدرتك على تمييز خطورتهم الحقيقية ، لأن العاطفة تفتح الباب للشفقة ، ولا مكان للشفقة عندنا!

لم يكن مراد شرساً ولا عنيفاً في صوته أو ملامحه ، كان في الثلاثين ، بنظرات ثاقبة وشارب يحرص على الاعتناء به بعناية واضحة ، وكان عندما يبتسم تبدو أسنانه العلوية مخيفة كأنه سينقض على محدثه ليفترسه . سمع أحدهم يصفه بالصقر ، ولم يجد لخضر علاقة بين مراد وبين الصقور ، كان قريباً إلى النمس ، بعينيه الضيقتين ، وحركاته السريعة . هل ينكر لخضر أنه ارتكب أول وأهم خطأ ضد القاعدة التي تعلمها؟ فقد شعر بالتعاطف مع المدير ، ومع أسرته الصغيرة التي بدت متبمة في غيابه . . كان متعاطفاً مع ابنة المدير التي اكتشف أنها مريضة . قال له جمال محاولاً أن يبدو ملمّاً بكل شيء :

ـ إنها تعاني من إعاقة في رجلها اليسرى منذ صغرها! كان بإمكان والدها أن يعالجها في الخارج لو أراد ، لكنه رفض!

ـ رفض؟

ـ أعني أن السي الطيب ليس من النوع الذي يشحذ إعانة من أحد ، وإرسال ابنته إلى الخارج كان سيجبره على مسح أحذية الكبار ليرسلوا ابنته على نفقة الدولة! السي الطيب رفض ذلك واختار أن تعالج ابنته

داخل الوطن الذي حرره جدها، لكنها لم تشف تماما، وهي تعاني من صعوبة في المشي برجلها اليسرى!

ألا يستحق هذا تعاطفاً إضافياً مع المدير الذي عجز عن إرسال ابنته إلى الخارج لأنه لا يملك المال الذي يعالجها به في مستشفيات العالم. كانت تلك الإعاقة دليلاً آخر على نزاهة المدير الذي رفض أن يمد يده لأحد كي يعيد الحياة إلى رجل ابنته، اختار أن تعيش بشلل على أن يخون كرامته ويمد يده للآخرين. كان يعرف أنه لو فعلها سوف يتنازل بعدها عن قناعاته، ولن يتمكن من الحلم بالتغيير الذي يعي أنه سيأتي على أيدي هؤلاء الشباب الرافضين للتبعية والذل. ذلك الجيل الذي يدخل إلى الجامعة ليدرس ويغضب ويثور في الوقت نفسه، باعتقاد مسبق أنه يملك الحق الوحيد المتبقي له، والذي يكمن في عمره الشاب، حتى وهو يتذكر أن داخل ذلك الجيل يوجد «فريد» وإبراهيم اللذان لا يهمهما التغيير بقدر ما يهمهما أداء الدور! الدور الذي جعله يعتقد أنه مهم وناجح وقادر على التقدم نحو الأمام! أليست سخرية أن يثور هو بالذات على ما كان يبدو ضرورياً للحياة : السلطة والمال؟ لم تعد السلطة تعني له سوى الخوف من الآخرين، من الوجوه التي يراها ولا يعرفها ويرتاب منها، ومن الأصوات التي يخيل إليه أنها تطارده في أحلامه وفي واقعه..! لم تعد السلطة تعني شيئا منذ اكتشف أنه لن يصبح شيئا وسط دائرة رُسمت حوله بإتقان، وعليه أن يدور فيها كثور مربوط إلى ساقية. كان يخيل إليه أن الدائرة تضيق بعد أن انتشر خبر فرار المساجين. سمع الخبر من جمال الذي سمعه من أحد الأساتذة، الذي سمعه من شخص يعرفه يعمل في أحد السجون، ولم تمض أيام حتى كتبت الصحيفة الخبر بالخط العريض. قرأ المقال بإحساس غريب بالرعب. مقال جاهز للخوف على سلامة الناس

والبلد. قال له جمال بصوت مليء بالسخرية:
ـ كأن الخبر أرعبك!
ـ ألا يخيفك ما جاء في المقال؟
ـ مجرد كلام مدفوع ثمنه. سيلقون القبض عليهم لا شك. أين يمكن لهارب أن يعيش في بلد مكشوف على الجميع؟
ـ المقال يقول إن الهاربين كانوا متهمين في قضية حيازة السلاح ومحاولة إنشاء خلية إرهابية لمحاربة الدولة!
ضحك جمال فجأة أمام دهشة لخضر الذي ظل ينظر إليه:
ـ فيلم هندي يا صديقي! سيلقون القبض عليهم، هذا إن لم يكونوا قد ألقوا القبض عليهم فعلا، لكنهم سوف يكررون هذه الأسطوانة لشغل الناس عن مشاكلها. الناس إن أحست بالخطر يهدد أمنها سوف تنسى أنها جائعة وغير حرة وبائسة!
يا للخطاب السياسي الذي يكفي أن يكتبه في تقريره ليجعل من جمال مشبوهاً جاهزاً. ابتسم لخضر رغماً عنه. أليس هذا دوره؟ جمال في مقتبل العمر، ويستعد للزواج بعد أن ترك له والده الشقة ورحل إلى الآخرة. هل يشعر هذا الشخص بالجوع والبؤس ليتكلم عنهما؟ أليس هذا النوع من الكلام بداية للتمرد؟ قالها في نفسه وهو ينظر إلى جمال نظرة جعلت ابتسامة هذا الأخير تختفي. شعر جمال بالخوف من نظرات لخضر التي كانت عميقة وباردة حد الموت! وإن حاول تغيير الموضوع إلا أنه شعر أن لخضر ينظر إليه بنظرة لم ترقه.
ألم تكن النهايات بابا للبداية؟ لكن الأمور بدت متغيرة ولخضر يزور المدير في اليوم التالي ليكتشف أنه أفاق من غيبوبته، لكن الطبيب لم يسمح إلا لزوجته وابنته بالدخول. لم يشعر لخضر بأي حرج من عدم

السماح له بالدخول . لم يكن يعني شيئاً بالنسبة للمريض في النهاية ، ولم يحضر ليراه بقدر ما حضر لشيء آخر . شيء غريب جعله يفكر أن عليه الحضور والجلوس بصمت وقور منتظراً إياه . ولم ينتظر كثيرا إذ خرجت زوجة المدير وابنته حزينتين ، وعندما رأته السيدة ابتسمت ابتسامة هادئة وقالت :

- شكرا على مجيئك لزيارته يا بني . هذا كرم منك!

- هذا أقل ما يمكنني القيام به يا سيدتي!

- لست مجبراً على هذا بكل تأكيد!

قالتها الفتاة التي كانت تنظر إليه نظرة مليئة بالغضب والحزن ، واستغرب طريقتها الجافة في الحديث إليه ، لكنه تفهم أن ظروفها ليست جيدة في النهاية ، والدها في سرير المستشفى ، وحياته ومستقبله صارا على الحافة الآن وقد تم تعيين مدير جديد ، واستعداد الوزارة لتسوية معاش المدير بسبب ظروفه الصحية . كان يدرك أن سي الطيب لا يمكنه أن يتحمل فكرة تسوية المعاش بذلك الشكل المجحف الخالي من الاحترام لسنواته الطويلة التي قضاها أستاذاً جامعياً ثم مديراً للجامعة . كان يتفهم غضب ابنته التي كانت تنظر إليه ببرودة جعلته يبتسم رغماً عنه . لأول مرة يشعر أنه يراها جيداً ، يرى ذلك البريق العجيب في عينيها ، وذلك الشحوب الوقور في وجهها . كانت شفتاها ترتعشان حتى وهي صامتة . فكر بينه وبين نفسه «إنها شرسة» ولعله ابتسم لهذه الفكرة تحديداً . سمع والدتها تقول بصوت متعب :

- لا تقولي هذا يا نجاة! هذا الشاب لا ذنب له! هيا بنا نعود يا ابنتي!

وخفق قلبه بقوة وهو يسمع اسمها . نجاة؟ وشعر أن العرق يتصبب منه ، ولعل ارتباكه بدا واضحاً ، حيث رفعت الفتاة عينيها إليه وقالت

كأنها تتدارك كلامها السابق :

ـ أرجو أن تقبل اعتذاري . ما جرى فوق الاحتمال!

ـ لا عليك . . أنا أتفهم ذلك!

قالها بصوت بالكاد يسمع . أمسكت نجاة بيد أمها وابتعدتا مستعينتين ببعضهما البعض على المشي ، وبدل أن يمشي لخضر في حال سبيله وجد نفسه يركض خلفهما ويوقف لهما سيارة أجرة كأي شاب شهم وأصيل . شكرته المرأة بحرارة بينما ابنتها اكتفت بالدخول إلى السيارة التي فتح بابها الخلفي . . لأول مرة لم يفكر لخضر أن عليه أن يبرر شيئاً صار يشده إلى المستشفى كلما انتهى الدوام . تقاريره الجامعية لم تكن تتجاوز الصفحتين عن المناوشات التي تحدث بين الحين والآخر بين الطلبة الذين يحملون فكراً إسلامياً ، وزملائهم ذوي التوجه الماركسي اليساري . كان ثمة مشاحنات بين الجانبين . يحكي له جمال أحياناً عن تصرفات اليساريين المستفزة ، وعن ردة فعل الطلبة الآخرين الذين صاروا يحاولون تجنب الصدام بعد ما حدث ، لكن جمال أوصل إليه الفكرة التي كان يتوقعها ، بأن الطالبين الملتحيين يحاولان إثارة المشاكل بشكل صاخب بعد أن تشاجر أمس فريد مع أحد الطلبة اليساريين وصاح في وجهه :

ـ أتجرؤ على تحدينا أيها الزنديق الكافر؟ لأقتلنك بيدي إن لم ترجع إلى رشدك!

وضحك جمال وهو يعيد الجملة بطريقة مسرحية ، أضاف ضاحكا : «خيل إلى الطلبة أنهم يشاهدون فيلم الرسالة لمصطفى العقاد!» لكن لخضر لم يضحك . كان يصغي بكثير من التركيز . هل يمكنه أن يضحك على شيء يعرفه أكثر من جمال ومن البقية؟ كان يدرك أن دوره الذي يكاد ينتهي يعني بداية دور فريد وإبراهيم اللذين سوف توكل إليهما مهمة

تأجيج الصراع داخل الجامعة ؛ ليتسنى القضاء على فكرة الثورة في عقول هؤلاء الطلبة . كان يدرك أن الهدف الأول ليس قتل الطلبة أو اعتقالهم ، بل قتل رغبتهم في التغيير وملء قلوبهم بالخوف من التغيير نفسه . كان لخضر يفكر في كل هذا السيرك الذي بدأ يستوعبه دون الحاجة إلى السؤال . فقد رأى فريد وإبراهيم في ذلك المركز أكثر من مرة ، وكانا يمشيان بخطوات واثقة كمن يدخل إلى بيته . استطاع تجنب الالتقاء بهما وجهاً لوجه .

ـ أخشى أن الكوارث قادمة يا صديقي ، وتصادماً آخر داخل الجامعة بين الإسلاميين واليساريين سيغرق الساحة بالدماء!

ـ ما موقف المدير الجديد مما يجري؟

ـ لقد حذر الطرفين من مغبة السقوط في الفخ . أصبح يمر على قاعات التدريس ليلقي كلمتين عن ضرورة احترام الحرم الجامعي . إنه يبدو حيادياً ، وأحيانا يتمنى أن يتقاتل الطرفان خارج الجامعة على أن يحدث له ما حدث للسي الطيب!

ـ ألم يساهم السي الطيب بطيبته في ذلك ؟

قالها فجأة ، ونظر إليه جمال ولم يرد . كان يدرك أن زميله على حق ولكن زميله لا يعرف أن السي الطيب إنسان قبل أن يكون مديراً ، فهو يتعامل مع الجميع بالقلب والوجه نفسه!

ـ كان السي الطيب مثالياً ، ولهذا وقع !

قالها جمال وهو يغرق في الأعمال الروتينية التي تعود عليها ، ثم رفع عينيه وقال كأنه تذكر شيئاً مهماً :

ـ من حسن الحظ أن المدير وافق على طلب الإجازة التي تقدمت بها ، حان لي أن أهتم بنفسي وبزواجي المقبل!

رفع لخضر عينيه إلى جمال الذي كان مبتسماً وفخوراً . كان يدرك أن إصراره على الإجازة ليس بسبب الزواج ، بل ليهرب من الضغط الذي أصبح يحسه داخل الجامعة ، وإن وافق المدير على طلبه إلا أنه رفض أن يعطيه أكثر من أسبوع واحد كاف ليتزوج فيه ويريح أعصابه . شعر لخضر بوخز في قلبه وهو ينظر إلى زميله السعيد . قال له بصوت أراده صادقاً :

ـ أرجو لك السعادة!

ـ وأرجو أن نفرح بك قريباً أنت أيضاً!

ـ الزواج ما زال بعيداً عن مفكرتي!

ـ سيكون قريباً عندما تجد الفتاة التي تجعلك لا تفكر في غيرها!

قالها جمال ليواسي زميله الوحيد . الوقت الذي أمضاه معه في المكتب جعله يفهم نوع الأشخاص هو . استوعب أن لخضر من النوع الذي يحب وحدته ليهرب بنفسه من الإساءة ومن السخرية والهباء . أحس أن هذا الشاب الصامت عميق النظرات لا بد أنه تعرض إلى تجربة ركبت عنده هذا الشعور بالخوف من الناس ، وصنعت منه واحداً من البؤساء على وجه هذه الأرض . لم يسمعه يضحك قط ، ولم يسمعه ينكت كما يفعل شاب في سنه ، كان دائماً جاداً وحريصاً على الصمت كحرصه على البقاء بعيداً عن مشاكل الجامعة . منذ الصدام الأخير صار معزولاً عن البقية ، لا يخرج من المكتب إلا ليعود إلى بيته! وقبل أن ينطق بشيء آخر سمع جمال يقول :

ـ هل تعرف أنني لم أزر السي الطيب منذ مدة؟

ـ أنا زرته أمس وعلمت أن حالته تبدو في استقرار!

ـ هل تحدثت إليه؟

ـ بكل أسف لا يسمحون سوى لزوجته بالدخول!

ـ قد أزوره غداً ، فمن العيب ألا أزوره!

قالها جمال وهو يحك على ذقنه بالقلم الذي كان يمسكه في يده . ولم يعلق لخضر بشيء . كان يكتفي أنه يزوره ولم ينقطع عنه . صحيح أنه لم يرَ في اليومين الماضيين سوى زوجته التي اعتذرت له بحرارة أنهم لم يسمحوا له بالدخول ، وكان يكفيه أنها تقول لزوجها بأن ذلك السكرتير الطيب يزوره ويبقى ساعة على مقعد في الممر المؤدي إلى الغرف ، ثم يذهب صامتاً! كان يشعر أنه يفعل ذلك عن واجب فعلاً ، هو الذي لم يزر والده مرة واحدة منذ غادر البيت غاضباً وعاتباً! تساءل كثيراً وقتها هل كانت حياته ستتغير لو كان السي الطيب والده؟ ربما كان سيواصل دراسته وينجح ويعمل في أي شركة من الشركات ليحصل على لقب موظف يصنع منه عريساً جيداً للعائلات المحترمة! ربما وقتها كانت ستقبل به نجاة دون الشعور بالخجل من شكله ومن فقره . نجاة التي تزوجت من ضابط ضربه لأنه سبقه إلى حبها! مسح لخضر على رأسه براحة يده وتنهد بعمق . فكر في ابنة السي الطيب ، تلك الصدفة التي تتآمر مع الأوجاع لتصنع شيئاً يشبه الإدانة المطلقة ، وإن كانت نجاة الثانية أبسط من الأولى في كل شيء ، إلا أنها تبدو مثيرة للفضول كلما لمح تلك النظرة الحزينة في عينيها . لم يرها تبتسم قط ، وكانت ردودها له عصبية كأنها تدافع بها عن نفسها . . لأول مرة يكتشف أنها بائسة مثله! زيارته المتكررة جعلت الجميع يتعود على وجوده ، بمن فيهم الممرضون الذين كانوا يتعاطفون مع صبره وجلوسه لساعة منتظراً الطبيب الذي يقول له بالصوت نفسه :

ـ للأسف ، الوقت المتاح له تناله زوجته وابنته ، ولا يمكننا فعل أكثر من ذلك!

ولم يكن لخضر يجادل في ذلك الوقت الذي لم يمنحوه له ، فقد كانت

تنتابه أحياناً حالة من الذعر حين يفكر في إمكانية السماح له بالدخول إلى غرفة المريض . تساءل ماذا سيقول له أصلاً غير الكلمات التي لن تعني شيئاً؟ لم يكن يعرفه جيداً ليبني معه حواراً حميماً! هل يمكنه بعدها الحضور يومياً كما يحضر الآن؟ كان مكتفياً بأداء دور يصدقه الآخرون ، وتصدقه تلك الفتاة التي رآها أخيراً تبتسم له لأول مرة . استغرب لخضر أنها لم تدخل مع أمها إلى الغرفة ، بل جلست أمامه على المقعد ، وبعد صمت استغرق دقيقة قالت :

ـ لقد اتفقت مع أمي أن تدخل أنت بدلاً مني اليوم لرؤيته ولو دقيقة!

ـ حقاً؟

ـ والدي ممتن لك وفاءك بالزيارة رغم أنك حديث في العمل بالجامعة! زملاؤه القدامى لم يأتوا . كانوا يتصلون للاطمئنان عليه ، ولم يعد يتصل أحد منذ فترة!

ـ المهم أن يخرج بالسلامة . . الأمور الأخرى يمكن تجاوزها بالعقل!

ـ حتى سكرتيره القديم لم يأت منذ فترة . . لكن كل هذا لا يهم في النهاية!

ـ أجل . . كل هذا لا يهم في النهاية!

كان مرتبكاً وهو يربط كلماته بعضها ببعض ، وكانت تنظر إليه بابتسامة صغيرة على شفتيها . هل يمكن التمسك بحوار يبدو ساذجاً بين شاب مشوه القلب وفتاة مشلولة الأحلام؟ قالها في نفسه وهو يبتسم بدوره ، ولعل ابتسامته فاجأت الفتاة التي سألته فجأة :

ـ ما الذي يجعلك تصر على الحضور إلى المستشفى رغم منع الزيارة عنه؟ أنت لا تعرف والدي في النهاية سوى منذ مدة قصيرة!

رفع لخضر عينيه إليها ، ورد :

ـ أنا لا أسأل نفسي لماذا أؤدي شيئاً أقوم به ، لكني أؤديه عن قناعة أنه الشيء المناسب الذي يجب القيام به ، والسي الطيب على الرغم من بضعة الأشهر التي قضيتها أعمل معه ، جعلني أحترمه وأقدره!

وفتح باب الغرفة ، خرجت زوجة السي الطيب مبتسمة وهي تشير إليه للدخول :

ـ تفضل يا بني . الطيب بانتظارك!

وقف لخضر مرتبكاً أكثر من السابق ، شعر أن وجهه صار أحمر من الرعب الذي تملكه ، رعب لا مبرر له ، مع ذلك خاف من الأسئلة التي كان متأكداً من أن المدير سيطرحها عليه!

ـ كيف هي الأمور في الجامعة يا بني!

نظر لخضر إلى المدير الذي بدا شاحباً جداً ، وهزيل الجسم .

ـ تبدو الأمور مستقرة يا سيدي!

ـ هل أطلقوا سراح الطلبة الذين اعتقلوا؟

ـ نعم أطلقوا سراح أغلبهم!

كانت في عبارة «أغلبهم» إشارة أزعجت المدير الذي تحرك في سريره بصعوبة وهو يسأله :

ـ ماذا يعني أطلقوا سراح أغلبهم؟

ـ أعني أنهم أطلقوا سراح سبعة وما زالوا يحققون مع ثلاثة من الطلبة!

ـ ما حدث لا يستوعبه العقل!

قالها وهو يغمض عينيه كأنه يعيد شريط ذلك اليوم الأسود . كان يشعر بوخز في قلبه وهو يتذكر أنه لم يوقف هدير الغضب الذي بدأ على شكل مطالب منطقية وانتهى إلى عصيان شبه كامل! فكر في نفسه «لو تحاورت مع الطلبة حواراً جاداً وجدياً لما انفلت الوضع ، فهذه ليست أول

مرة يثورون فيها ، سبق أن ثار جيل سابق منهم ولكن ثورتهم سرعان ما هدأت أمام الشعارات التي كانت تتحول إلى قداسة في نظر الأهالي الذين استطاعوا الضغط على أبنائهم ، فالوطن مدفوع ثمنه غالياً . كل أب وأم كان يمتص غضب أبنائه بالحكمة ، لكن هذا الجيل يبدو مختلفاً جداً ، وغير قابل للانصياع! نظر المدير إلى لخضر بعينين متعبتين :

- أشكرك على زيارتك يا بني . ثق أنها تسعدني .

- هذا أقل من الواجب يا سيدي!

- لا تقل لي سيدي ، قل لي عمي الطيب كما يقولها لي الجميع!

وخفق قلب لخضر بقوة وهو يطأطئ رأسه . كانت تلك من اللحظات الحقيقية والقليلة التي شعر فيها بالذنب ، وتمنى فيها لو كان السي الطيب والده ، هل كان سيتحول إلى ما هو عليه اليوم؟

لشد ما شعر يومها بتأنيب الضمير ، والسي الطيب يتحول إلى عمي الطيب في الزيارات التي كان يختلسها من وقته ومن يومه بعد أن غاب جمال في إجازته الزوجية ، وتحول عبء العمل عليه ، لم يشعر بالتأفف ، حتى والمدير يزمجر بلا سبب ، ويطالبه بالإتقان ويهدده بالفصل إن تهاون في عمله! كان يعرف أن عمله لن يكون دائماً ، ليس لأن المدير الجديد قد يفصله في أي وقت ، إنما لأنه يعرف بحاسته الخاصة أن ثمة مهمة تنتظره ، وأن جعفر الذي بدا لطيفاً في الأيام الماضية يحضر له شيئاً مخيفاً! كان يكتب التقارير بالحماسة نفسها الذي بدأ بها ، لأنه لا يسمح أن يشك أحد في أدائه ، فقد دخل إلى الدائرة ولن يستطيع الخروج منها باستقالة ، كل من يدخل هذه الدائرة يخرج منها ميتاً ، كما قالها له نبيل وهو يرمقه بنظرة حادة ويتناول التقرير منه . ولم تكن تهمه هذه التفاصيل وقد أصبح يقضي مساءاته في بيت السي الطيب الذي تعود عليه ، وعلى

خجله وارتباكه وعينيه اللتين لا يرفعهما عن الأرض ، تلك ميزة الشاب المهذب والأصيل في نظر «الطيب» ، الذي كان يجد في حواراته العادية مع لخضر شيئاً ممتعاً . سأله عن أسرته فوجد نفسه يخترع حكاية عن القرية البعيدة التي سكن فيها أهله في إحدى مناطق الجنوب . قرية نائية لم تصلها الكهرباء ، مع ذلك حرص لخضر على الدراسة والنجاح . كان يريد أن يكون مميزاً برغم الفقر وضيق اليد ، قال بصوت أراده صادقاً :

ـ لا أذكر أمي لأني لم أعرفها ، فقد ماتت وأنا طفل صغير!

وشعر سي الطيب بتعاطف صادق مع ذلك الشاب النحيف عميق النظرات . فكر أن ذلك الحزن القابع في عينيه جزء من حكايته التي بدت غارقة في الأسى ، خصوصاً ولخضر يحكي عن مرض والده ثم وفاته . سأله السي الطيب :

ـ أليس لك إخوة؟

ـ كانت عندي أخت توفيت بعد إصابتها بالحمى ، كنت في الخامسة عشرة عندما ماتت!

ـ وهل تزور قريتك بين الفنية والأخرى؟

ـ طبعا أزورها فأنا لا يمكنني نكران أصلي وأهلي هناك!

ابتسم «الطيب» ابتسامة راضية وهو ينظر إليه بود . قال له أخيراً :

ـ الرجل من يصنع نفسه يا بني . . البركة فيك أنت شاب والمستقبل أمامك!

تلك الحوارات البسيطة حد الملل ، ممزوجة بالكذب المنمق . كان لخضر يكذب عن حاجة إلى قول أشياء يريد قولها ، وتفاصيل يتمنى لو كانت حقيقية! كان يشعر أنه يرسم في مخيلة «الطيب» شخصية إنسان لا علاقة له به ، إنسان طيب وعصامي ومجتهد ومهذب ، يعتمد على نفسه

وليس على أحد! تلك الصورة التي ترضي دائماً شخصاً مثله ؛ لأنه يرى في هذه النوعية من الشباب الأمل الجميل للوطن ، فهل يمكن بناء وطن دون شباب فاعل يعتمد على نفسه ولا يستسلم للإحباطات؟ شباب يرى في العلم الوسيلة في محاربة الفقر والجهل؟ قال له وهو يودعه :

ـ لقد أصبحت عزيزاً علي وعلى زوجتي! أسعد برؤيتك دائماً .

قالها له كما تقال المجاملة قبل الوداع! فكر لخضر كثيراً بعدها عن تلك الزيارات التي قادته إلى ذلك البيت الشريف . لم تكن تحمل عناوين مفهومة ، فهو لم يكن مقرباً قط من المدير قبل الواقعة ، مع ذلك صار مقرباً منه بعدها . كان لخضر يستغل انشغال الجميع عن السي الطيب وانقطاعهم عنه ليسد ذلك الفراغ . حتى جمال لم يسمعه يتكلم عن المدير سوى بعبارة «كان» المليئة بالإجحاف ، والجحود . ألم يكن هو المخلص الوحيد في تلك الفترة؟ مع ذلك لم يكن يعرف لماذا كان يذهب إلى هناك ، ربما كان يبحث عن أب يستقبله بحرارة وأم تحمل القهوة إليه مبتسمة بصدق ظاهر ، وفتاة ترمقه بين الحين والآخر بنظرات لا تخلو من أسئلة . ، لأول مرة في حياته يشعر أنه لم يكن مجبراً على فعل شيء يفعله بكامل إرادته . حتى الأشياء التي يحملها في يده يشعر أنها جزء لا يتجزأ من واجب جميل يقوم به ، إلى أن وجد نفسه دون أن يدري يطلب من السي الطيب يد ابنته! هل كان واعياً يومها وهو يجمع شجاعته بين يديه ويلمح للسي الطيب برغبته الزواج من ابنته؟ لم يكن يعرف لماذا فكر فجأة في طلب يدها ، ربما لأنه لم يفكر كثيراً ولم يخطط للوصول إليها! شعر بوخز وهو يفكر في أنه كان يريد نجاة زوجة له ، ولم يكن يهم بعدها من تكون تلك النجاة! نظر إلى سي الطيب نظرة عميقة وهو يضيف :

ـ أنا كما ترى لا ينقصني سوى زوجة صالحة . أرجو أن أجدها!

ـ ستجدها إن شاء الله ، فأنت شاب يستحق كل خير!

نظر «الطيب» إلى لخضر نظرة طويلة وهو يفكر في كلامه . كان يحلم لابنته بشخص طموح ، يرفعها إلى الأعلى ويصنع منها إنسانة سعيدة تنسيها إعاقتها ، وتنسيها نظرة الناس إليها . كان يعي أن ابنته متألمة لأن لا أحد طرق بابها ، ولأن قريناتها تزوجن ، أغلب صديقاتها صرن أمهات ، وهي قابعة في زاوية غرفتها تنتظر شخصاً قد ينظر إلى روحها وينسى إعاقتها المزمنة! تنهد وهو يحاول تغيير مسار الحديث ، لكنه بقي يفكر في ابنته الوحيدة بإحساس أن عريساً في اليد أفضل من عشرة على الشجرة! يومها عاد لخضر إلى بيته حزيناً . لم يكن يعرف لماذا استولت عليه تلك المشاعر الحزينة ، فوالد الفتاة لم يرفضه ، بل شعر في عينيه أنه قابل للموافقة ، وأنه مستعد لتزويجه من ابنته ليتخلص من عبئها ، نظر إلى نقطة غامضة في السقف وتنهد بعمق . شعر أنه ارتكب خطأ لا يقدر على التراجع عنه . خطأ يمكن أن يؤخره ولن يقدمه . كان مستاء من فكرة سخرية الآخرين منه . سيضحكون قائلين : «هذا هو العدل في القسمة ، فأنت لن تتزوج من أميرة ولا من سيدة مجتمع ، بل من فتاة عرجاء!» ، هل كان يحتاج إلى سخرية إضافية لحياته؟ فكر ملياً كيف تجرأ وطلب يدها؟ وتمنى في قرارة نفسه لو ترفضه ، لو تقول إنها لن تتزوج شخصاً عادياً ، وإنها تريد شخصاً أفضل منه! فكر أنه سيقول لها وقتها : معك حق في انتظار الأفضل ، لأني لست الأفضل! غضب من فكرته وهو يقف على قدميه . كيف يمكنها التجرؤ على رفضه؟ هل يمكن أن ترفضه حقا؟ فتح النافذة وتنفس ملء نفسه . كان الشارع هادئاً ، شعر أنه حزين كهذا الليل الخالي من الفرح! فكر في نجاة الأولى التي ما زالت تحتفظ ذاكرته بأدق تفاصيل وجهها وصوتها ونظراتها المليئة بالضوء . أحس بغصة وهو يغلق

النافذة بقوة ويعود إلى سريره غير قادر على النوم! تقلب لساعات في فراشه وفجأة فكر في شيء شعر أن عليه القيام به لأجل نفسه ، لأجل ذاكرته الموجوعة ، ولأجل قلبه الكئيب! لأول مرة منذ سنين يجد نفسه يذهب إلى حيه القديم . هل يمكن أن يتعرف عليه أحد لو رآه اليوم؟ لن يعرفوه ، فقد تغير كثيراً . صار أكثر قسوة في نظرته إلى الآخرين . تعمد أن يلبس أجمل ما لديه ، وأصر أن يلبس حذاءه الجديد ، الأسود اللامع . شعر أن للحذاء قيمة خاصة عنده ، فهو لا يشعر بأنه نظيف إلا حين يلبس حذاء جديداً . نظر إلى الأحذية التي اشتراها ، بعضها لم يلبسها إلا مرة أو مرتين ، وكان يجد في شراء حذاء جديد إحساساً غريباً بالنشوة تشبه العلاج لروحه! ظل ينظر إلى حذائه أكثر مما نظر إلى نفسه في المرآة قبل الخروج . تساءل : هل تغير الحي كما تغير هو؟ وهل سيعود محطماً أم منتصراً ومبتهجاً؟ كان يدرك أنه يغامر هذه المرة لأجل شيء أراده لنفسه ، ربما ليتحسس ضغط قلبه وذاكرته ، ولينظر إلى وجهه في المرآة عند رجوعه إلى البيت قائلاً : «انتصرت عليهم جميعاً!»

هل انتصر حقاً؟ قالها في نفسه وهو يدخل الحي بخطوات أرادها واثقة وثابتة . استغرب وهو يرى الكم الهائل من المحلات التي لم يتوقع وجودها هنا . لفت انتباهه مقهى مفتوح على أصوات صاخبة ، واستغرب وجود المقهى هنا . كان هذا المكان يجلس فيه أقرانه من أبناء الحي يحلمون بالهرب من البلد . دخل دون أن يلقي تحية على أحد ، وإن التفت إليه البعض إلا أن الذين كانوا منشغلين في لعب «الدامة» لم يولوه أي اهتمام . تقدم منه شخص يسأله ماذا يشرب ، ونظر لخضر إليه محاولاً تذكره ، لكنه لم يستطع .

- قهوة!

قالها بصوت جعل الخادم ينسحب دقيقتين ليعود بفنجان القهوة وهو يسأله :

- هل تريد شيئاً آخر؟

ولم يرد عليه ، تناول الفنجان وقرّبه من شفتيه . ظل النادل ينظر إليه قبل أن ينسحب ، لاعناً هؤلاء الرجال الذين يعتقدون أنفسهم أهم من غيرهم . نظر لخضر إلى الناس حوله ، واكتشف أنه لم يتعرف على أيّ منهم . أيعقل أن الناس تغيروا أيضاً؟ لقد تغير المكان كثيراً . أقبل النادل نحوه بفنجان من الماء وانتظر لحظة قبل أن يسأل السؤال الذي ظل يتردد على شفتيه :

- هل تبحث عن أحد يا سيدي؟ ربما أساعدك؟

رفع لخضر عينيه إليه وقد بدا الاستغراب على محياه :

- ماذا تقصد؟

رد النادل بصوت خافت :

- إن كنت من الأمن فأنا لا أريد مشاكل في هذا المقهى ، يمكنني أن أدلك على أي شخص دون إثارة الفوضى هنا!

- شرطة؟

- ألست من الأمن؟

- لا . . أنا عابر سبيل لا أكثر!

واصفر وجه النادل وهو يمسح على جبهته قبل أن يرد :

- أرجوك أن تعذرني . رجال الشرطة يأتون باستمرار إلى هنا واعتقدتك واحداً منهم . المهم أنا تحت أمرك في أي خدمة طالما أنت عابر سبيل!

- لقد تغير الحي كثيراً . لم أره منذ سنوات طويلة .

قالها لخضر فجأة وهو يرتشف قهوته . سحب النادل كرسياً قريباً وجلس وهو يقول بابتسامة كبيرة :

ـ كل شيء يتغير حتى العباد! هل كنت تسكن في هذا الحي؟

ـ لا ، كنت أزور بعض الأصدقاء منذ زمن ، ومنذ سافرت إلى الخارج انقطعت أخبار البلاد عني تماماً!

ـ العديد من الناس غادروا الحي منذ سنوات ، وجاء آخرون ، لكن لو ذكرت لي اسم أحدهم يمكنني أن أدلك عليه . بعض السكان القدامى يأتون إلى الحي من وقت لآخر من باب الذكريات!

وفكر لخضر في أسماء وهمية وجد النادل نفسه لا يعرف كيف يرد سوى بنظرات خالية من رد . وأخيراً سأله عن العم نوح ولمعت عينا النادل وهو يقول :

ـ العم نوح الله يرحمه!

ـ مات؟

ـ منذ عام تقريباً!

ـ أذكر أنه كان يملك دكاناً صغيراً في مدخل الحي الثاني ، إن لم تخني الذاكرة!

ـ ما زالت الدكانة مفتوحة كما هي ، زوج ابنته يشرف عليها منذ وفاته ولم يغير فيها الكثير!

ـ أجل! أذكر أنه كانت له ثلاث بنات!

ـ من حسن حظه أنه زوج بناته قبل أن يغيّبه الموت!

ـ زوّج كل بناته؟

ـ أجل! الوسطى توفي زوجها في حادث سير وهي تعيش مع أمها ، والصغرى تزوجت من ضابط محترم!

وخزته الكلمة الأخيرة حد الألم . نظر لخضر إلى النادل الذي كان ينظر إليه فرحاً بالثرثرة مع شخص غريب لا يعرفه ، لكنه سرعان ما وقف عندما بدأ المكان يكتظ بالمقبلين إلى المقهى الذي بدا ضيقاً فجأة . ارتشف لخضر آخر رشفة من القهوة وضغط على أسنانه ، وهو ينظر إلى الزبائن الذين كانوا غارقين في الحديث والضجيج ، وفجأة لمح وجهاً يعرفه ، أو خيل إليه أنه يعرفه . هل يمكنه أن يعرف شخصاً لم يره منذ سنين؟ لكنه وجد نفسه ينظر إليه نظرة حادة جعلت الشاب يتلفت نحوه وينظر إليه نظرة لا تخلو من حدة أيضاً ، ثم سرعان ما مشى نحو طاولة في زاوية المكان وجذب الكرسي بعصبية واضحة ، نادى على النادل بصوت شرس . هل يعقل أنه هو؟ شعر بحزن عميق وهو يطلب فنجان قهوة آخر . . فكر في نفسه : ما الذي أتى به إلى هنا؟ هل جاء ليجرب ذاكرته؟ فكر في جملة النادل «ابنة نوح الصغرى تزوجت من ضابط محترم» ، مع أنه لم يعرفه ، إلا أنه شعر كأن النادل جرحه . رأى مجموعة من الشباب يدخلون إلى المقهى ويتوجهون نحو الزاوية التي جلس فيها ذلك الشاب العصبي ، ثم سرعان ما غادروا جميعا المقهى . وعندما اقترب منه النادل سأله بصوت أراده عادياً عن الشاب الذي خرج للتو ، قال يحاول أن يبتسم رغماً عنه :

ـ كأني أعرفه!

ـ تقصد «وليد»؟ هذا شاب شرس جداً ، لا تربية ولا يحزنون!

ـ هل هو من الحي؟

ـ أجل ، والده كان حمالاً في الميناء ، توفي قبل سنوات ، وله أخ أصغر منه!

ـ هل تقصد أنه ابن السي عثمان؟

وفتح النادل عينيه وهو يرد :

ـ هو بالذات ، لم أعرفه لكني سمعت أنه كان شخصاً طيباً وكان له ولد تركهم وهرب من البيت بسبب امرأة!

ـ بسبب امرأة؟

ـ هكذا يقول الناس! لا أحد رآه منذ ذلك الوقت ، بعضهم يقول إنه انتحر! الله أعلم!

ولم يبق النادل لينتظر سؤالاً آخر فقد ركض ليستجيب لطلبات الزبائن الذين بدا عليهم الغضب من تأخر قهوتهم . ولم يبق لخضر كثيراً . دفع ثمن الفنجانين وغادر المكان . نظر إلى حذائه الذي اكتشف أن بعض الغبار التصق به ، وأمسك منديله وانحنى على الحذاء ليمسحه ويعيد إليه لمعانه ، ثم دس يديه داخل جيب سترته ومضى . كان المطر قد بدأ يتساقط . هل يملك رداً على ضميره الذي ظل يؤنبه طوال الأيام الماضية ، ليس لأنه سمع ما سمعه ، بل لأنه ظن أنه كبر على أوجاعه القديمة ، وأنه لن يتألم وهو يسمع أشياء تخصه وتخص تفاصيله . لكنه تألم كثيراً وهو يتذكر عيني أخيه حين وقعتا عليه . كانتا باردتين . لم يعرفه ، وحتى لو عرفه فلن يغير من الأمر شيئاً . فلم يكن لخضر يشعر بشيء نحوه . كان معنيا بأشياء تعني كرامته أمام الآخرين ، في حكايات يربطها البعض بالخيبات! شعر والنادل يحكي عن الابن الهارب ، كأنه يقول له : كان أبله تجرأ على حب فتاة جميلة ومرغوبة ، وانتهى به الأمر إلى الانتحار في جهة ما من هذا الكون ! أليست تلك الحقيقة في نهاية الأمر؟ حك ذقنه براحة يده وهو يمشي . نظر حوله ، وكان خيط الشمس الأخير يختفي تاركاً المكان لليل بارد وموحش!

-١٨-

هل ينكر أنه عاش لأيام طويلة حالة قريبة إلى الانهيار ، فهم ما ينتظره منه قدره بعد أن فقد القدرة على تصديق الحياة وتسميتها بأمل الناجين من الغرق! فكر أن لخضر الذي كان مرتبطاً بذاكرته قد مات ، مات منذ زمن بعيد ، وأن العودة إلى تفاصيله القديمة تشبه الخيانة في حق حاضره الذي لن يسمح له بالالتفات نحو الخلف . هل كان سيتغير لو لم يقتل ذاكرته القديمة؟ تلك الذاكرة المليئة بالتفاصيل الموجعة . كان عليه أن يقتنع أنه ولد منذ أصبح سيداً في نظر من لا يعرفه . كان يريد أن يتحرر من كل ما يربطه إلى الخلف . كان يريد أن يتقدم ، خصوصاً وهو يمارس عملاً يؤمن أنه عمله الوحيد المتبقي له لأجل أن يتغير ، كيفما كان ذلك التغيير فلا يهم ، المهم أن يكبر ويصبح سيداً حقيقياً! لكن الأمل بدا مكسوراً وجعفر ينظر إليه في أحد المساءات نظرة غريبة ، قبل أن يتبسم تلك الابتسامة الصفراء التي يكرهها :

ـ وأصبحت عاشقاً أيضاً؟

قالها له بضحكة ساخرة حد الوجع ، وابتلع لخضر ريقه ، لم يفهم في البداية إلى ما يرمي إليه جعفر ، الذي ظل ينظر إليه طويلاً قبل أن يضيف أخيراً :

ـ ترددك المستمر على بيت المدير أثار فضولي أنا شخصياً ، لكني لم

أستغرب أن يقع شخص مثلك في حب امرأة عرجاء! تبدو الصورة مكتملة ومقنعة!

قالها ضاحكاً وهو يتناول سيجارة ويشعلها بعود ظل محتفظاً به حتى اقتربت النار من إصبعه ، أطفأه ورماه بحركة مسرحية قبل أن يضيف :

ـ إياك أن تظن أن مراقبتك للآخرين معناه إفلاتك من المراقبة!

واصفر وجه لخضر ، واغتنم جعفر ذلك الشحوب لتتسع ابتسامته أكثر سخرية مضيفاً :

ـ في البداية فكرت أن فعلتك تلك تستحق العقاب! لكنني بعد تفكير وجدت أن فعلتك تلك يجب أن تتحول إلى تقرير بخط يدك كما العادة!

نظر لخضر إليه بشحوب أكبر ، تبعه بعينه وهو يقف ويغادر مكتبه الصغير ليقترب منه . وضع يده الثقيلة على كتفه وقال :

ـ الأوامر هي هذه . . بدخولك إلى بيت المدير سهلت علينا تعب التفكير في خطة سوازية! الأوامر يا عزيزي جاءت من فوق كالعادة . تقاريرك عما يجري في بيت المدير تسلم بانتظام إليّ شخصياً لأسلمها إلى المسؤولين .!

قالها وهو ينظر إليه بعينيه الباردتين . ابتسم من جديد وأضاف :

ـ للمدير قريب يعمل في الصحافة ، ويحشر أنفه دائماً في الأمور التي لا دخل له فيها . يريد أن يكون بطلاً على حساب غيره ، وهو يزور المدير كل نهاية أسبوع منذ مرضه . نعرف جيداً أن علاقتهما جيدة ، وما نريده هو معرفة الأشخاص الذين يسربون للصحفي تلك الأخبار التي ينشرها . يعني نريد أسماء مصادره . هذا كل ما عليك القيام به!

ـ لكنني لست مخولاً للدخول إلى بيت المدير باستمرار ؛ فأنا لم أزره منذ مدة!

ـ ستزوره ثانية ، أم أنك نسيت بأنك طلبت يد ابنته!

بحلق لخضر في محدثه بعينين جاحظتين . يا إلهي . قالها في نفسه وهو يتحسس قلبه الذي كان يدق بقوة شديدة .

ـ مثلما قلت لك : إياك أن تظن أن مراقبتك للآخرين معناها إفلاتك من المراقبة!

ودون أن ينظر إليه أضاف :

ـ اذهب الآن ، ولا تنس التقارير الجديدة!

طأطأ لخضر رأسه وغادر المكتب وهو مازال ممسكاً بالتقرير الذي حمله معه ليسلمه إلى نبيل الغائب منذ أيام ليجد جعفر جاهزاً لإذلاله . شعر بغضب عارم يصعد إلى أنفه ، واندفع خارجاً بسرعة . مشى طويلاً شارداً في كلام جعفر . هل يراقبونني؟ قالها في نفسه وهو يتلفت حوله بذهول واضح . كان يشعر أنه محبط لأنه لم يتوقع ما سمعه ، ولأنه لم يكن يرغب في كتابة تقارير عن المدير بعد أن تسبب في إيذائه دونما سبب . فكر أن المطلوب منه يتجاوز المنطق ، بعد أن اكتشف اللعبة القذرة التي وظفوه فيها! كان يعي أنه لن يبذل جهداً في صياغة تقارير جديدة عما يجري في بيت المدير ، ولكنه فكر أن الأمر لم يعد يروقه! هل يمكنه خيانة رجل فتح له بيته وقلبه؟ قالها في نفسه وهو يتنهد . . كان يشعر أنه بدأ يضجر من عمله الذي تحول إلى حبل التف حول عنقه . كان لخضر غاضباً جداً من جعفر الذي راقبه في الأيام الماضية ، ولعله يراقبه دائماً . شعر أنه لم يعد حراً ، وأن حريته الغالية التي ضحى في سبيلها بأسرته ولأجلها أطلق النار على أشخاص لا يعرفهم ، ونجا بجلده من العقاب لا يمكنه التفريط فيها . شعر بخوف يتسلل إليه وهو يتأمل في الأشياء حوله ، ثم توقف غير بعيد عن ميناء العاصمة . توقف يتأمل البواخر المغادرة ، وشعر

بغصة في قلبه وهو يتذكر حلمه الأول في الرحيل . هل كان سيتغير حقاً لو رحل؟ لو نجح في مغادرة هذا المكان المغلق على اليأس والخوف والضغينة؟ ربما لو هرب ، لشعر بطعم الأشياء المختلفة في مدينة تعرف جيداً أنه جاءها غريباً وسيموت فيها غريباً . مدينة لم تكن له ولن تكون له ، لكنه وصلها لأنه هرب من مدينته التي تفننت في قتله! لكنه لم يهرب ، ولم يرحل . . بقي ها هنا منتظراً ذلك الشيء الذي يشبه المعجزة ، ليخرجه كمارد من داخل قارورة عتيقة أُلقي بها قبل ألف عام! فكر أن عليه التفكير في مصيره قبل أن تبلعه الكارثة . عندما ذهب في اليوم التالي إلى عمله وجد الشرطة منتشرة في كل مكان . عرف أن ثمة شيئاً خطيراً يبدو جاهزاً ، وقد نبهه جمال قبل يومين إلى أن الصدامات بين الإسلاميين والشيوعيين في الجامعة قابلة للتجدد بعد مشادات كلامية وقعت بين إبراهيم وأحد اليساريين انتهت بالتشابك باليدين . يومها ، نظر إلى جمال وهو ينتظر بقية الحكاية ولكنه لم يضف شيئاً ، كأن القصة انتهت هنا! قبل نهاية الدوام قال له كأنه تذكر شيئا خطيراً :

- لقد علمت من أحدهم أن إبراهيم أرسل إلى الطالب الذي تشاجر معه رسالة تهديد بالقتل!

- رسالة تهديد بالقتل؟؟

- نعم . المشكلة أن «إبراهيم» له قريب يعمل في منصب مهم ، والطالب الشيوعي له عم يشتغل في منصب مهم بالداخلية ، ويمكن أن تتحول تلك المناصب إلى سبب آخر للفوضى! قد تندلع الحرب بين الكبار أيضاً!

لكم كان صائباً في وصفه البسيط ، قالها لخضر وهو يبتسم ابتسامة صغيرة . لكن الحرب تبدو مندلعة هذا الصباح! قالها في نفسه وهو يخطو

نحو البوابة الرئيسية للدخول قبل أن يوقفه رجال الأمن ، وعندما شرح له أنه يعمل في الجامعة سمح له بالدخول . مشى بخطوات سريعة كمن يهرب من شيء ، وإذ به يلمح رجال أمن بلباس مدني منتشرين في ساحة الجامعة . وقف مكانه مذهولاً قبل أن يلمح جمال الذي كان واقفاً مشدوهاً وشاحباً .

ـ ما الذي يجري؟

ـ قتل أحد الطلبة أمس ليلاً

قالها وهو ينظر إلى عيني لخضر نظرة مرعوبة وأضاف :

ـ لقد قتل إبراهيم الطالب اليساري الذي تشاجر معه أول أمس . قتله وهرب!

ـ متى جرى هذا؟

ـ أمس ليلاً في الإقامة الجامعية ، حدث صدام كبير بين الطلبة انتهى بالقتل ، الشرطة تحقق مع الجميع!

ـ لكن الجريمة لم تقع في الجامعة!

ـ إنهم يحققون مع الجميع وفي كل مكان ، ويفتشون القاعات معتقدين أن إبراهيم مختبئ فيها!

ـ وهل يمكنه أن يختبىء في القاعات؟

ـ كل شيء ممكن . لقد انفلتت الأمور!

بقي لخضر صامتاً يفكر في كل ما يجري . لم يشعر بأن الأمر يستحق كل هذا البحث ، خصوصاً عندما ذهب مساء إلى المركز ليسلم تقريره الجديد ووجد إبراهيم يرتشف قهوة مع بعض الأشخاص . صعق أول الأمر ، ثم حرص على ألا يلفت الانتباه وهو يتسلل إلى الجهة اليمنى من الممر . لكنه سمع ضحكة إبراهيم المجلجة التي أشعرته بالخوف الشديد .

هل هذه تفاصيل اللعبة التي لم يستوعبها تماماً في وقتها؟ لكنه استوعبها الآن وهو يلمح جعفر يمسك بذراع إبراهيم ويجره إلى أحد المكاتب بعصبية واضحة . فهم أن إبراهيم ارتكب حماقة الوجود مع أشخاص آخرين في هذا المكان ، وكان عليه الاختفاء إلى أن يتم نقله على متن شاحنة إلى المكان المعد له مسبقاً ، لقد انتهت الجامعة بالنسبة إليه بجريمة قتل ، والشرطة التي نشرت صوره في كل مكان أعطته سبباً آخر للشهرة ، بتحوله فجأة من طالب جامعي ملتزم في نظر زملائه إلى بطل قومي ؛ لمجرد أن غرس خنجراً في بطن زميله اليساري الملحد الكافر! أليس هذا ما قاله فريد في اليوم التالي وهو يحيي زميلهم الغائب الشجاع؟ وهتف بقية زملائه فرحين : الله أكبر . الله أكبر! كانت الحرب قائمة ومفتوحة على كل الاحتمالات!

تلك الحقيقة التي يعرفها كافية ليشعر بالرعب . . أدرك لخضر أن تقاريره التي يكتبها عن الجامعة لم تعد مهمة ، فقد انفلتت الأوضاع والمدير بدأ يستنجد بالشرطة صباحاً ومساءً ، حتى المسكن الجامعي الذي يقيم فيه الطلبة الوافدون من المناطق البعيدة لم يعد آمناً ، على الرغم من إسراع مدير المسكن الجامعي إلى فصل الطلبة اليساريين عن الإسلاميين ، بل ونقلهم إلى إقامات أخرى لتجنب المشاكل ، جالباً إلى ذلك المسكن طلبة متعاطفين مع إبراهيم وأكثر رغبة في الثورة . لم يعرف أحد أن الكرة المتدحرجة من أعلى الجبل كانت تكبر وتكبر وتكبر ، وأن سقوطها سيكون مدوياً! كان خائفاً والتوتر يسود كل مكان ، حتى وهو يذهب لزيارة سي الطيب بعد أسبوع من الاختفاء المفاجئ . قال له مرحبا به :

ـ شغلت بالنا يا بني . أرجو أن تكون بخير!

وأخذ لخضر المقعد الذي تعود على الجلوس عليه . كان متعباً وهو يرد

على الأسئلة العامة عن الصحة والأحوال، وعندما سأله المدير عن الجامعة نظر لخضر إلى محدثه نظرة عميقة وقال:

ـ تبدو الأمور خطيرة فعلاً!

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد قتل أحد الطلبة على يدي زميله!

قالها لخضر بصوت خافت، وشحب وجه المدير الذي ظل يبحلق في محدثه مشدوهاً. فكر لخضر أنه ما كان عليه أن يخبره بالحادثة بتلك الطريقة الجافة!

ـ ما الذي جرى بالضبط!

وحكى لخضر القصة كما أراد أن يحيكها. لم يكن يشعر بأي تعاطف نحو المجرم ولا نحو القتيل وهو يحكي عنهما بالنبرة نفسها، وبالحدة نفسها. كان يسرد قصة نسج بعض خيوطها من مخيلته. قال وهو يحاول أن يكون دقيقاً:

ـ أصبح الطلبة في حالة هيجان شديدة، يريدون تحقيق مطالبهم أو الثورة!

ـ هل تستدعي المطالب جريمة قتل؟ هل ثمة من يمكنه تبرير جريمة القتل؟

قالها سي الطيب بصوت محبط، والتفت لخضر إلى الباب الذي فتح، لتظهر السيدة العجوز بصينية القهوة ممزوجة بترحيب حار. شعر لخضر بالخجل وهو يتناول منها فنجان القهوة ويشكر السيدة التي انتبهت إلى حالة زوجها الشاحب. لكنها لم تسأل، خرجت بالهدوء نفسه الذي دخلت به، وكأن لخضر استغل صدمة السي الطيب راح يسرد عليه بقية القصة وهو يحكي له عن اسم القاتل وهربه، حيث لم تعثر الشرطة عليه،

والقتيل الذي توعد عمه بالانتقام!

ـ سوف يتحول الانتقام إلى خسارة محمولة على الأكتاف!

وتجردت الزيارة من الأحاديث المفرحة . كان السي الطيب مكتئباً طوال الوقت ، وكأنه يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً ، أحس لخضر أنه سبب تلك الكآبة التي بانت عليه ، فكر في الاستئذان عندما نظر إليه هذا الأخير نظرة عميقة وقال له فجأة :

ـ ألا تريد أن تعرف الرد على طلبك الأخير؟

وارتبك لخضر كثيراً . لم يأت ليعرف الرد ، اعتقد أن حجم التفاصيل المأساوية التي حملها إليه ستنسيه الحديث عن طلبه الأخير . قال بصوت مرتبك :

ـ أنا مستعد للانتظار إلى أن يتم الوصول إلى قرار!

ـ الأمر لا يحتاج إلى وقت يا بني . . أنت شاب جيد ، ولن أرفض شخصاً يدخل البيوت من أبوابها!

وازداد ارتباك لخضر إلى درجة كبيرة ، وهو ينظر إلى عيني السي الطيب الذي أضاف بالصوت نفسه :

ـ أنا لا مانع عندي وكذلك أم نجاة . .

وتمنى فجأة لو كان لنجاة مانع! فكر أنها لو رفضته فسوف يذهب إليها ليشكرها على ذلك ، لأنه لن يشعر أن كرامته جرحت وأنه ضحية رفض مفاجئ جاءه من فتاة عرجاء! بل سيكفي أن يشكرها ليعرف مقدار قيمة أن ترفض التورط معه في علاقة غير سوية . في الأيام الماضية كان يفكر في احتمال الرفض بنفس أمله فيه . كان يشعر أنه بحاجة إلى رفضها كي يرتاح من ورطة أوقع نفسه بها ، فقد أدرك أنه لن يكون سعيداً معها ولا هي معه! وإن بدت له الصورة مثيرة للسخرية فقد زادته يقيناً أنه بحاجة

إلى التملص من الورطة ولو بالتأخير . . ولو بالتأجيل! قال يحاول أن يجمع صوته :

ـ إن كانت الآنسة نجاة تريد مهلة أطول فهذا من حقها . كما أن رفضها لن يؤثر على مشاعري الطيبة نحوكم . كل شيء قسمة ونصيب!

ونظر السي الطيب إليه نظرة مليئة بالمودة ، شعر أن رأيه يزداد تأكيداً بأن هذا الشاب أصيل فعلاً . قال يبتسم ابتسامة صغيرة :

ـ لا هذا ولا ذاك . . حتى نجاة ليست رافضة!

دهش لخضر أول الأمر ، ثم شعر بالخيبة ، ولعل خيبته ظهرت على وجهه سرعان ما كتمها بابتسامة خجولة وهو يقول :

ـ هذا شيء يسعدني يا عمي الطيب!

كان السي الطيب مرتاحاً وهو يصافحه قبل مغادرته . لم يتكلما عن تفاصيل أخرى ، كان يعرف أن الموافقة هي أهم التفاصيل ، وأن القادم سيكون جيداً بالنسبة لابنته التي قبلت به دون نقاش ولا تساؤل . كان يعرف أن ابنته تتمنى الزواج من شخص يرعى إعاقتها ولا يحمّلها سببها . فلم تكن الفتاة جميلة كي يغطي جمالها على إعاقتها ، كانت عادية جداً ، إلى درجة أن لا أحد تحدى المنطق وتقدم إليها على الرغم من احترام الجميع لوالدها ولسمعتهم في المنطقة ، وهو ما جعلها تشعر أنها مجروحة في كيانها . فهي لم تحلم برجل غني ولا وسيم ولا خارق ولا استثنائي ، حلمت برجل مثلها ، بسيط وحقيقي يتعايش معها وتتعايش معه ، كيتيمين ليس لهما مناص من البقاء معاً! هل كان يحلم بزيجة جاهزة على طبق؟ كان يدرك أن علاقة السي الطيب به صادقة وقائمة على الاحترام ، لكن علاقته هو بالسي الطيب لم تكن في الحقيقة مبنية على شيء ، سوى على القدر . فكل شيء صار قدراً بالنسبة إليه ، بما في ذلك

الزواج الذي أصبح تحصيل حاصل. لكنه في النهاية سيكون قريباً جداً من ذلك البيت، وسيتسنى له القيام بالمهمة التي عليه القيام بها. فكر طويلاً أنه لن يقدر على الاستمرار بهذا الشكل في عمله، ولن يقبل أن يكون دائماً تحت أمر جعفر بمزاجه المعكر وتهديداته المغلفة، فكر أن عليه أن يتحرر من الخوف ويغير حياته فعلاً، ويصبح سيداً! ألم تكن تلك الفترة بداية الحياة بالنسبة إليه؟ لن ينسى وقتها قراره بالتغيير، حتى وهو يلتقي بقريب السي الطيب بعد يومين من ذلك اللقاء الذي تواعد فيه سي الطيب مع نسيبه الجديد على تحديد الموعد المناسب للخطبة. لم يكن يعلم لخضر أن الرجل الجالس بذلك الهدوء قبالة سي الطيب هو قريبه الصحفي المشاغب، حتى وهو يصافحه. شعر أنه أمام شخص لا يستهان به، ربما لأنه طوال الوقت ظل ينظر إليه كأنه يبحث في أعماقه عن شيء يدله على حقيقته. لم يكن مرتاحاً له، حتى وهو يبدو طبيعياً في الحديث والرد على الأسئلة التي بعضها كان خاصاً والبعض الآخر عاماً. قال السي الطيب كأنه شعر بتوتر لخضر:

- يا سي الباهي، كل شيء يتغير حتى البلد تتغير!

رد الباهي وهو يبتسم نصف ابتسامة:

- معك كل الحق، البلد تتغير ويجب أن تتغير نحو الأفضل!

ثم نظر إلى لخضر وراح يطرح عليه أسئلة عن قراءاته الصحفية وعن مطالعاته. ذلك الفخ الجاهز الذي كان يحاول نصبه له. لكن لخضر تحجج بالوقت وهو يعترف أنه لا يقرأ الجريدة، وأنه أحياناً يفتح الجريدة على الصفحة الأخيرة ليحل الكلمات المتقاطعة! وابتسم الباهي وهو ينظر إليه. فكر أنه شاب غريب، وأن ملامحه البسيطة توحي أنه بسيط، لكنه كان مجذوباً إلى تينك العينين العميقتين المثيرتين. كان يشعر أن عينيه

تناقضان ملامحه ، ففي عينيه يمكنه قراءة أشياء كثيرة . يمكن أن يشعر بمجرد النظر إلى عينيه أنه أمام شاب لا يقول الحقيقة وإن قالها يقول نصفها الأجمل ، وهذه صفة غير محببة في شاب في مثل عمره! كان يفضل الاعتقاد أنه شاب بسيط وبائس يبحث عن الستر في الحياة على التفكير أنه غير ذلك! لكن سرعان ما شعر بالذنب وهو يفكر أن حذره الشديد وحرصه جعل الجميع محل شك بالنسبة إليه . ابتسم ابتسامة عريضة وهو يتناول معه حديثاً مختلفاً عن الأوضاع طالباً رأيه في الموضوع! هل كان لخضر يملك مناصاً من انتقاد الأوضاع؟ كان يشعر أنه صادق في كل كلمة قالها ، وهو يتكلم عن خيبة أمله الشديدة إزاء ما يجري . عن خوفه الشديد من انفلات الوضع في الجامعة . خوفه من وصول الصراع الشارع . . سأله الباهي فجأة :

ـ من يستفيد من كل هذا في النهاية؟

أحس لخضر بالعرق يتصبب منه وهو يرد :

ـ لن يستفيد أحد من الكارثة لأنها ستحرق الجميع!

ـ هذا لأنك لا تعرف ما يعرفه أمثالنا يا بني! الدولة هي المستفيدة ولا أستبعد أنها وراء هذه الفتنة الأخيرة لأجل جعل الشعب ينشغل عن مشاكله! عندما يتوقف الشعب عن المطالبة بحقوقه فتلك هي الكارثة!

ولم يعلق لخضر بشيء ، ولا السي الطيب مع أنه كان يبدو مدركاً لما رمى إليه ضيفه . أضاف الباهي بصوت مليء بالغرور!

ـ أنت صغير على هذه الأمور الكبيرة يا بني ، مع ذلك أشفق على جيلكم من كل هذا الحرمان!

هل كان جاداً أم كان يسخر بطريقته الصحفية؟ لم يكن الباهي من النوع الذي يمكن أن تنساه بسرعة . كان يبدو حاضراً جداً في حواره وصوته

القوي ونظراته المليئة بالكلام ، بجسمه النحيف وطوله الفارع . . كان يبدو كشجرة جففتها الأيام ، مع ذلك كانت له نظرات مليئة بالحياة ، وحركاته سريعة بحيث إنه لا ينطق كلمة دون استعمال يديه كأنه يتكلم مع أشخاص فاقدي السمع! وإن شعر لخضر أنه خرج من تلك الجلسة منتصراً إلا أنه أحس بشيء غريب وغير مريح نحو ذلك الرجل ، الذي يعتقد أنه قادر على تغيير الكون بقلمه! قال له السي الطيب بعد ذلك إن الباهي أعجب به ، وتلقى لخضر هذه الجملة بصمت كامل ، فقد قرر أن الانطلاقة قد بدأت!فكر لخضر فيما بعد في الحظ الذي حالفه ، فقد استطاع أن يكسب ثقة الباهي أيضاً ، كان واضحاً أن علاقة هذا الأخير بالسي الطيب جيدة ، كانت الحوارات بينهما لا تخلو أحياناً من شفرات يفهمانها معاً ولا يفهمها لخضر . فيشعر هذا الأخير بأنه ما يزال غريباً ، ولم يضايقه ذلك ، فقد تعلم الصبر ، ربما لأنه يدرك أن الفرج صار قريباً! ولم ينتظر كثيراً ليرى أول خيوط الفرج ، بعد أن صار أكثر قرباً من السي الطيب الذي شعر أنه عوض به الابن الذي لم ينجبه .

لم يكن لخضر يبخل على السي الطيب بأي شيء ، كلما زارهم حمل إليهم ما يراه جزءاً من الحفاوة التي أراد أن يعطيها لمضيفه ، وكان يجد السي الطيب في ذلك شيئاً استثنائياً يقارب البهجة . حتى ابنته صارت أقل توتراً في وجوده ، هي التي رفضت أكثر من مرة اقتراح والدتها أن تجلس إلى الرجل الذي سيتزوجها ، كأنها خائفة من شيء غامض . . ربما من نظرة شفقة في عينيه ، فهي تدرك أنها ليست جميلة ولا مرغوبة لمن يطلبها للزواج ، لكنها وجدت فيه شيئاً جميلاً ربما في ملامحه الغارقة في الحزن ، وفي عينيه العميقتين . أحست أن أهم ما يميزه عن الآخرين هما عيناه العميقتان ، كأنهما ليستا له ، بل لشخص آخر أكثر ثقة وجرأة

على النظر والقول بعينيه ما لا يقدر على قوله بلسانه . وعندما جلست معه أول مرة شعرت بالارتباك يأكل أظافرها ، وإن لاحظ لخضر ذلك إلا أنه كان أكثر ارتباكاً منها وهو يراها مقبلة بخطوات غير متناسقة مستندة إلى عكازها . فكر أن المشهد يثير الشفقة ، كأنه خارج من مسرحية غارقة في البؤس ، وعندما رأى صورته منعكسة على مرآة مقابلة شعر بالذهول وهو ينظر إلى نفسه في مرآة أخرى ، وتحول الذهول إلى إحساس غريب بالصدمة . فكر أن القدر لم يكن مجحفاً ، فقد أعطاه المرأة التي يستحقها شخص مثله ، وتلك قسمة عادية في النهاية . ووجد نفسه يفكر في نجاة الأولى . كانت جميلة ومغرية كضوء قادم من القلب . فكر أن نجاة الأولى لم تكن قسمته لأنه لم يكن يستحق فتاة جميلة ، بينما استحقها ضابط أهانه في كرامته وفي شرفه معاً! وكأنها لاحظت ذلك الحزن في عينيه طأطأت رأسها . لم تجد ما تقوله له . كانا جالسان صامتين . لا يقدر أحدهما على قول شيء يناسب اللحظة الغريبة والمجروحة . ماذا يمكن أن يقوله إنسان معطوب في كيانه لفتاة مجروحة في إنسانيتها؟ شعر لخضر أنه يشبه الرجل الذي يؤدي حسنة ليقبل دعاؤه!

- لماذا طلبتني للزواج؟

فاجأه صوتها أكثر مما فاجأه السؤال ، ولم يجد ما يقوله ، وتأخر في الرد إلى درجة أنها كادت تقف وتغادر الغرفة قبل أن يقول أخيراً :

- ولماذا لا أطلبك للزواج؟

بدا رده أقبح من عذره . شعر بالارتباك وهو يضيف كأنه يغسل جملته بالتبرير .

- أنا أبحث عن الاستقرار ، لا تهمني المظاهر . أريد امرأة أعيش معها حياة مبنية على العقل!

وشعر أنه أخطأ من جديد ، هل يمكن تبرير الزواج؟ كان يشعر أنه قال نصف الحقيقة ، وإن لم يكن يفكر في الزواج وقتها إلا أنه تورط في طلب يدها . ألم يكن الأمر قدراً أيضاً؟ قدراً صار مرتبطاً بعمله مباشرة ورؤساؤه يبدون إعجابهم بذكائه فيما يخص موضوع الزواج! لم تغب ابتسامة السخرية في تأييدهم له ، لكنه شعر لأول مرة أنه قادر على التخطيط لأجل كسب رهان آخر أهم من السي الطيب وابنته ، وأهم من الباهي نفسه . رهان إزاء ذاته ليرتقي .

ـ أنا اخترتك بعقلي!

قالها من جديد كأنه يخاطب نفسه ولم ترد . كانت منكّسة الرأس . تعرف أنه لم يخترها بقلبه ، ولهذا السبب شعرت بغصة ، لكنها فكرت أن الأمر قد يتغير ، فالحب الحقيقي يأتي بعد الزواج كما قالت أمها لتواسيها . وهي تعي أنها الحقيقة التي تشجعها على المضي في ذلك الطريق الغامض . وانتهى الحوار بينهما كما بدأ مليئاً بثغرات الصمت ومسيجاً بالخيبة والأسئلة . لم ينظر إليها حين همت بالمغادرة ، ولم يمد يده لمساعدتها وهي تنحني على عكازها لتستند إليه في مشيتها . كان يشعر أنه بحاجة إلى الإحساس أنه لم يتنازل عن أحلامه الخاصة ولو من باب التعزية! ثم جاء اللقاء الذي لم يتوقعه ، عندما وصل إلى بيت السي الطيب ليجد الباهي في كامل استرخائه وأحاديثه السياسية التي لا تنتهي . بادره بالسؤال عن أوضاع الجامعة ؛ فاعترف له لخضر أن الأمور عادت إلى الهدوء . نظر إليه السي الطيب وهو يقول :

ـ أتمنى لو كنت قادراً على الذهاب إلى هناك والحديث مع الطلبة . لكن وضعي الصحي لم يعد يحتمل انفعالات وأنا بعد في فترة النقاهة!

ـ حتى لو ذهبت يا سي لخضر فلن تغير أي شيء . ألم يبدأ العصيان

وأنت فيها؟ الأمور تبدو مشدودة إلى خيط واحد، والذين يحاولون إثارة العنف لن يتوقفوا قبل تحقيق أهدافهم!

ـ وهل أهدافهم تدمير كيان الجامعة؟

ـ الجامعة هي البوابة الإستراتيجية للمجتمع يا عزيزي، تدميرها يعني تدمير المجتمع فكرياً ومعنوياً. سيصبح الناس غير مقتنعين بالجامعة التي سيتهمونها بأنها تصنع العنف. أليس هذا ما تقوله الصحف المأجورة؟ تتهم المدارس بأنها تصنع العنف مع أن العنف موجود منذ الاستقلال!

قالها الباهي بصوت بدا حاداً، حتى خيل للخضر أنه يفجر غضبه في جمل متتالية كان بالكاد يستعيد أنفاسه من خلالها. نظر الباهي إلى لخضر وقال:

ـ هل الطلبة كلهم يثيرون العنف أم ثمة عينة منهم؟

ـ بصراحة ليس كلهم.

ـ أليس الطالب القتيل ابن قريب شخص في الداخلية؟ والقاتل ابن شخص مسؤول آخر! إنه صراع بين طبقات في الدولة أخذ طابعاً أيديولوجياً، فاليساري يظن أنه يؤدي دوراً والإسلامي يظن الشيء نفسه! لكن لا أحد منهما يعي أنه مجرد أداة بيد النظام. النظام هو الذي يحرك الخيوط يا عزيزي!!

دق قلب لخضر وهو يستمع إلى تلك الكلمات. كان يدرك أن الباهي يتحدث بمنطق الخبرة الكبيرة في عمله، فهو عاش مع الناس البسطاء والفقراء، عاش في المدينة العميقة ولم يعش على ضفاف المدينة، حيث الفيلات الفاخرة والشوارع المعبدة والخالية من الحفر والأوساخ. هل يمكن لشخص يسكن تلك المناطق الفاخرة أن يفكر في بؤس البسطاء الذين لا يجدون مساحة كافية يضعون عليها أحزانهم؟ هل يمكن لشخص لم يشعر

بالجوع يوماً ، ويسافر مرتين في العام إلى أوربا لتغيير الجو ، أن يعرف معنى الموت اختناقاً في شوارع مكتظة بالفقر والحرمان؟ كان لخضر يدرك أن الأمـــور تقـــاس بالمظاهر في هذه المدينة . كل شيء لا يمكن أن يمر دونما مظاهر ، حتى تحولت المظاهر إلى سبب للعنف! ألم يعد مخبراً لأجل ألا ينهي حياته بائساً؟ كان يعي أنه يختلف عن كل المخبرين الذين يشتغلون الشغل نفسه ، فهم يكتفون بما يقومون به ، يحصلون على راتبين في وقت واحد ، راتب من الجهة التي يرسلون إليها للتوظيف وجمع المعلومات ، وراتب من المركز الذي يوظفهم كمخبرين ، وهي رشوة تكفي لتسد فم الجميع بحيث يكتفون بأداء دورهم بأمانة وصمت . لكنه لا يريد أن يؤدي الدور نفسه طول العمر ، ويريد أن يتغير فعلاً ، ويصبح سيداً . يحلم أن يجرب مرة واحدة الشعور ذاته الذي يشعر به شخص مهم يضع حذاءه على رأس شخص أقل منه ثراء ونفوذا! هذا هو الشعور الذي يريده ، شعور التفوق والتميز والنفوذ ، حيث لا قانون فوق قانون القوة ، ولا سلطة فوق سلطة النفوذ! قال له الباهي يومها :

ـ الدولة التي تشيع ثقافة التهديم لا يمكن أن تحظى بالاحترام!

وشعر لخضر بغصة وهو ينظر إلى الباهي ، وتذكر أنه إن كان يحترم بعض أفكاره وليس كلها ، يظل هذا الباهي خطراً عليه ، فلو وصل إلى تحقيق حلمه بالنفوذ ، لن يقبل بوجود شخص مثل الباهي! وهالته الفكرة وهو يكتشف أنه لا يختلف في النهاية عن هؤلاء المهمين الذين يحاولون «تنظيف البلد» من الشرفاء! ألم يكن الطيب واحداً منهم؟ الطيب الذي انتهى بنوبة قلبية أوقفته عن العمل ومعاش ساهمت جهات معينة في تأخيره ، كأنها لتنتقم منه! حتى الأصدقاء الذين كانوا يحبونه مديراً لم يعد يزوره أحد منهم!

في تلك الفترة التي اعتبرها مهمة في حياته، استطاع لخضر أن يفك بعض الرموز التي كانت بينه وبين المدير في حواراتهم، واستطاع معرفة أسماء أشخاص يتصل بهم الباهي من هواتف عامة كي لا يتم رصد مكالمته لهم. أشخاص بعضهم يلتقي بهم في الندوات التي يحضرها أو يدعى لها للحديث عن الإعلام والناس! كانت ندواته التي قلت في السنة الأخيرة مبعث إزعاج حقيقي للسلطات، لأنه كان يخاطب الفئة المثقفة من الشعب قائلاً لهم، دوركم جاء لتغيروا! وكان يدرك أن هؤلاء الذين يخاطبهم سينهض واحد منهم لأجل التغيير! أدرك لخضر أن مقالات الباهي التي يكتبها بالفرنسية هي التي تثير الإزعاج جداً.. فكر: ألم يكن من السهل اعتقاله مثلا؟ وتذكر أن الاعتقال قد يثير الجدال أكثر مما تثيره مقالاته، وسيعطي الاعتقال للباهي بطولة قد لا يستحقها، ويجعل المتأثرين به يحاولون تعويض غيابه بمزيد من التمرد في مواقفهم! تذكر لخضر أن المطلوب منه لم يكن مراقبة الباهي، بل معرفة الأشخاص الذين يمدونه بالمعلومات التي يكتب عنها بثقة مخيفة، من كان يمده بالوثائق التي يخفيها دائماً بين أيد أمينة كما يقول، ليشهرها لو تم التعرض إليه! كانت تلك لغة جديدة ضد الأسياد، لغة الحرب المغلفة بالتهديد المبطن. لغة لم يكن ليسمح بها طويلا! وأدرك لخضر أن اعتقال الأشخاص الذين يمدون الباهي بالمعلومات يعني آلياً عجز الباهي عن الكتابة، فهو لن يتمكن من القول إنه قادر على إثبات كلامه في غياب المصادر! ألم يكن أداة الجريمة؟ جريمة قتل قلم بإسكاته؟ فكر أنه في ظروف أخرى كان سيقرأ مقالات الباهي بكثير من الفخر حالماً بالالتقاء به لمصافحته والقول له: يسلم قلمك! لكنه لا يحق له ذلك الآن، لأنه لا يريد أن يكون جزء من العامة الذين يتلذذون بالبؤس ويعجبون بالكلمات التي لا تسمن ولا تطعم

من جوع! لا يريد أن ينتهي به الأمر إلى الموت البطيء ، لمجرد أنه شريف في دولة يحكمها اللصوص والسفلة! فكر يومها أن يكتب تقريره بالكثير من المتعة ، وأن يذكر الأسماء التي صار يسمعها ، ويضع لكل اسم تعبيرات خاصة به!

لا ينسى لخضر أنه نجح في المهمة من حيث لم يكن يدري ، لأول مرة يدعوه أحد المسؤولين الكبار إلى مكتبه لتهنئته شخصياً بعد أن تم تحديد هوية أحد الأشخاص الذين كانوا يمدون الباهي بالمعلومات المهمة . كان موظفاً في مكتب الاتصالات ، ويقضي أوقات فراغه في الإصغاء إلى مكالمات المسؤولين الهاتفية ليقع على الأخبار الخطيرة والمهمة ، وينقلها إلى الباهي الذي كان يدفع له مقابل تسجيل تلك المكالمات! كان لخضر سعيداً رغم وجوم جعفر الذي أبلغه أن المسؤول بانتظاره في المكتب الواقع بالدور العلوي . لم يسبق أن زار ذلك الدور من قبل ، وشعر بقلبه يدق بقوة وهو يصعد السلم بخطوات مرتبكة . تفاجأ بالمسؤول الذي دخل مكتبه ينظر إليه بابتسامة عريضة ويدعوه للجلوس . قال له بصوت بدا لطيفاً وودوداً :

ـ العمل الذي تقوم به يدعو إلى الإعجاب حقاً!

ـ هذا واجبي يا سيدي!

وابتسم الرجل الذي لاحت سن فضية يسار فكه العلوي ، ثم تلملم على الكرسي الذي أثار صوتاً بسبب الجسم الثقيل الجالس فوقه ، فقد كان الرجل بديناً بجسمه العريض الذي يكاد يفيض على المكتب ، شعر لخضر بالخوف والرجل ينظر إليه نظرة حادة على الرغم من ابتسامته التي لم تغادر شفتيه :

ـ واجبك يستحق الإشادة إذاً!

قالها وهو يتناول سيجاراً فخماً من أمامه . أشعله بسرعة ونفخ الدخان

باسترخاء، وعاد للنظر إليه وهو يفكر في نفسه : هذا الشاب إما مخلص وإما خبيث! كان الرجل المهم قد قرأ ما جاء في التقرير الخاص به، وتوقف كثيراً أمام حادثة المستودع . قرأ كل الملاحظات التي كتبت عن لخضر بخصوص حادثة المستودع، بأنه ساعد الكولونيل على كشف مؤامرة كانت تحاك ضده من أحد غرمائه التقليديين . لكنه لسبب غامض لم يصدق الرواية التي قرأها، شعر وكأن شيئاً ما ينقصها . فكر «لو مات ذلك الأبله لكانت الحكاية واضحة ومقنعة ومكتملة»! قرأ الكثير من الملاحظات الأخرى عن لخضر كتبت باللون الأحمر في صفحات أخرى من ملفه «منطو على نفسه»، «حمال ابن حمال من أسرة فقيرة، عانى من زوجة أبيه، أحب فتاة رفضته فغادر البيت دون رجعة» . كانت المعلومات الدقيقة تعني أن لخضر ليس سوياً بالمعنى الكامل، وأنه نصف عاقل ونصف مجنون! قالها في نفسه وهو ينظر إليه من جديد . كان لخضر يرتعش بينه وبين نفسه وقد طالت نظرات المسؤول إليه، وأخير نطق :

ـ ملفك الشخصي الذي أمامي يجعلني أقول إننا سعداء بوجودك معنا!

ـ شكراً يا سيدي!

ـ هل أنت سعيد بعملك؟

قالها له فجأة، فكر في كل الذين سألوه السؤال نفسه، وتمنى لو يستطيع أن يبتسم الآن، ليقول : السعادة لا مكان لها في عملي يا سيدي! لكنه قال بصوت أراده صادقاً :

ـ أنا أحب عملي يا سيدي، وحبي له يجعلني سعيداً بأدائه!

واتسعت ابتسامة الرجل البدين وهو ينفخ دخان السيجارة من جديد كان يبدو سعيداً بهذا الرد الذي لم يتوقعه، فلو قال له «نعم أنا سعيد»

فلن يصدقه ، وسيقتنع أنه منافق من الطراز الأول! لكن أن يقول إنه يحب عمله تعني الكثير ، تعني أنه يحب أذى الآخرين . هل يمكن لشخص أن يحب عملاً يساهم في تعاسة الآخرين؟ كان المسؤول يفكر أن هذا النوع من الناس يثيرون الخوف أيضاً ، فهم يشعرون أنهم مدفوعون في عملهم بضمير الواجب ليس للوطن ، بل للأشخاص ، وهم من الناس الذين تبدو ذممهم مطروحة في المزاد!

ـ إذاً أنت تحب عملك!

ـ نعم يا سيدي!

ـ جيد!

انتهت الزيارة بتلك الكلمة! غادر لخضر المكتب بخطوات سريعة كمن يهرب من ورطة ، لكنه بعد تلك المقابلة بأيام تفاجأ بقرار ترقيته ، لأول مرة يتلقى لخضر ورقة مكتوباً عليها اسمه الكامل : الضابط لخضر! دق قلبه طويلاً وهو ينظر إلى القرار الذي سلمه له نبيل بوجه مكفهر ، وغادره دون كلمة ، حتى جعفر الذي التقى به في الممر المؤدي إلى الباب الخارجي ، نظر إليه نظرة قاتمة دون أن يكلمه . كان واضحاً أنهما عارضا قرار نقله من حمال سابق ، ومخبر إلى ضابط! كانت عبارة ضابط تعني أنه يحصل على ترقية لا علاقة لها بالتعليم أو بالممارسة الأمنية ، بل لها كل العلاقة بالتقارير ، وبقدرته المميزة على جعل الأشياء البسيطة مثيرة للجدل ومن ثمة للخوف! تحول إلى ضابط براتب أعلى ، وساعتين يتدرب فيهما على استعمال السلاح ، وعلى ما يجب على الضابط أن يعرفه في عمله! كانت تلك خطوته الأولى في سلم المجد!

-١٩-

هل ينكر أن الحظ ابتسم له وقتها؟ لأول مرة يشعر أنه يتغير فعلاً نحو الأفضل ، حتى وهو يحاول أن يظل حيادياً في وجود جعفر ونبيل وطارق ، الذي عاد من مهمته أكثر اكتئاباً ليجده قد ترقى من حيث لم يتوقع ، وإن تقبل الأمر بهدوء إلا أنه لم يستوعب قرار رؤسائه في ترقية شخص بائس جاء من اللا شيء ، وإن لم يعلق على الأمر إلا أنه لم يتقبله . كان يتفهم جيداً غضب جعفر الذي لم يستوعب القرار ، ونبيل الذي لم يخاطب لخضر من وقتها ، لكن سعادة لخضر كانت كبيرة ، ولم يكن يهمه من هؤلاء شيئاً . كان يعرف أن بإمكانه العمل بشكل مختلف الآن ، وقد صار بإمكانه نقل التقارير شخصياً إلى المسؤول الذي قابله آخر مرة دون أن يحتاج إلى وساطة من أحد . تلك هي الترقية التي لا يمكن التبطر عليها! أدرك جيداً أنه مطالب بالعمل أكثر من السابق ليثبت للجميع أن ترقيته لم تكن حسنة من أحد ، وأنه أكثر الناس استحقاقاً لها . قال له طارق وهو يلتقي به بينما هو نازل من عند مسؤوله المباشر :

ـ ترقيتك بهذه السرعة تعني أنك محل ثقة من الكبار!

قالها مبتسماً تلك الابتسامة التي زادت من حزن عينيه ، وابتسم لخضر ابتسامة أرادها خجولة قبل أن يرد :

ـ أنا كما كنت ، أعمل بالإخلاص نفسه في عملي!

وضحك ضحكة مبهمة قبل أن يقول :

ـ احذر إذاً من الإخلاص ، قد يقتلك!

قالها وهو يربت على كتفيه ويمضي ، وشعر لخضر بقلبه يدق . هل كانت تلك الجملة عفوية وعادية أم أنه حذره من شيء حقيقي؟ هل يمكن أن يتعرض للقتل بسبب ترقية؟ ومن سيقتله؟ فكر في جعفر الذي كلما التقاه حدق به بنظرة قاسية دون أن يتكلم معه ، ثم فكر في نبيل الذي أصبح يتجنبه كما لو أنه أصيب بالطاعون ، وشعر بغصة تنخر فرحته التي بدت له غير مكتملة . لم ينسى أن عليه مصارعة طواحين الهواء طوال عمره ، منذ اكتشف أن حياته صارت مرتبطة بموت آخرين! فكر كثيراً وقتها في الحل . هل ينس النصيحة التي قالها له طارق كما لو أنه لم يقلها أم يعمل على عدم ترك ظهره مكشوفاً للعدو؟ كل من كان ضد انتصاراته الصغيرة عدو ، كل من حاول إذلاله باسم الواجب عدو ، حتى أولئك الذين يقرأون تقاريره أعداء إن عارضوها أو رفضوها أو اتهموه بالمبالغة في صياغتها! استوطنت الفكرة في نفسه حتى صارت تؤرقه ، وصار قاب قوسين أو أدنى من اليأس . .

ـ تبدو متعباً يا بني . هل هنالك أمر لا أعرفه؟

ـ العمل كثير في هذه الفترة ، والمدير الجديد لا يرحم . .!

ـ ما الذي حدث في الحي الجامعي أمس؟ أخبرني الباهي أن صدامات وقعت بين الطلبة؟

ـ ككل مرة يا عمي الطيب . الصدامات بين الطلبة مستمرة ، في كل مكان وليس في الإقامة الجامعية فقط!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . سمعت أن مصادمات وقعت في أحد الأحياء الشعبية قادها شباب ملتحون أرادوا إغلاق قاعة سينما بالقوة ،

وكلام آخر عن توترات في العديد من المناطق الشعبية الأخرى!

ـ أنا مثلك أسمع ما يقال هنا وهناك، لكني لا أدري شيئاً عنها، ربما سي الباهي يفيدنا بمعلوماته!

ـ الباهي سافر إلى منطقة القبائل ليلقي محاضرة عن العنف اللفظي الذي استفحل في المجتمع، يقول إن هذا العنف بوابة لعنف سوف يأخذ طابعاً آخر!

ـ السي الباهي موسوعة كاملة، أنا أحسده على معلوماته الكبيرة وثقافته العالية!

ـ ما يحرك الباهي هي وطنيته وحبه الشديد للبلد، لو لم يكن يحب هذه الأرض لغادرها أو لباع ذمته مقابل المناصب كما يفعل الآخرون!

ـ احترام الجميع له يعطيه قوة هائلة!

ـ نعم، خصوصاً الشباب مثلك. هل تعرف أنه كان مدرساً في السابق؟ لكنه طرد من التدريس لأنه كان يتكلم عن أمور اعتبرها مدير المدرسة آنذاك غير مقبولة، مثل المساواة، والحرية، وحق الجميع فيها. كان يقول لطلبته إن الحرية هي التي تصنع التحرير، لأن الجوع والجهل يمكنهما إدارة حرب ما، لكنهما لا يقدران على بناء بلد بعد نهاية الحرب! لهذا طردوه من التدريس ومنعوه من العمل في مؤسسات رسمية، لكنه استطاع العمل في صحيفة يوزعها بنفسه على الناس.

ـ يوزعها بنفسه؟

ابتسم السي الطيب وهو يقول:

ـ نعم، إنها صحيفة عادية يكتبها مع عدد من المتحمسين أمثاله، ويحررونها بطرق شبه بدائية ويوزعونها على الطلبة وعلى المارة أحياناً!

ـ لم أكن أعرف ذلك!

قالها لخضر بصوت صادق ، واتسعت ابتسامة الطيب الذي أضاف يقول :

ـ الصحيفة تصدر في البلدة التي ولد فيها السي الباهي ، في منطقة أغلب سكانها من البربر ، والسلطة تعرف جيداً أن إيقاف هذه الصحيفة البسيطة لن يوقف الباهي والكثيرين مثله ، ولا تظن أنهم لم يفكروا في إيقافه فعلاً!

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أن شخصاً مثل الباهي لا يمكن أن يكون مرحباً به دائماً ، إنه أشبه بضمير حي ، وذاكرة لا تموت! إنه ثائر فريد من نوعه ، لأنه لا يستعمل السلاح ، بل القلم!

شعر لخضر أن السي الطيب قاب قوسين من سرد حكاية ما له ، وانتظر صامتاً أن يقول له ما يفتح معلوماته على شيء جديد ، وإذ به يقول :

ـ الباهي هو آخر أصدقائي المخلصين!

قالها بصوت حزين قبل أن ينظر إليه ليضيف بوجه غلفه الحزن :

ـ في المرض والفقر يمكن أن تكتشف الأصدقاء الحقيقيين ، فقلة جداً من ستحتمل معك الألم ، بينما سيختفي البقية خلف مشاغل وهمية أو حقيقية لينسوا أنك كنت صديقهم ذات يوم ، تقاسمهم أشياء بسيطة وصادقة!

صمت قليلا ثم أضاف :

ـ المرض جعلني عارياً من الأصدقاء ، ولم يبق لي سوى الباهي ، رغم مشاغله الكثيرة يظل قريباً جداً .

وأمام صمت لخضر أضاف بابتسامة أكثر حزناً :

ـ أثمن مواقفك الجميلة معي يا بني ، مع أنك لم تكن مجبراً على ما فعلته وتفعله!

وشعر لخضر بشيء يخزه وهو يفكر في نجاة التي لم يطلب رؤيتها منذ تلك المرة السابقة . كان يشعر أنه مقصر جداً في تلك العلاقة الغريبة التي لم يقدر على أداء دورها بالكامل ، مع أن نجاة كانت في الأول والأخير المفتاح الذي فتح له باب الدخول إلى هذا البيت ليرتقي في عمله ، فلو لم تكن هي لانتهت أسباب زياراته للسي الطيب ، فالعلاقات التي لا تحمل سبباً مقنعاً لن تستمر دائماً . فكر كثيراً وقتها . ألم تكن نجاة بمثابة الصفقة التي أبرمها مع الحظ ، وقد سمحت له تلك الصفقة بالترقية . شعر أنها ليست فألاً سيئاً بالنسبة له . نظر إلى السي الطيب وهو يقول بصوت أراده صادقاً :

ـ أنا ممتن لك أنك فتحت لي بيتك وقلبك يا عمي الطيب ، أنت بمثابة والدي رحمه الله!

وشعر الطيب بالفخر وهو يسمع ذلك ، ابتسم ورد :

ـ يسرني سماع ذلك منك يا بني . على الأقل ، كي لا أشعر أنك تبدو في ورطة إزاء موضوع ابنتي ، كوني لا أريد أن تظن أن عدم إتمام الزواج قد يؤثر على محبتي لك!

بصوت مرتبك قال كأنه ينهي شيئاً يثقل كاهله :

ـ أرجو أن نحدد معاً موعداً لإعلان الخطبة بشكلها الرسمي يا عمي الطيب!

ـ فكرت في ذلك طبعاً ، لكني قلت في نفسي يمكن فعل ذلك بعد العطلة الجامعية المقبلة!

ـ أرجو أن نحدد موعداً قبل العطلة الجامعية ، هذا أفضل بالنسبة للجميع .

فكر أن يقول «بالنسبة لكم» ولكنه تراجع، خوفاً أن يجرح ذلك الرجل الذي بدا سعيداً فجأة، وكأن لخضر أراد المبالغة في إسعاده أضاف:

ـ ما رأيك في الخميس المقبل؟ يمكننا إعلان خطبة بسيطة!

وانفرجت أسارير الرجل الجالس قبالته، والذي شعر بالذنب لأن يبدو سعيداً بهذا الشكل أمامه، وقد يظن أنه يريد التخلص من عقدة ابنته التي سيطرت عليه طويلاً.. تنحنح الطيب ثم نظر إلى الجالس قبالته وقال بصوت أراده جاداً:

ـ هل هذا ما تراه مناسباً لك يا بني؟

ـ أجل.. أعتقد أنه المناسب لنا جميعا!

قالها وهو يقف من مكانه ويصافح محدثه ويغادر. كان يعرف ألا مناص من الاستمرار في الطريق الذي عليه أن يمشي فيه، لأنه قدره!

-٢٠-

تساءل كثيراً فيما بعد عن تلك الفترة التي مرت كما لو أنها تعني شخصاً غيره . لم يشعر بأي حماسة للخطبة ، ولم يشعر كما يشعر شاب في سنه بمتعة التفكير في المستقبل ، ولم يخبر أحداً بالأمر ، حتى جمال الذي بدأ يتأفف من مزاج المدير الحاد لم يسأله قط عن المدير السابق ، مع أنه كان سعيداً بعد عودته من عطلة الزواج ، لكنه فقد فرحته فجأة وعاد إلى حواراته المليئة بالغضب الخفي على الأحوال . كان لخضر يجد في تلك الحوارات أسلوباً خاصاً لقراءة نفسية الآخرين ، وكان يستمتع كثيراً بقدرته على مراقبة تلك اللعبة التي تسمى الحوار ، لكنه لم يكن مضطراً لقول ما يفكر به ، ربما عن حاجة إلى قول ما لا يعنيه ليستمر في مراقبة الحوار ، ولهذا لم يشعر أن الذي سوف تعلن خطبته على ابنة السي الطيب شخص يعنيه! كان شخصاً آخر ، يراقبه وهو يؤدي دوراً سخيفاً من الوقار والتهذيب في حضور الآخرين . كأنه ليس هو الذي جلس قبالة الحاضرين ذلك اليوم المشمس . تعمد أن يكون أنيقاً ، وظل يراقب حذاءه طوال الطريق كي لا يتسخ . كان يشعر أن بريق حذائه أهم ما يمكن أن يثير اهتمامه في هذه المناسبة ، بحيث سينظر الناس إلى حذائه ، وسيعرفون من حذائه الملمع بأنه منظم في حياته وأسلوبه . كان ذاهباً كما يذهب شخص إلى حفل خطبة شخص يعرفه ، ولم يفكر أن عليه أن يحمل أكثر

من خاتم الخطبة وباقة ورد لم يساهم في اختيارها تاركاً بائع الورد يختارها له . قال له ، أريد باقة جيدة تليق هدية لصديق سيخطب اليوم! وابتسم البائع وهو يبارك لصديقه الذي سيخطب اليوم ، وراح يختار له الباقة التي تليق ، وعندما عاد يحمل إليه باقة كبيرة منسقة بإتقان ، أحس بحزن شديد . حزن استولى عليه طوال الطريق ولم يعرف كيف يفسره . فكر في نفسه عن إحساس شخص سيهدي هذه الباقة لإنسانة يحبها عن رغبة في الارتباط بها . شخص يمكنه أن يعلن للبائع أن اليوم خطبته ، وأنه سعيد جداً بهذا اليوم . . شخص لا يذهب إلى بيت خطيبته خالياً من الفرح ومن الأمنيات ، وحيداً كيتيم فقد أهله في حرب أهلية! كان الجميع يؤدون الدور المنوط بهم ، حتى الطيب لم يدع الكثير من الناس لحفل الخطبة بدا سعيداً رغم تعبه الواضح مع زوجته التي بدت متفتحة من الفرح . وعندما أطلت نجاة أخيراً شعر لخضر أن قلبه يدق ، فقد كان محط الأنظار وكان عليه أن يتجاوز ارتباكه وخجله ليلعب الدور للنهاية . تنهد بعمق وهو يقف لاستقبالها ماداً يده إليها ، كما يفعل شخص يسعى إلى مساعدة شخص معاق ، لكنها تجنبت يده بهدوء وهي تجلس صامتة . نظر إليها وخفق قلبه وهو يكتشف أنها جميلة ، على الرغم من شحوبها الواضح . كانت تبدو خجولة أمام نظرات الحاضرين ، وعندما حانت وقت التلبيسة ، وقف أكثر ارتباكاً ليخرج الخاتم من جيبه ، وتناول يدها بين يديه . لم يعرف أيهما كان يرتعش هو أم هي ، لكنه استطاع أخيراً أن يضع الخاتم المقدس في إصبعها أمام نظرات الرجال وزغاريد النسوة . كان مرتبكاً جداً وهو ينظر إليها ، وانتبه أنه ما يزال يمسك يدها التي جذبتها دون نظرة إليه . فكر كثيراً وقتها عن إحساس شاب يكون في مكانه اليوم . إحساس شاب يتزوج بالطريقة التي تزوج بها؟ هل يمكن القول إنه سعيد؟ لم يكن

يشعر بالسعادة وهو جالس يتبادل المجاملات بابتسامة مرسومة على شفتيه بإتقان، كان يوحي بأنه مرتاح، لأنه أصبح رسمياً جزء من أسرة السي الطيب، ولأنه أنقذ ابنته من عنوسة حقيقية! كان ينظر إلى حذائه اللامع بإحساس من الفخر فجأة، ربما لأنه تغير فعلاً. اكتشف أن خطيبته لا تنظر إليه، وأنها لم تبتسم حتى وهو يهمس لها «مبروك»، ردت له التهنئة بصوت مرتبك وخال من الفرح. قال لها فجأة:

ـ هل أنت بخير؟

ونظرت إليه كأن سؤاله فاجأها. قالت بهدوء:

ـ هل أبدو لك مريضة؟

ارتبك أمام ردها. بدا صوتها مرتجفاً، وخيل إليه أنها تبدو على حافة البكاء. هل يعقل أن تكون حزينة في يوم كهذا، قالها في نفسه، وهو ينظر إليها. أجابها بهدوء أراده مقنعاً:

ـ أشعر أنك لست على ما يرام.

ـ وأنت؟ هل أنت على ما يرام؟

ـ أنا؟

ارتبك أكثر مما كان يجب، وشعر بالغضب من نفسه وهو يبدو أقل ثقة أمام عينيها الحزينتين، شعر بشيء غريب يجذبه إلى عينها، ربما هو نفسه الحزن الذي أحس أنه سبب فيه، وكأنها أحست أنها أصابته في الصميم، أشاحت بنظراتها نحو الجهة الأخرى. كان يريد أن يقول شيئاً، لكنه لم يقدر، ربما لأنه لم يكن ثمة ما يقال. وانتهى الحفل كما بدأ. وانسحب الجميع بمن فيهم الباهي الذي صافحه بحرارة وهو يهمس له:

ـ نجاة غالية علينا، أرجو أن تسعدها!

ولم يرد سوى بابتسامة لا تقدم ولا تؤخر. فكر ألا أحد فكر في

سعادته هو؟ كل من قابلهم طالبوه بإسعادها ، حتى والدها قال له الشيء نفسه بأسلوب غير مباشر ، وعندما غادرهم مشى طويلاً في الشارع ، ليجد نفسه يتوقف أمام الميناء فجأة . لمح باخرة كبيرة تبتعد ، ورأى مجموعة من الشباب تراقب الباخرة من أعلى المكان المطل على المرسى . كانوا يراقبون البواخر بإحساس من التوحد . وجد نفسه يقترب منهم قليلاً ويطل برأسه كما يفعلون . كان المرسى مفتوحاً على مرمى البصر ، ببواخره المستعدة للرحيل ، وكان الشباب يتبادلون التمنيات فيما بينهم ، ويحلمون بالرحيل على متن إحداها . سمع أحدهم يقول بصوت أراده ساخراً :

ـ لو قذفت بنفسي فسوف أصل قبل الباخرة إلى الضفة الأخرى؟

وضحك الجميع بالصوت نفسه . كل واحد يراهن أنه سيصل قبل الباخرة إن قذف بنفسه في عرض البحر! هنا ، في هذا المكان المسيج بالأسلاك ، وبرائحة التربة الندية ، والأحلام المجروحة في كبريائها ، لم يتغير شيء منذ حلم لخضر بمثل أحلامهم قبل ألف عام! قالها في نفسه وهو يعود إلى البيت أكثر كآبة ، يفكر لأول مرة في خطيبة أثارت فضوله أكثر من عطفه ، من قبل كانت نجاة أكثر قدرة على قول ما تفكر فيه . . كان في نظراتها إليه شيء مختلف ، ذكره بأمه وبأخته . كان سعيداً وقتها كما لم يكن قط من قبل . سعيد بكذبة استمرت بضعة أشهر وانتهت إلى الجنون! كذبة أشعرته بضعة أشهر أن لقلبه قلباً ، قادراً على الحب والخوف والفرح في آن واحد . كذبة مهما كانت قاسية صنعت منه عاشقاً صادقاً قادراً على فعل أي شيء لأجل الحب . ألم يغيره الحب؟ ألم يجعله يتمرد على أبيه ، وعلى زوجة أبيه؟ ألم يفتح الحب عوالمَ جديدة أمام عينيه ، هو الذي عاش داخل زجاجة أخرجه الحب من عنقها كمارد متحرر من عقدة الحكاية؟ لكنه لم ينتصر بالحب ، بل انهزم فيه! كان يشعر أنه حزين ، لأن

قلبه غير قادر على شيء أسهل من الحزن، ولا أعمق منه. تساءل: هل يمكنه أن يحب خطيبته حقاً؟ واستغرب السؤال، وتذكر عينيها الحزينتين. كانت جميلة ومجروحة في كرامتها وهي تستسلم للأمر الواقع، ربما لأن والدها أرادها أن تقبل، دون أن يضغط عليها، لكن حديثه عن لخضر كان مختلفاً، بدا وكأنه وجد قشة يتشبث بها لأجل ابنته، فقد مر بظروف صحية صعبة أجبرته على التقاعد، والأطباء حذروه من قلبه المريض، وكان يريد أن يرى ابنته متزوجة، قبل أن يغيّبه الموت، وكانت ترى في حلمه شيئاً مهماً، ليس بالنسبة إليها، بل بالنسبة إليه وإلى والدتها. كانت نجاة حزينة لسبب لا تعرفه، ربما لأنها شعرت أن الرجل الذي سيتزوجها يفعل ذلك أيضاً إرضاء لوالدها وليس لأنه تمناها أن تكون زوجة له، فهو لم يقل شيئا ذا قيمة سوى النظرة العميقة التي تثير خوفها وفضولها وحزنها في آن واحد. كانت حزينة لأنها كأي فتاة تمنت الحب حتى لو امتزج بالشفقة، أما الشفقة الخالية من الحب، فكانت تشعرها كجرح غائر في كيانها، كانت تدرك أن الرجل الذي خطبها لا يشعر نحوها بما يجب أن يشعر به شخص يريد الارتباط بفتاة، ربما لأنها لا تشكل حلماً حقيقياً بالنسبة إليه، مع أنها لم تكن أقل من بقية البنات حقاً في أن تتزوج وتكون أماً لأطفال تنجبهم من رجل يختارها عن رغبة في مشاركتها الحياة بحلوها ومرّها. حتى أولئك الذين كانوا يتعاطفون معها، لم يتقدموا لخطبتها، لتبدو في أعين الجميع الفتاة التي سوف تظل عانساً عن قضاء وقدر، لكن لخضر كسر ذلك النحس، وبدا وكأنه جاء لإنقاذها من مصير قاتم وأسود، ولم تكن سعيدة وهي تشعر أنها سوف تعيش تعيسة بإحساسها الدائم بالخيبة. لكن لخضر رأى في زواجه من نجاة تحصيل حاصل، أشبه بمهمة وطنية يقوم بها على شرف مبدأ ما! لهذا

لم يكن للفرح مكان قبالة الشعور بالواجب، واجب النخوة التي أراد أن يؤديها كدور تعلمه في عمله. لم يحك لخضر عن خطوبته لأحد، لكنه تفاجأ بطارق وهو يبتسم ابتسامته المليئة بالمكر ويقول له:

ـ تخطب دون أن تدعونا أيها اللئيم؟!

طأطأ لخضر رأسه وهو يقول:

ـ الخطبة جزء من عملي يا سي طارق!

واختفت الابتسامة من شفتي طارق، ليس لأنه يعرف أن الخطبة جزء من عمله، بل لأنه لم يقل له «يا سيدي» كما كان يقولها سابقاً. نظر إليه نظرة طويلة قبل أن يقول بصوت هادئ:

ـ نعم. كل شيء جزء من عملنا، أرجو ألا تنسى ذلك!

ـ لن أنسى ذلك!

قالها بابتسامة مفاجئة زادت من دهشة طارق الذي تركه وانسحب متأملاً في هذا التغيير الخطير الذي طرأ عليه. كان يعتقد في البدء أن الترقية ليست أكثر من طعم رماه المسؤولون لإغرائه على مزيد من الكذب في تقاريره، فتلك طريقتهم في جعل الترقية رشوة مبنية على دعوة صريحة للكذب والمبالغة عندما يتعلق الأمر بالآخرين، لكنه اكتشف أن لخضر تغير منذ ترقى. فكر طارق في ردة فعل جعفر لو رد عليه لخضر بتلك الطريقة؟ فهو لن يفوتها له، بينما طارق فإن شعر بالضيق من طريقته المغرورة في الرد، إلا أن الأمر لن يخرج عن هذه اللحظة، وسوف ينسى الأمر سريعاً لأن العمل هو الذي يتحكم في مزاجه وليس الأشخاص، فكر في ذلك وهو يبتسم، لأنه يعرف أن لخضر سوف يتصادم آجلاً أم عاجلاً مع جعفر صداماً كبيراً! حتى لخضر انتابه الشعور نفسه، بأن جعفر يحاول إغاظته بطريقة أو بأخرى، أحيانا يسمعه يتكلم بصيغة الجمع

ليقصده تحديداً ، يتكلم عن الرعاع الذين يريدون أن يتحولوا إلى أسياد ، فيعرف أنه يعنيه هو تحديداً ، ولم يكن يشعر أنه بحاجة إلى الرد ، لأنه لم يعد يشتغل تحت إمرته منذ صار يصعد إلى الطابق العلوي ؛ ليقدم بنفسه التقارير المليئة بالمبالغة والكذب تجعل المسؤول البدين يبتسم ابتسامة راضية وهو يدخن سيجاره الكوبي ، مسترخياً على كرسي يئن من ثقل جسمه!

ـ جيد! الباهي يكاد يفقد كل مصادره ، لن يقاوم طويلاً ، سيسقط قريباً والفضل يعود إليك!

قالها له وهو ينظر إليه نظرة عميقة قبل أن يسأله :

ـ متى تنوي الزواج؟

وارتبك لخضر وهو يحاول الرد على السؤال بصوت مقنع :

ـ الزواج يحتاج إلى تحضيرات كثيرة يا سيدي ، وبمجرد . . . .

ـ حاول أن تحضر نفسك بأسرع وقت ، فقد نحتاجك في مكان آخر ، ويجب أن يكون ظرفك الأسري مقنعا لمهمتك المقبلة!

ـ والجامعة يا سيدي؟

ـ ستغلق الجامعة أبوابها بعد فترة ، وأثناء هذه الفترة سيكون من السهل توجيهك نحو مهمة أخرى!

ـ نعم يا سيدي!

وبدا رده مقنعاً للرجل الذي توقع أن يسأله ، كان يبدو على لخضر أنه تأقلم مع عمله وصار مهيئاً نفسياً لأي مهمة وفي أي وقت ومكان ، وتلك بوادر مشجعة لشخص مثله! أضاف المسؤول بصوت خال من المشاعر :

ـ لديك تدريبات على بعض الأمور ، ولذا يجب أن تنتهي من موضوع الزواج لتركز في شغلك!

وقبل أن يحب لخضر بأي شيء أضاف الرجل البدين بابتسامة أظهرت أسنانه الصفراء :

ـ لا تظن أن ارتباطك بابنة مدير الجامعة كان عفويا! كل شيء نرسمه مسبقاً وأنت تنفذه بحذافيره!

قالها وهو ينظر إليه بالحدة نفسها التي جعلت لخضر يرتبك كثيراً . شعر بوخز في قلبه وهو يكتشف أنه تحول إلى فأر تجارب في مخبرهم ، وأن مشاعره وأدق تفاصيله محسوبة ، ومراقبة! وقبل أن يقول شيئاً واصل المسؤول :

ـ لقد كلف الطيب بعض معارفه للسؤال عنك في الحي الذي تسكن فيه ، مثلما كلف بعض الأشخاص للسؤال عنك في البلد الذي قلت إنك منحدر منها! ولولا ترتيباتنا الجيدة لعرفوا حقيقتك!

قالها بابتسامة صفراء مقززة . شعر لخضر بأن جبينه يتصبب عرقاً ، مسحه براحة يده ثم رفع عينيه إلى المسؤول الذي ظل ينظر إليه بالابتسامة الصفراء المقززة نفسها .

ـ أنا تحت أمركم يا سيدي!

ـ أعرف أنك تحت أمرنا ولهذا عليك أن تعرف أننا نعرف كيف نحمي رجالنا جيداً!

ـ نعم يا سيدي!

قالها بصوت مرتعش ، وبدا المسؤول منتصراً وهو يتململ فوق كرسيه ويشير له بالمغادرة . نهض لخضر من كرسيه بهدوء وتوجه صوب الباب وخرج . كان يرتعش من رأسه إلى أخمص قدميه وهو يفكر في الكلام الذي سمعه . هل ما فعله السي الطيب يدخل في إطار الأعراف؟ كان يظن أنه هو الذي كان يتباطأ في تحديد موعد الخطبة ، وإذ به يكتشف أن

السي الطيب استغل ذلك التباطؤ ليسأل عنه ويتقصى عن سيرته وحقيقة ما أخبره به . كان يعي أن الأمر لا يخرج من كونه أمراً عادياً لأب يريد أن يطمئن على ابنته ، لكن الأمر غير العادي أن يفقد في كل الحكاية نفسه . شعر أنه تحول إلى شخص آخر . كان يعرف أنه لم يعد حقيقة ، بل مجرد شيء افتراضي جاهز التفاصيل! انتابه إحساس بالضيق الشديد وهو يتذكر أن عليه الانتهاء من موضوع الزواج بسرعة ، ليتفرغ للعمل القادم! هل كان سيشعر بعدها بالانبساط وهو يتحول إلى فأر تجارب بين أيدي الجميع ، حتى قراراته لم يكن له أن يتخذها بمنأى من مصالح الآخرين . لا ينكر أنه فكر طويلاً أن ينفض يديه من هذه الحياة التي تورط فيها ويهرب ، وتذكر أنه لا يملك مكاناً يهرب إليه . قالها وهو يكتشف ألا مخرج من حياته سوى بالمعجزات . ألم تنقذه المعجزات من حياته السابقة؟ فقد استطاع أن يتحول من حمّال إلى ضابط! وإن لم يكن يعرف في أي مؤسسة يشتغل حقاً ، إلا أنه يعرف جيداً أنه يشتغل لأشخاص مهمين ، يديرون البلد وفق مزاجهم الخاص ومصالحهم الشخصية التي يرونها أهم من مصالح الآخرين ، وهذا سبب وجوده معهم ، لأنهم يوظفون أمثاله لأجل أن يقاسموهم شرف مشاركتهم مجدهم الخاص ، بحيث يتحول كل الموظفين إلى أداة للقتل ، لحماية مصلحة الكبار من الاندثار . أليست تلك هي الحقيقة التي توصل إليها وقتها؟ حتى الجامعة تتحول إلى صراع الكبار بجثث الصغار ، كان يعرف أن الدور الذي أداه فريد وإبراهيم جزء لا يتجزأ من الدور الذي أداه هو . ما الفرق بينه وبين هؤلاء الذين كانوا مجرد أداة في يد الجناة؟ لا فرق ، سوى أنهم سرعان ما كانوا يتحولون إلى أبطال درجة ثانية ومن ثم يتم إلغاء دورهم بالقضاء عليهم ، وقد سمع فيما بعد أن الاغتيال كان أسهل الطرق لقتل شاهد عاصر الأحداث عن قرب! فهل

كان عليه أن ينتظر الرصاصة التي قد يصوبها نحوه عميل جديد ليتخلصوا منه إلى الأبد بأمر من الأسياد؟ كان يرفض أن يموت في حرب لا تعنيه ، ولأجل مصالح لا تعبر عن وجهة نظره إزاء الأشياء ، وإن لم يكن منحازاً إلى القضايا الكبيرة التي ينحاز إليها الأغبياء من الناس معتقدين أنهم سيغيرون من خارطة العالم ، إلا أنه في الوقت نفسه أدرك أن قضيته الوحيدة تكمن في الشيء ذاته الذي جعله يقبل القيام بما يقوم به ، بأن يصعد ولو على حساب العالم كله! لهذا ظل يعمل ولهذا كانت تقاريره من مجرد أخبار عادية إلى تفاصيل خطيرة عن أشخاص كان يرى فيهم ما لا يراه كل الناس ، كان يرى فيهم احتمال شبهة ، أو جريمة ، أو عصيان ، وهي النظرة ذاتها التي كانت تعجب رؤساءه وتجعلهم يشجعونه على عمله بالقول : هذا هو واجبك الذي يحتّمه الوفاء للبلد ، بيد أن البلد لم تكن أكثر من هؤلاء الأسياد الذين استولوا على خيراتها ، تاركين الشعب يتناحر باسم الإيديولوجية التي كانت آخر هموم الفقراء . هل يمكن أن تغري فقيراً جائعاً بأن حاجته إلى الحرية أهم من حاجته إلى الخبز؟ فقير يرى في خبزه حريته ، ولا يمكنه أن يجزىء إحداها عن الأخرى ، وهل يمكن القول لفقير إن آخرته الجنة لأنه سيظل فقيراً إلى آخر أيامه؟ ، في الوقت الذي كان فيه الكبار يسرقون كل شيء ، ويتواعدون عند الموت بأن يلتقوا في الجنة ليسرقوها من الفقراء أيضاً! كان لخضر يعيش إحباطاً حقيقياً وهو يبحث عن موقعه من كل هذا الخراب؟ وكان يذهب إلى بيت خطيبته لأجل ألا يبدو مهملاً ، ولأجل ألا يربط أحد إهماله بحزنه وبخطوبته . شعر أنه يبذل جهداً كبيرا ليبدو طبيعياً ، غير محبط ، فتأتيه نظرات خطيبته مليئة بالأسئلة . كأنها تقرأ ما وراء نظراته من كآبة . فكر أن يطلب من أبيها الإذن ليخرج معها إلى أي مكان عام لتناول القهوة ،

كما يفعل يتيمان بحثاً عن مكان يكشفان فيه أسرارهما ، وتردد كثيراً قبل أن يجرؤ ويطلب ذلك ، ليتفاجأ بوالدها يستغرب طلبه ، وشعر لخضر بالإحراج وهو يبحث عن كلمات تخفف دهشة الأب . قال له فجأة :

ـ أفكر أن الأمر سيسعدها لأنها سوف تغير الجو ، هذا إن لم يضايقك الأمر يا عمي الطيب!

ـ لا أبدا يا بني . لكن . . .

ـ إن رأت نجاة الأمر مرفوضاً فسأحترم رأيها . .

ـ ليس هذا ما قصدته ، إنما . . . . هل يمكن أن تخرج مع فتاة . . . .

وصعق لخضر وهو يتذكر أن خطيبته لن تستطيع الخروج فعلاً ، وأن رجلها شبه المشلولة سوف تعيقها ، وبدل أن تغير جواً سوف يزيد إحساسها بالاكتئاب . لقد نسي ذلك ، اعتقد للحظة أن بإمكانها أن تتأبط ذراعه وتمشي معه كما تمشي أي فتاة مع خطيبها فخورة ومليئة بالأحلام . طأطأ رأسه ولم يقل شيئاً ، كان خجولاً من مضيفه وهو يفكر أنه أكثر خيبة مما كان عليه من قبل!

ـ أنا آسف ، لم أفكر في الأمر من تلك الزاوية!

ـ لا عليك يا بني . . المهم أن من حقك أن تتحدث مع خطيبتك هنا ، فأنت في بيتك ، ويمكنني أن أتركك تتحدث معها نصف ساعة . .

ـ يجب آخذ رأيها . .!

قالها وهو ينظر إلى ساعته بإحساس الرغبة في المغادرة ، لكن الطيب بدل أن يرد نادى لابنته التي دعاها للجلوس وهو يقف قائلاً موجهاً كلامه لابنته :

ـ خطيبك يرى أن من حقه أن يحكي معك في أمور حياتكما وهذا رأيي أيضاً . . سأعود بعد ربع ساعة!

قالها وانسحب تاركاً باب الصالة مفتوحا على مصراعيه . كان لخضر مرتبكاً وهو ينظر إلى خطيبته ، التي ظلت عيناها مغروستين على السجاد كأنها تبحث فيه عن شيء ضاع منها . قال أخيراً يحاول استغلال الوقت المتاح له :

ـ لا أريد أن تظني أن رغبتي في الحديث معك ستكون ضد رغبتك لو لم توافقي على الجلوس معي كما الآن ، أنا لا أريد أن تشعري أنك مضطرة لفعل شيء . أريد أن تعرفي ذلك!

رفعت إليه عينيها كأنها تراه لأول مرة ، وشعر لخضر بقلبه يدق وهو يتأمل عينيها ، بدت جميلة وهي تحاول أن تبتسم ابتسامة صغيرة :

ـ ألا تبدو مضطراً لكل هذا؟

قالتها له وهي تنظر إليه نظرة عميقة ، وشعر أن العرق بدأ يتصبب منه وهو يبحث عن رد يقنعه قبل أن يقنعها به ، قال وهو يتململ في مقعده :

ـ لست مجبراً على فعل أي شيء لا أريد فعله ، وعليك أن تفهمي أن ما أقوم به أفعله عن قناعة!

لم يقل عن حب وإلا لكانت كذبته مكشوفة ، وشعر أن تعبيره منطقي ، بل ومقنع ، لأنها نظرت إليه نظرة مليئة بالدهشة وهي تقول :

ـ أنت مقتنع بزواجك من فتاة كسيحة؟

ـ أنت من بيت يشرف كل رجل ، ولو لم أكن راغباً في ذلك لما طلبت يدك!

ـ لماذا؟

واتسعت الدهشة في عينيه وهو يبحث عن رد يقوله ، مسح على شعره بحركة سريعة :

ـ لأني أبحث عن امرأة أستقر معها ، امرأة تعرف مسؤولياتها إزاء

زوجها وواجباتها عليه .

- هل أنا تلك المرأة التي تقصدها؟

- أجل ، أشعر أنك تلك المرأة التي أقصدها!

- لكني كسيحة ، لن أستطيع أن أتمشى معك في شارع ما ، ولن أوجد معك في الأماكن العامة كما تفعل امرأة مع زوجها!

- ستكونين زوجتي ، وهذا أهم شيء!

هل كان يعي ما قاله؟ خيل إليه أنه يرد على الأسئلة بأجوبة سخيفة ، مع ذلك كانت تنظر إليه بعمق كأنها تريد أن تصدقه .

- أنا اخترتك بعقلي ، ولا تظني أنني أفعل ذلك لو لم أكن مقتنعاً أنك من بيت يرفع رأس أي رجل ، وأرجو أن أقدر على إسعادك! ولا أريد أن تظني لحظة أنني فعلت ذلك شفقة بك ، ربما أنا الذي يستحق الشفقة أكثر منك!

ظلت تنظر إليه طويلاً غير مصدقة ما سمعته ، أيمكن أن يكون اختارها عن رغبة في مقاسمته حياته؟ كانت تنظر إليه كأنها تراه لأول مرة ، تنظر إلى جسمه النحيل ، وطوله الفارع ، وتلك النظرات العميقة التي تخيفها وتدهشها! كانت جالسة في مكانها صامتة ، وكان قبالتها مطأطئ الرأس ، متعباً ، أحس أنه قال لها أشياء كثيرة ، بعضها صادق وبعضها من باب الرد المهذب على الأسئلة ، لكنه اكتشف انه اعترف لها تحت السطور بحاجته إلى من يحبه بصدق ، ويخاف عليه بصدق ، وأنه عندما قال إنه الذي يستحق الشفقة ، كان يعني تلك الجملة التي أذهلته هو نفسه . لأول مرة يشعر أنه أصبح مكشوفاً أمامها ، وأنها لسبب غريب ابتسمت له كمن يقول له : أصدقك! انتبه لخضر أن والدها أعطاه نصف ساعة كاملة ، وأنه ربما لم يكن بعيداً عن الباب ، قد يكون استمع إلى الكلام الذي دا

بينهما ، فقد ساد الصمت ، ودخل الأب مبتسماً كأنه يبدي فرحته بما سمعه! كان الأب سعيداً وهو يرى ابتسامة ابنته التي بدت راضية أخيراً بنصيبها ، وكان لخضر لسبب غريب يشعر أنه بحاجة إلى الخروج ليتنفس الهواء . بدا مرتبكاً وهو يصافح مضيفه بخجل ويودع حماته أمام الباب ويغادر ركضاً!

وجاء موعد العرس . .

كان زواجه حدثاً مهماً في الحي ، فقد أحس بأن الجميع فرح لأجل السي الطيب أكثر مما فرح لأجله هو . كان يبدو الرجل المناسب لفتاة حاولت تجاوز إعاقتها بفرحة أرادتها صادقة ، ربما لأنها تمنت أن تكون سعيدة مع شخص اختارها زوجة له عن قناعة أنها الأنسب كما قال ، وكانت ترى في ذلك عزاء لها رغم كل شيء ، وأحست أن عليها أن تبدو ستهجة لأجل والديها ، وأحست أنها تبذل جهداً كبيراً لئلا ينظر الآخرون إلى رجلها المعاقة . حتى لخضر بذل الجهد ذاته كي لا ينظر إلى تلك الرّجل التي كانت تجرها بصعوبة . حاول أن يبتسم ابتسامة صادقة . تساءل هل هذا هو الزواج الذي كان يحلم به منذ سنين؟ قبل سنين أراد فتاة مستحيلة كالفرح! نجاة! هل فكرت فيه يوم عرسها ليفكر فيها هذه الليلة؟ شعر بحزن دفين وهو يتخيل حياته لو كانت زوجته اليوم هي نفسها تلك الصغيرة التي حركت مشاعره أول مرة؟ لو كانت هي هل كان سيقف ساهماً وغير قادر على التلفظ بكلمة واحدة؟ هل كانت ستبقى جالسة تنظر إلى الأرض كأنها تبحث عن إبرة ضاعت في كومة من القش؟ قال يحاول أن يبدو صادقاً :

ـ أتوقع أنك تعبت اليوم ، أنا نفسي تعبت جداً!!

ـ نعم ، أنا متعبة جداً!

ـ وأنا أيضاً متعب جداً!

هل هذا حوار يليق بليلة كهذه؟ قالها في نفسه وهو يرتمي على السرير ويغرق في نوم عميق! لا ينكر أنه حاول أن يكون زوجاً جيداً ، عن حاجة إلى الشعور أنه أقل وحدة مما كان عليه من قبل . في نظر الآخرين أصبح متزوجاً وأكثر قدرة على الاستقرار ، وكان يريد أن يعطي هذا الانطباع للجميع ، بما في ذلك في عمله في الجامعة الذي غاب عنه أسبوعاً متظاهراً بالمرض . لم يشك أحد أنه سيغيب أسبوعاً ليتزوج ، ولم يكن يشعر أن عليه إخبار زميله في المكتب الذي ابتسم ابتسامة كبيرة وهو يراه يدخل بعد غياب أسبوع ، وإن استغرب أنه لا تبدو عليه عوارض المرض ، قال له وهو يضع مجموعة من الملفات أمامه :

ـ العمل بانتظارك يا عزيزي ، ونحن في الأسبوع الأخير من السنة الجامعية ، يجب أن ننتهي من هذا الكابوس!

كانت الامتحانات في أوجها وقد هدأت التوترات داخل الجامعة لتنفجر خارجها ، فقد بدأت الصحف تتكلم عن بوادر حرب أهلية بين الإسلاميين الذين كان واضحاً أنهم بدأوا في التنظيم فيما بينهم ، وبين تيارات أخرى كانت ترى في صمت الدولة أمام تصاعد التشدد الديني تواطؤاً غير معلن! أليس هذا ما قاله الباهي في مقالته التي اتهم فيها الدولة بالعمل على حماية مصالحها على حساب مصالح الشعب؟ كان المقال شديد اللهجة إلى درجة أنه أثار غضب مسؤوليه ، الذين طلبوا منه الحضور ليطرحوا عليه أسئلة بدت له غريبة ، ربما لأنه لم يكن يعرف كيف يرد عليها ، فقد استطاع الباهي هذه المرة أن يتحدى احتكار السلطات للصحف وينشر عبر الانترنت ، تلك النافذة الجديدة التي صارت تستهوي المعارضين الجدد ، بمن فيهم الإسلاميون ، والليبراليون واللائكيون على حد سواء

فجأة اكتشف الجميع لعبة الانترنت التي لم يكن يفهمها أغلب الناس، فالانترنت كان يحتاج دائماً إلى المال لتصفحه، وهو ما لم يكن في متناول الفقراء الذين كانوا يطاردون الخبز كي لا يطاردهم الجوع! لكن المترفين يجدون الوقت لذلك، وكان الباهي واحداً منهم. أليست تلك هي الحقيقة؟ أصبح الباهي يحكي عن خبز الفقراء وأمنهم عبر الانترنت لتصل مقالاته إلى أبعد نقطة في الأرض، لم يعد يحتاج إلى الجريدة ليقول رأيه فيها، لقد استطاع أن يتحدى الجميع ويصنع لنفسه اسماً صحفياً تنشر له المواقع الأجنبية بكثير من الاحترام، لأنه نقل إليهم صورة الصحفي الجسور القادر على تحدي سلطة العسكر ويكتب! قال له مسؤوله وهو ينظر إليه:

ـ لقد حان لك أن تتحرك نحو حل يرضي الجميع!

وقبل أن يستوعب خضر الكلمة أضاف:

ـ لديك مهمة إيقاف صوت الباهي، ولن أقبل بأي خطأ في هذه العملية! أتركك تضع الخطة لذلك وأنا واثق أنك لن تخيب ظننا!

ـ أنا تحت أمركم يا سيدي!

ـ أوامرنا واضحة إذاً!

الأوامر المبهمة التي تأتي على شكل جملة مليئة بالخطر، فقد صارت الفوضى سيدة الأشياء داخل البلد، وأصبح الحديث عن القتل حديثا يومياً. جرائم القتل المتكررة صارت اعتيادية، وزيد عليها القتل المنظم الذي كانت صورته تتبلور شيئاً فشيئاً، بعد أول شخص سقط برصاص كتبت عنه الصحيفة «رصاص إرهابي»!، كان يومها في البيت عندما اتصل به جعفر ودون مقدمات طلب منه الحضور حالاً. كانت الساعة تقارب التاسعة ليلاً. نظر إلى زوجته وقال:

ـ سأذهب . لن أتأخر!

ـ سأنتظرك لنتعشى معاً!

ـ لن أغيب!

قالها بابتسامة أرادها مطمئنة ، لكنه في قرارة نفسه كان يشعر بالخوف ، فلم يتصل به جعفر على البيت من قبل ، ناهيك عن أنه لم يكن يتوجه إليه بالكلام منذ شهور . ذهب وهو يحاول أن يرتب أفكاره ، وزاد من خوفه أنه رأى جعفر مع ثلاثة أشخاص لم يرهم من قبل يقفون غير بعيد عن البوابة الرئيسية ، عندما أقبل نحوهم قال جعفر بصوت حاد يأبى الاعتراض :

ـ هيا بنا الآن!

دفعه جعفر بقوة كادت تسقطه أرضاً ، وفهم أن عليه الركوب معهم في السيارة التي انطلقت بسرعة نحو وجهة مجهولة ، فهم أن حاجة جعفر إلى رجال إضافيين جعلته يتصل به ليكون معهم ، وكان يفكر طوال الطريق إلى أين تقودهم السيارة . . فكر أن يطرح السؤال لكنه تراجع متيقناً أنه لن يجد رداً ، وخفق قلبه وهو يفكر أنه ذاهب إلى مهمة طارئة ، وأحس أنه بحاجة إلى معرفة نوع المهمة التي هم ذاهبون إليها ، فقد بدا الرجال أكثر هدوء وكأنهم على علم بما ينتظرهم ، بينما ظل هو يتململ في مقعده . فكر هل هي مهمة خاصة أم أنه اجتماع طارئ عليه حضوره في مكان ما؟ وبدأ الخوف يتصاعد في داخله . طوال الأشهر الماضية ظل يتجنب استفزازات جعفر الكثيرة له ، كي لا يتصادم معه ، رافضاً الدخول معه في عراك خاسر . كان يعي أن جعفر من النوع العدواني الذي يرفض الهزيمة ، وقد اعتبر من البداية وجوده أمراً غير مقبول ، وزاد حقده عليه بعد الترقية التي جاءت كصدمة عنيفة له كشفت عن مدى عدوانيته وقدرته

على الأذى . كان يخاف أن يكون ضحية رجل حقود قد يطلق عليه الرصاص بحجة الدفاع عن النفس . كان يرفض هذه الميتة التي تتعارض مع أفكاره ومع ما يراه استحقاقاً حتى في حالة الموت . يرفض أن يطلق أحدهم النار عليه كمن يتخلص من ذنب كريه! كانت تلك المخاوف كافية ليشعر بالحذر ولتزداد حواسه يقظة كلما كان يخرج من البيت أو يعود إليه . وها هو اليوم معه في السيارة ذاتها ، نحو جهة مجهولة . قال أخيراً كأنه يطرح سؤالاً عادياً :

ـ هل من الممكن أن أعرف إلى أين نحن ذاهبون؟

نظر إليه الرجل الذي كان قريباً منه ، نظرة مليئة بالسخرية ، والتفت إليه الرجل الذي كان جالساً أمام جعفر في المقعد الأمامي ، كأنه يلحظ وجوده لأول مرة ، بينما ظل جعفر يحدق فيه من المرآة الأمامية العاكسة للمقعدين الخلفيين . ولم يرد أحد على سؤاله ، وبدأت السيارة تخفف من سرعتها قليلاً ، وعندما توقفت قال جعفر مخاطباً الرجل الذي كان جالساً بجانبه :

ـ سننزل هنا وننتظر!

نزل الرجال من السيارة في عتمة الليل ، كان المكان خالياً ومعتماً . شعر لخضر بالرعب من جهله لما يدور حوله ، قال يخاطب الرجل الذي كان جالساً بجواره طوال الطريق :

ـ هل ممكن أن تشرح لي ماذا سننتظر؟

ـ اسأل السي جعفر!

قالها وهو ينظر إليه . كان يعرف أنه لن يسأله . بدا وكأن جعفر يستعيد دوره القديم في القيادة ، يحاول إذلاله أكبر وقت ممكن طوال هذه الليلة التي تبدو طويلة وغير منتهية . قال أحد الرجال يخاطب جعفر

بصوت مليء بالوقار :

- ماذا لو لم تمر السيارة من هنا؟ ماذا لو غيرت مسارها في آخر لحظة؟

- معلوماتنا دقيقة ، والسيارة سوف تمر من هنا بعد نصف ساعة على الأكثر!

قالها وهو يلتفت إلى الجهة اليسرى ، حيث توقفت سيارة خرج منها ثلاثة رجال ركضوا نحوهم . قال جعفر يخاطبهم بصوت حاد :

- هل وصل؟

قال أحد الرجال الثلاثة على الفور :

- نعم هنالك حاجز أمني غير بعيد من هنا ، وسوف ننصب حاجزاً هنا ليكون الأمر بديهياً!

- بسرعة!

لا يذكر لخضر كيف تم نصب الحاجز بتلك السهولة واليسر ، فلم يكن الرجال بحاجة إلا إلى حواجز كانت موضوعة غير بعيدة من المكان ، وكان الأمر يوحي بأنه حاجز أمني روتيني . تلك أول مرة يشارك في شيء لم يستوعبه عقله المكتظ بالأسئلة . هل كان واعياً وقتها لخطورة الموقف والسيارة الغريبة تقترب من المكان بسرعة فائقة ، كأنها تحاول أن تتجاوز خطراً استشعرته عن بعد . سمع طلقات النار وارتبك جداً وهو يركض ليختبئ خلف شجرة كانت قريبة منه ، ودوى الرصاص من كل جهة لربع ساعة ، حتى من السيارة الثانية التي كانت ترافق السيارة الأولى ، ولم يتوقع جعفر ردة الفعل الشرسة من السيارة الثانية إلا أنه أمر بمواصلة إطلاق النار ، وركض نحو إحدى السيارات وانطلق بها تاركاً الرجال يكملون العملية . كان لخضر يرتعش من الرعب وهو يتحسس مسدسه ثم بدأ في إطلاق النار ، وفجأة هدأ كل شيء كما بدأ ، وبدأ الرجال في

الركض ، ووجد لخضر نفسه يسرع لركوب السيارة التي همت بالانطلاق . كانوا يلهثون جميعاً ، ينظرون إلى بعضهم بابتسامة مؤذية؟ اكتشف لخضر أن أحد الرجال أصيب وكان الدم ينز من بطنه . قال بصوت مليء بالرعب :

ـ يجب نقله إلى المستشفى . سيفرغ من دمه لو أبقيناه هكذا!

ولم يرد عليه أحد . استمر السائق في القيادة بسرعة فائقة ، وقبل أن تدخل السيارة الشارع الرئيسي خيل إليه أن تنفس الرجل المصاب قد خف ، وعيناه صارتا جاحظتين . كان واضحاً أنه انتهى! قال بصوت مليء بالرعب :

ـ أظنه مات!

ـ أتركه يموت! وكف عن النباح بهذا الشكل!

قالها سائق السيارة بصوت غاضب جعله يتوقف عن النباح ويتململ في مقعده خائفاً وخائراً . كانت الساعة قد اقتربت من الرابعة صباحاً . توقفت السيارة قرب مأرب معتم ، نزل السائق واقترب من أحد الرجال الذي كان واقفاً ، تكلم معه بضع كلمات ثم عاد إلى السيارة يقول :

ـ انزلوا . سنترك السيارة هنا . وعلى كل واحد منكم العودة إلى بيته بطريقته!

كان الشارع بعيداً عن البيت مسافة ساعتين مشاها لخضر يخفي رعشته الكبيرة . ها قد شهد عملية لا يعرف كيف يفسرها أو يسميها ، هل كانت تصفية حسابات بين أشخاص كان يجب القضاء عليهم؟ فكر طويلاً وهو يمشي في شارع خال وموحش . شعر أن الأمور بدأت تتعقد بالنسبة إليه ، واكتشف أنه تورط للعمق في شيء لم يعد قادراً على استيعابه جيداً ، وقد تحول إلى مجرد أداة للأذى لا أكثر! شعر بالغضب

الشديد وهو يتذكر جعفر الذي هرب تاركاً الرجال لمصيرهم، وشعر بالغضب أكثر بعد أن استعاد جعفر مركز الزعامة عليه. نجاح تلك العملية أعطاه مدخلاً خاصا لدى المسؤولين الذين رقوه في منصبه وجعلوا بقية الضباط الصغار يشتغلون تحت أوامره. كانت تلك أكبر أسباب الخيبة التي شعر بها لخضر وهو يعود للعمل تحت إدارة جعفر، الذي صار أكثر قسوة وقدرة على الأذى من ذي قبل. كان لخضر تعيساً وهو يتحول إلى مجرد عامل في مجموعة رجال يؤدون عمليات حساسة وخطيرة. يساهم في حرق المستودعات التي يتم اختيارها، ويساهم في عمليات الاغتيال التي يتم تحديد ضحاياها. لم يكن يطلق النار على الضحية، لكنه كان يوجد ساعة القتل، ويشعره ذلك بالجريمة ضد شخص لا يعرفه، إلى أن تنشر الصحيفة اسمه وهويته، وسطوراً يحمّل فيها كاتب المقال جماعات إرهابية مجهولة جريمة الاغتيال. في ظرف أشهر أصبحت المدينة في حالة خوف شديد بعد تزايد التصفيات الجسدية ،ة وعدد الأخبار المنشورة في الصحف عن الإرهابيين الذين يريدون الإساءة إلى النظام العام، وإن لم يكن يتم تحديد هويتهم إلا أن الأمر كان سيان بالنسبة للناس الذين فقدوا أمنهم. هل ينسى لخضر تلك المرحلة التي غرق فيها للعنق. لم تكن العطلة الجامعية سوى كابوس بالنسبة إليه وهو ينغمس يوماً بعد آخر في عمليات قذرة أفقدته القدرة على التمييز بين الأبرياء والمذنبين، وبين الحقيقة والخيال. كان أحياناً يخيل إليه أنه يعيش كابوساً رهيباً، وأنه سيستيقظ منه ليجد نفسه في فرشته القديمة البالية على وشك النهوض لأداء عمله في الميناء! أحس أنه يفقد إنسانيته التي كان يبذل جهداً ليظهرها للآخرين. يعود إلى البيت مكسوراً وغير قادر على الكلام، غارقاً في صمت مميت، ولم تكن زوجته لتتكلم أو تقول شيئاً تعرف أنه لن ي...

عليه . قالت له ذات يوم محاولة أن تخرجه من حالة الذهول التي أحاط بها نفسه :

ـ أريد أن أزور أبي . .

شعر بالصدمة وهي تقول ذلك ، كأنها لتذكره أنه لم يعد يزوره! أضافت بالصوت نفسه :

ـ عندما كلمت والدتي في الهاتف أخبرتني أنه تعب أمس ، وأظن أن من واجبي أن أراه!

ـ نعم . . أكيد!

ـ متى سنذهب؟

ـ لدي شغل كثيف هذه الأيام ، ولا أظنني قادراً على القيام بزيارة مجاملة!

ـ لكن الجامعة في عطلة!

وارتبك أمام جملتها الأخيرة وهو يمسح على شعره . كان يعرف أن غيابه عن البيت من الصباح إلى المساء يثير الكثير من الأسئلة لديها ، وإن لم تفصح عن أسئلتها فكان يكفي النظر إليها ليفهم أنها تريد أن تعرف ما الذي يجري؟ وعندما تردد في الرد قالت بصوت بالكاد يسمع :

ـ ألست في عطلة؟

ـ لكني أشتغل . لقد وجدت عملاً آخر أؤديه في العطلة . نحتاج إلى مصاريف كي لا نموت جوعاً!

قالها وهو ينظر إليها نظرة حادة جعلتها تطأطئ رأسها فجأة :

ـ أعرف أن دوائي مكلف ، وأعرف أنني تحولت إلى عبء عليك!

قالتها وهي تقف من مقعدها مستندة إلى عكازها . كان يبدو حزيناً وهو يلتحق بها . هل كانت تستحق كل هذا الجفاء؟ قالها في نفسه وهو يمد

يده ليساعدها على الجلوس على السرير. قال يبذل جهداً في الكذب:

- المشكلة ليست أنت طبعاً، بل في الوضع العام. أنا أعمل لأجل ضمان مستوى معيشي جيد لي ولك ولأبنائنا في المستقبل، وعندما وجدت عملاً إضافياً في العطلة لم أتردد في القبول به، لأني أريد أن أعتمد على نفسي في تأمين حياتنا. أنت زوجتي ومسؤولة مني. أريد أن تكوني مرتاحة!

- وهل أنا مرتاحة حسب رأيك؟

- أعرف أنني مقصر كثيراً معك في الفترة الأخيرة، لكن صدقيني، ليس في حياتي أهم منك!

هل هو من قال كل هذا الكلام؟ فكر في أنه يبدو قادراً على الكذب ولو من باب قول شيء يريد أن يقوله للتبرير. نظرت إليه كمن يريد أن يصدق كلامه. وعندما ضغط على يدها ابتسمت رغماً عنها وهي تسأله:

- هل ستأتي معي لرؤية والدي؟ فقد سأل عنك كثيراً في الأيام الماضية. لا أريد أن يشعر أنك لم تعد راغباً في زيارته لأي سبب كان!

- أنت تعرفين مكانة والدك عندي، وتعرفين أنني أحبه واحترمه.. سآتي معك لرؤيته!

كانت جملته الأخيرة أشبه بالهدية المفاجئة التي وشحت وجهها بفرحة عارمة. شعرت أنها مرتاحة لأن مخاوفها لم تكن في محلها، فقد خشيت أن تكون ثمة امرأة أخرى في حياته، وإن بدت لها تلك المخاوف سخيفة، إلا أنها كانت ترعبها وهي تفكر أنه لن يحتفظ بها لو كان ثمة بديل مناسب بالنسبة إليه. بدت وكأنها صدقت كل ما قاله لها، وسرّه أنه لم يكن مضطراً إلى قول أكثر من ذلك. كان يريد أن يتخلص من التبرير بقول أشياء قابلة للصدق، وكان يشعر أنه يكذب على نفسه أيضاً

بطريقته نفسها في الكذب على الآخرين! ذلك الشهر حدث ما توقعه لخضر كثيراً ، فقد كان الهدف هذه المرة الباهي الذي عاد إلى البلد بعد أن غادرها للمشاركة في ملتقيات دولية حول الحرية والإعلام ، كانت صدمته كبيرة عندما أخبره المسؤول أن المهمة أوكلت إلى جعفر الذي كان في ذروة نشاطه الإجرامي . شعر بالغضب يتحول إلى كراهية عميقة ضد جعفر ، وضد المسؤولين الذين لم يعد قادرا على الوثوق فيهم وفي وعودهم له ، منذ حولوه إلى ضابط يشتغل تحت أوامر جعفر تحديداً مع أنهم كانوا يعلمون ـ طالما يعلمون كل شيء ـ أنه يمارس عليه حالة من الإذلال غير المقبول . يعترف لخضر بينه وبين نفسه أنه تأثر كثيراً عندما علم من أحدهم بالطريقة التي تم بها اغتيال الباهي بعد أن اختطفته إحدى الجماعات ، وأصدرت بياناً مليئاً بالآيات القرآنية تتبنى فيه عملية الاختطاف لتبرر طريقة القتل . . قتل الزنادقة والملحدين! تم العثور على رأسه بعد أسبوع غير بعيد من مقر بيته . لم يعثر أحد على جثته ، وقد كتب على جبهته بدمه : الله أكبر! كان لخضر يعرف جيداً أن نهاية الباهي ستكون مأساوية . . اختلطت الأمور في رأسه وهو يبدو في حالة من الذهول قبالة حجم الضغينة التي استوطنت الأنفس والأرواح ، وشعر بالذنب لأنه ساهم في اغتيال الباهي الذي تم اختطافه أول الأمر ، قبل أن يتم إعدامه بتلك الطريقة الشنيعة! كان المشهد مروعاً للجميع ، ولسي طيب الذي انهار تماماً بعدها وقد أصيب بشلل نصفي ، بينما غرقت نجاة في حزن عميق على أبيها ، وعلى صديقه الذي كانت تعتبره والدها الثاني مثلما كان يعتبرها ابنته التي لم ينجبها! وكان لخضر يمارس بينهما دور المعزي الذي يرى أن من واجبه الحضور لرفع معنويات المحبطين! شعر أنه بلغ درجة الرياء مطلقها! ضائعاً وسط غابة من المجرمين الحقيقيين والمجرمين الافتراضيين ، وكاد

يغرق في حالة من اليأس لولا أن شيئاً أنقذه . اعترفت له نجاة بصوت خال من الفرح أنها حامل ، وظل ينظر إليها طويلاً قبل أن يبتسم فجأة . حامل؟ كانت عبارة «أنا حامل» ترن في أذنيه جميلة وعذبة ، وشعر فجأة أنه لم يفقد الأمل تماماً ، وأن ثمة شيئاً جميلاً قادماً ليغير في حياته . لأول مرة يتساءل بينه وبين نفسه : هل يمكنني أن أعود رجلاً عادياً خالياً من الخطايا ، كأي أب ينتظر مولوده ليقاسمه أحلامه الجميلة والبسيطة؟ لكنه صعق عندما أخبرته أن الطبيبة لا تشجعها على الحمل لأن صحتها لن تحتمل ، وانهارت أحلامه . لم يقل شيئاً ولأنه بدا مصعوقاً قالت له بصوت أرادته مقنعاً :

ـ لن نأخذ أكثر من نصيبنا في الحياة ، والحمل لن أتنازل عنه لأي سبب كان!

ـ لكن . . ماذا لو كان خطراً عليك كما قالت الطبيبة؟

ـ الطبيبة لن تعلم بالغيب ، أنا متكلة على الله ، ولن أتنازل عن ابني!

قالت ابني بصوت بدا له حنوناً ودافئاً ، ابتسم رغما عنه وهو يضغط على يدها بتلك الطريقة التي تجعلها تنظر إليه وتبتسم ابتسامة صغيرة وراضية . لم يخف خوفه فيما بعد والحمل يبدو أكثر صعوبة وإرهاقاً لها ، لكنه لم يعبر عن رأيه منذ أن قررت الاحتفاظ بابنها على حساب صحتها . فكر بعدها طويلاً متسائلاً ، أيهما كان أحق بالتفكير ، زوجته أم ابنه الآتي؟ لم يكن يشعر أنه ارتكب جرماً عندما أراد ابنه حتى وهو يستوعب أن ابنه قد يأتي على حساب زوجته ، التي بدت وكأنها تمنحه شيئاً يسعده!

-٢١-

مرت الأشهر سريعة ، وكان لخضر يعيش حالة من الهذيان بين الجامعة وعمله الثاني الذي بدا أكثر وطأة عليه من ذي قبل ، بعد أن صارت الأمور مأساوية في البلد ، وصار الموت لا يفرق بين البسطاء وبين المذنبين ، حتى وهو يستوعب أن ثمة جماعات حقيقية صارت تستغل الفوضى لترتكب الجرائم التي تنشرها الصحف يوميا ، لإثارة تلك المخاوف من ذلك القاتل الافتراضي الذي يتربص بالجميع خلف السور أو أمام البيت أو فوق الشجرة ، ليطلق رصاصته على الضحية كيفما كان اسمه أو موقفه من الحياة كلها! وإن هدأت الجامعة منذ الدخول الجامعي الجديد فلأن العنف انتشر في كل البلد ، ولم يعد مهماً بعدئذ أن تتبناه الجامعة بين الحين والآخر على شكل مظاهرات أو مصادمات مستمرة! كان لخضر يعي أن هؤلاء الشباب ضحية كبيرة بين أيدي الكبار ، الذين صاروا يتحكمون حتى في شعاراتهم وتوقيت إطلاقها ، ومع ذلك كان يشعر بالخوف على نفسه فجأة ، فقد يكون ضحية من الضحايا بعد أن طالت الاغتيالات النساء ، بعضهن عاملات بسيطات قتلن بسبب غطاء الرأس . قالها جمال ذات يوم بصوت مليء بالغضب :

ـ هل الإسلام يأمر بالقتل بهذا الشكل؟

ولم يرد ، كان ينظر إليه نظرة ثاقبة جعلت محدثه يقول

بصوت مليء بالضجر :

- لم يعد ثمة مجال للبقاء ، أفكر في الرحيل من هنا . هذا هو المفر الوحيد!

- ترحل؟

- أجل . لدي قريب يقيم في تونس ، وعدني بعمل هناك! سآخذ زوجتي ونستقر هناك!

- تونس؟

- تونس هي الخيار الوحيد الذي لدي يا صديقي . .! لست من الأغنياء كي أفكر في الرحيل إلى باريس أو لندن . . تونس تبقت للفقراء فقط!

- هل يمكنك مغادرة البلد الذي عشت وتربيت فيها حقاً؟

- أجل . . يمكنني مغادرتها إن لم تكن تصنع سوى المآسي . . الحياة أفضل من الموت!

كان لخضر يدرك أن البلد لم تعد صالحة للحياة ، لكنه شعر برغبة في التسلية في حوار عقيم وغير مثير . . ها هم الناس يحلمون اليوم بالرحيل عن رغبة في الحياة ، في الماضي كانوا يحلمون بالهرب رغبة في العمل وفي تغيير حياتهم نحو الأفضل . لكن الرحيل اليوم صار مرتبطاً بالنجاة فقط! لسبب غريب لم يعد يحلم بالرحيل ، صار راغباً في البقاء! هل لأن الموت استوطن فيه؟ لم يكن قادراً على التعايش مع الفرح منذ فقد القدرة على التعايش مع الحياة نفسها . فما الذي سيعنيه في الرحيل؟ لا شيء ولا أحد! كان يريد أن يبقى لأجل ابنه الذي حين حانت ساعة ولادته دعا الله أن يولد سليماً ومحباً للدنيا . لأول مرة يجد نفسه يدعو الله لأجل شيء يعنيه . فكر أن الحياة قد تتغير بميلاد ابنه ، وأنه قد يتحول إلى أب

جيد بعد أن عجز على أن يكون زوجاً جيداً . كان يخيل إليه أنه يريد أن يكون قريباً من ابنه ، وأن يمنحه الأمان الذي عجز جيل كامل عن الحصول عليه ، وكان سعيداً بفكرة أن ابنه سيكون جميلاً ، وسيحبه كما يمكن لابن أن يحب أباه! أدرك أن شعوره الجديد نتج عن حاجته الماسة إلى شيء يحسسه أنه ليس عاطلاً عن الحلم والحب . . فكر طويلاً وقتها في والده ، وشعر أنه لن يكون كأبيه قط ، فوالده لم يحبه كما كان يجب أن يحب أب ابنه ، ولو أحبه لكانت حياته مختلفة! هل كان سيعيش هذا القدر العجيب لو أحبه والده؟ ها هو سيصبح أباً . تخيل وجه أبيه لو رآه اليوم ، وتخيل تلك الابتسامة الساخرة التي كانت ترتسم على وجهه حين يريد التقليل من شأنه! «لن أكون كأبي . . سأربي ابني على الحب» قالها بينه وبين نفسه ، وبدت عبارة «الحب» مثيرة ومدهشة . هل يمكن أن يربي ابنه على الحب حقاً؟ هل يمكنه أن يربي ابنه على حب الناس والعمل على إسعادهم؟ ألم يتسبب في تعاسة الآخرين؟ حتى زوجته التي حاولت إرضاءه بالولد لم تكن سعيدة معه ، ففي غياب الحب وحوارات الحب من الصعب أن يكون ثمة حياة مشتركة ، وكان يدرك ذلك جيداً ولا يحاول الاقتراب إلا ليبتعد أكثر! هل بعد هذا يمكنه أن يعلّم ابنه الحب؟ ابنه الذي جاء بعد عملية وضع عسيرة . بقي منتظراً يؤدي دور الأب الشغوف ، أمام السي الطيب الذي رغم وضعه الصحي جاء إلى المستشفى متكئاً على زوجته . كان شاحباً وخائفاً على ابنته بعد أن أفصح الطبيب بوجه عابس أن الحمل كان خطأ من البداية! وبقيت والدتها تدعو لها في صمت . قال السي الطيب باذلاً جهداً واضحاً للكلام :

- إن شاء الله تمر الولادة على خير!

ولم يرد عليه أحد . كان الجو مكتئباً ومشحوناً . هل فكر لخضر في

زوجته كما كان يمكن لرجل أن يفكر في زوجته؟ لم يقل لها كلاماً جميلاً كما توقعت أن تسمعه منه ، بمجرد أن شعرت بألم الطلق حتى ركض نحو الخارج لجلب سيارة أجرة ذهبا فيها معاً إلى المستشفى . كان صامتاً طوال الطريق وسائق السيارة يثرثر بكلمات لم تكن تعني أيا منهما . . كانت خائفة وكان هادئاً بشكل غريب . وقبل أن تدخل إلى غرفة الولادة سمعها تردد آيات قرآنية بصوت مرتعش . وعندما رفعت عينيها إليه لم تقل شيئاً ، وتفاجأ بأنه لم يقل شيئاً أيضاً .

يذكر جيداً عندما خرجت الطبيبة شاحبة«وهي تنظر إليهم نظرات مليئة بالذهول . . اقتربت من السي الطيب وقالت بصوت بدا مفجع»! :

ـ من البداية كان الحمل خطراً عليها!

ـ كيف حالتها يا دكتورة ، طمئنينا!

ـ لا يمكن الرد الآن ، المولود بخير ، لكن الولادة كانت صعبة جدا!

قالتها وهي تضيف بالنبرة نفسها الحادة :

ـ ما كان يجب أن تستمر في حملها من البداية!

قالتها وهي تبتعد عنهم . كانت الأم في حالة ذهول والأب غير قادر على التعليق ، وكان قبالتهما واقفاً غير قادر على الكلام . فكر كثيراً وقتها أنه يتحمل في نظر الجميع مسؤولية ما حدث ، لكنه كان يدرك أن الجميع يعرف أحقيته في أن يكون له ابن ، فهو لم يتزوج عن حب ليعيش مكتفيا بامرأة يريدها ولا يهمه أن تنجب أو لا تنجب . كان يعرف في قرارة نفسه أنه لن يكون مُداناً في نظر الآخرين ، لأن الجميع سيقول إنها ما كان عليها أن تتزوج وهي مريضة! فجأة بدت التفاصيل في صالحه ، ولم يشعر بشيء يحرك ضميره ، إلا عندما أخبرته الممرضة في مساء اليوم نفسه بصوت مليء بالحزن :

ـ أسفة ، فارقت الأم الحياة ، مع أن الأطباء حاولوا كثيراً!

قالتها وهي تنظر إليه بحزن صادق ، ولم يرد بشيء . شعر بحزن عميق يتسلل إلى قلبه ، ودون وعي وجد نفسه يجهش بالبكاء! هل كان يبكي ابنه أم نفسه أم زوجة أرادت أن ترضيه إلى اللحظة الأخيرة . زوجة لم يعرف كيف يشكرها . . زوجة تركت له ابنها وذهبت . شعر فجأة بالفراغ وهو يكتشف أنه لا يمكنه الاحتفاظ بابنه ، فقرر أن يحمله إلى جديه ليرعياه نيابة عنه . شعر أن العمل فقط من يقدر على انتشاله من حالته تلك ، وقد دخلت البلد باب المأساة الوطنية كما تصفها الصحافة التي باتت تنشر يوميا أخبار المجازر ، والقتلى . كان للقتلى العينان المتسائلتان نفسهما عن سبب القتل ، وكان للقاتل الظل نفسه ، والاسم نفسه : إرهابي! تساءل : أليس إرهابياً هو أيضاً؟ هو الذي أحياناً يقوم ببعض المهمات مع الرجال الذين يتم اختيارهم بدقة . كانوا ينفذون الأوامر دون أدنى شك أنها الأوامر التي يجب تنفيذها ، بحيث لم يكن ثمة من يسأل عن السبب . كانوا ينفذون ويعودون أدراجهم بضمائر مرتاحة ، وكانوا يعرفون أنهم يتقاضون راتباً جيداً على كل ما يقومون به . ألم يكن لخضر جزء من هذه الدائرة المهولة من العملاء ومن القتلة؟ كان يعرف أنه أداة طيعة بين أيدي رؤسائه ، وبين أيدي جعفر الذي ترقى في عمله ، وأصبح أكثر تمادياً في إهانته . . عندما استدعاه ذات مرة إلى مكتبه ، شعر بالرعب من لقاء مباشر كهذا . دخل المكتب بخطوات مترددة ، ومع أنه دخل إلى وسط المكتب إلا أن جعفر لم يرفع رأسه له كأنه لم يره . ثم في الأخير قال له بصوت حازم :

ـ هيا بنا!

ولم يفهم لخضر إلى أين ، لكنه تبعه مطيعاً للأمر . كان يشعر أنه يكره

المهمات التي يقودها ذلك الدموي ، الذي يهرب دائماً تاركاً الرجال يكملون العملية . لم يقل شيئاً وهما يخرجان من المقر نحو السيارة الزرقاء التي تعوّد على قيادتها كلما تعلّق الأمر بمهمة جديدة ، لكنه استغرب من أن لا أحد ركب معهما . تمنى لو يقدر على السؤال لكنه تراجع . فكر أن ثمة من سيلتحق بهما في مكان ما . ظل صامتاً غير قادر على الحديث ، وعندما طلب منه تخفيف من سرعة السيارة فهم لخضر أن المكان ليس بعيداً ، وعندما انحرفت السيارة نحو اليسار لاحت أمامه بناية كبيرة على شكل فيلا لم يتم الانتهاء من بنائها بعد . لكنه رأى رجالاً يخرجون من الباب الوحيد الذي كان مكتملاً . قال جعفر بصوت مليء بالغضب :

ـ بسرعة! ليس لنا وقت كثير . يجب الانتهاء من العملية قبل غروب الشمس!

كان واضحاً أنها عملية اغتيال جديدة ، وككل العمليات الدقيقة التي يشارك فيها لخضر لم يكن عليه أن يسأل . كانت الأوامر واضحة ولا تستدعي الأسئلة ، حيث إن الضحية تسكن قريباً من المكان ، وقد تمت مراقبة تحركاتها . لم يكن يعرف اسم الضحية التي ستقضي نحبها بعد قليل ، وككل مرة لم يكن يهمه معرفة الاسم ، فما جدوى معرفة الاسم بعد القتل؟ ككل مرة كانت العملية تستدعي تغيير الملابس . وشعر لخضر أن لبسه الجديد يوحي للناظرين أنه فلاح بائس قادم من تلك الأحراش غير البعيدة عن المكان . وعندما بدأت الشمس تغيب قليلاً ، رأوا سيارة من نوع بيجو تتوقف بالقرب من ذلك البيت المراقب ، واستغرب لخضر أن يرى امرأة تنزل من السيارة وتدخل البيت بخطوات سريعة ، كان معها رجلان ، أحدهما بقي في السيارة والثاني دخل خلفها إلى الفيلا . لأول مرة يشعر ببعض الخوف وهو يكتشف أن العملية لن تكون تصفية عادية ،

فعادة يتم انتظار الضحية لتصفيتها بعيداً عن الأعين ، لكن هذه المرة كيف يمكن تصفية ضحية أمام مرأى من أسرتها أو من القاطنين في البيت معها؟ وهل الضحية موجودة حقا بالبيت؟ شعر بالرعب وهو يتذكر أنه لا يعرف ما الذي عليه القيام به ، ككل مرة يجد نفسه غير قادر على استيعاب العملية ، وإن يطلق النار في الاتجاه ذاته الذي يطلق نحوه بقية الرجال فلكي يبدو مشاركاً ليس إلا ، حتى بعد أن يتوقف صوت الطلقات يظل يرتعش مكانه غير قادر على الحركة . ظل واقفاً ينتظر الإشارة التي جاءت من جهة غير بعيدة على شكل تلويحة يد من شخص كان يراقب الفيلا من الجهة الثانية ، مختبئاً خلف جدار . تحرك الرجال بسرعة وفجأة بدأت طلقات النار نحو السيارة أولاً ، ووجد لخضر نفسه يدخل باب البيت مع ثلاثة رجال وجعفر الذي ظل خلفهما . كانت العملية أشبه بحالة جنون هستيري ، وكان الرجال يركضون في أكثر من مكان ، وسمع لخضر لأول مرة أصوات نساء تصرخن . وقبل أن يستوعب شيئاً رأى أحد الرجال يطل برأسه من إحدى نوافذ الطابق العلوي ويطلق النار باتجاههم . رأى زميله يسقط غير بعيد والدم يغطي وجهه . ارتفع صوت جعفر وهو يطلب من الرجال إنهاء العملية ، وبدت أوامره غير مفهومة وهو يطلب من الجميع إطلاق النار دون توقف . وكان واضحاً أن فكرته تمثلت في ارتكاب مجزرة وليس عملية اغتيال محسوبة أو دقيقة . بدا واضحاً أن شخصا من داخل البيت كان مسلحاً ؛ فقد كان الرصاص يطلق من الجهة العليا للبناية . . صرخ جعفر يأمر أحد الرجال ليصعد إلى فوق من الجهة الخلفية ، وبعد لحظات ساد صمت . هل كانت العملية تستحق كل تلك الجثث التي كانت على الأرض؟ قالها لخضر في نفسه وهو يركب السيارة مع الرجال . كان منهاراً وهو يفكر أن العملية كانت تستهدف صحفية جاءت تزور

والدتها المريضة ، وانتهت إلى اغتيالها مع شقيقين لها أحدهما ضابط شرطة كان مسلحاً أراد حماية أخته فنسي حماية نفسه! كان شكل الدم رهيباً في مدخل البيت . عملية مسيّجة بالدماء والجثث . عملية تليق بعنوان الصحيفة في الغد . قرأ الخبر بعينين مرتعشتين : اغتيال صحفية تعمل في التلفزيون واثنين من أشقائها على أيدي إرهابيين . كان يرتعش وهو يطالع تفاصيل العملية ، كأنه يتابع جريمة لا يعرفها ولم يشارك فيها ولم يكن شاهدا عليها! كانت تلك المرحلة من المراحل التي شعر فيها أنه فقد إنسانيته إلى الأبد ، فهل كان من الممكن بعدها العودة إلى الخلف ، للتفكير في حياة قابلة للحياة؟ بعيدة عن أخبار العنف ورائحة الدم وأصوات البكاء المنبعثة من كل منزل . فكر كثيراً كم عدد الجرائم التي شارك فيها ، أو تلك التي شارك فيها أشخاص يعرفهم عن بعد ، وتلك التي ارتكبها إرهابيون حقيقيون . كان يعرف أن ثمة إرهاباً حقيقياً ، وأن هنالك جماعات مسلحة تريد التغيير بالقوة دون التفريق بين البريء والجاني . جماعات ترى أن نسبة نجاحاتها مرتبطة بعدد الجثث التي ستخلفها في طريقها ، ولا يهم وقتها أن أغلب الجثث للفقراء والبؤساء الذين دفعوا الثمن مرتين ، مرة داخل السلم ومرة داخل الحرب . كان الموت يرسم طريق بلد قاب قوسين أو أدنى من الانهيار! ولم يكن يعرف أحد لصالح من كل هذه الدماء التي تسيل . شعر أنه لم يعد راغباً في الحياة هو الآخر ، ليس يأساً إزاء الحياة نفسها ، بل لأن الحياة فقدت في عينيه جدواها ، منذ اكتشف أنه لم يعد كما كان . ففي السابق ، كانت له أشياء تفتح له أسباب الحب أو الحقد عليها ، لكنه اليوم لم يعد يشعر سوى بحيادية باردة إزاء كل شيء ، ولم يعد يشعر أن ثمة أناساً يستحقون الحياة وآخرين يستحقون الموت ، في نظره أصبح الجميع مشروع جريمة منظمة!

يذكر جيداً ذلك الخريف الغارق في الدم . كان الموت اليومي يغزل حكايات الناس ويشرع أبواب الخوف قبالتهم . كان الموت يختار الفقراء دون غيرهم ، فلم يحدث أن وقعت مجزرة أو جريمة في الأحياء الراقية التي ينام سكانها ملء الجفون والعيون ، مقتنعين أن الموت لن يقترب منهم لأن ثمة حراساً يحرسون أحلامهم إلى أن يأتي الصباح . يستيقظون من نومهم العميق ، ويرتشفون قهوتهم الصباحية ويطلعون على الجريدة على عجل ، مستاءين من الصحف التي «بهدلت» بالبلد بنشرها أخبار المجازر اليومية! مجازر لا يصدقون وقوعها! كان لخضر يعشق قضاء بعض السهرات في تلك المناطق الممنوعة عن الآخرين ، وكانت بطاقته المهنية تجعله يدخل دون أدنى إشكال ، تلك البطاقة التي سلمت إليه من مسؤول ربت على كتفيه وهو يقول له : أنت تستحق مكانك معنا! وكان لخضر يعي جيداً أنه يستحق تلك البطاقة التي صارت تفتح له الأبواب الموصدة ، بمجرد إظهارها في وجه رجل أمن أو حارس ليلي ، يتراجع إلى الخلف بوجه شاحب ويتركه يمر ، وعندما يختار قضاء سهرة ما في تلك المناطق المرفهة يكتشف أن الناس يعيشون حياة مختلفة خالية من مآسي الشعب . كان الشعب في الجهة الأخرى ممنوعاً من النوم ، وقد سمع حكايات أشخاص لم يكن بإمكانهم النوم لأنهم يحرسون أنفسهم وعائلتهم ليلاً . حتى أولئك الذين داهمهم الإرهابيون وقتلوهم ، ماتوا فاتحين أعينهم ، كمن يرفض أن يموت مغمض العينين . لكن مناطق الأثرياء مختلفة ، فهم يقضون لياليهم في السمر ، وفي الضحك وفي الشرب على نخب الحياة والأخبار الصحفية التي يتناولونها في نقاشاتهم أحياناً بتأفف ، معتقدين أن الموت لا يمكن أن ينال من الأثرياء ، لكنه ينال من البؤساء الذين لا حق لهم في الحياة أساسا لأنهم بؤساء!! في تلك المناطق يكتشف الوجه الآخر من البلد ؛

وجهاً غارقاً في الملذات ، لا وقت له لذكر الله ، ولا وقت له ليبكي على حال البلد! كان يشعر أنه لن ينتمي إلى هذه الجهة التي يدخلها ببطاقة شبه رسمية ، كما لا يشعر أنه ينتمي إلى الجهة الثانية التي كان أصحابها يسلمون رقابهم إلى القتلة باستسلام مهين . كان يشعر بالاستياء أحياناً من حدة الاستسلام التي تجعل الناس يموتون بتلك البساطة ، حتى أولئك الذين كان يساهم في قتلهم كانوا يموتون باستسلام غريب . بعضهم لم يكن يحاول حتى فعل شيء يجعل القاتل يفكر أن الضحية تستحق الحياة . كانوا يموتون برصاصة في الرأس أو القلب . يسقطون ويفرغون من دمهم ، يموتون تلك الميتة التي يعرفها الجميع . بعضهم كان يحظى بعامود في الصحيفة ، والبعض الآخر لم يكن يعرف اسمه ولا سبب مقتله . كان مجرد ضحية وجدت في المكان الخطأ ليس إلا . هل يمكنه أن يكون بعد ذلك إنساناً عادياً ليفكر في الأشياء التي يفكر فيها الأشخاص العاديون؟ هل كان يمكنه التفكير في ابنه مثلاً ، ذلك الابن الذي لم يره منذ أشهر طويلة . في آخر زيارة للسي الطيب تظاهر بأنه انتقل للعمل في منطقة أخرى . لم يكن ثمة سبب ليكذب في نظر السي الطيب الذي تمنى له التوفيق دون أن يسأله عن المنطقة التي انتقل إليها ، فقد أصبح لخضر حرا في حياته ، يعمل في المكان الذي يناسبه ، ويأتي لزيارة ابنه في الوقت الذي يناسبه أيضاً . فجأة تحول لخضر إلى شخص غريب يأتي ويغادر ، لكنه لم يكن ليعاتبه ، ربما لأنه هو نفسه لم يعد يشعر بشيء نحوه أو نحو زوجته ، ولا حتى نحو ابنه . كان مجرد زائر غير مرغوب فيه! ثم ذات يوم ، وقد جاءت الأوامر الجديدة لعملية جديدة انتابه خوف غريب من أنه لا يعود سالما منها ، وإن تحرك مع الرجال إلا أنه ظل يرتعش في داخله . فهم بسرعة أن الأمر يتعلق بشخصية مهمة ، على الأقل من خلال سور الد...

التي كانت تقابلهم . كان نباح الكلاب حاداً في تلك الليلة ، وككل مرة يتراجع جعفر نحو الخلف ويطلب من الرجال سرعة التنفيذ . كان الرجال الذين خرجوا من السيارة الثانية قد أخذوا مواقعهم حيث تحركوا بسرعة لتسلق الجدار مستعينين بالمسدسات كاتمة الصوت لإسكات الكلاب التي توقف نباحها فجأة . كانت العملية تستدعي التركيز كي لا يسقط لخضر في الخطأ الذي قد يكلفه حياته ، لم يكن يريد أن يموت ، مع أن الحياة لم تكن تعنيه ولا موت هؤلاء الذين يموتون سواء برصاصهم أو برصاص الجماعات المسلحة الحقيقية ، وإن كان هؤلاء المجاهدون يمهّدون لهم الطريق دائماً لمثل هذه العمليات التي يسميها جعفر «تطهيرية» ضد أولئك الذين يستحقون الموت في نظره ، بعضهم صحفيون وبعضهم فنانون ، وبعضهم أشخاص عاديون كان لموتهم الأكثر الكبير على البقية ، بحيث صنع موتهم خوفاً شديداً في نفوس الآخرين ، بمن فيهم أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم بمنأى من الاغتيال! كانوا يريدون أن يصنعوا من الجريمة فنا راقيا لقتل كل أنواع الأمل والحلم لدى الناس ، بحيث يمكن للشعب أن يصرخ ملء فمه : خذوا المال والسلطة واتركوا قليلا من الأمن ، لنا ولأطفالنا البائسين!

دخل لخضر مع الرجال إلى البيت المقصود ، ودوى الرصاص فجأة وإذ به يلمح جعفر يترنح ويسقط . ولم يكن وحده من سقط ، بل رجلان اخران أصيبا ، أحدهما حاول النهوض بصعوبة . استطاع الرجال القضاء على الحارسين ، وبدت العملية مستحيلة . كانت تلك أول مرة تنتهي عملية مهمة إلى هذا الفشل الذريع ، على الرغم من أنها بدت سهلة ، لكن لا أحد توقع الفشل! ركض لخضر نحو جعفر واستطاع أن يحمله بصعوبة . كان مصاباً في فخذه وفي بطنه ، وكان لخضر الأقرب من الرجال مسافة منه ، وبينما هو يحاول الخروج ؛ إذ به يلمح رجلاً آخر يطل برأسه

من شرفة البيت ، ويطلق النار باتجاههم ، ووجد لخضر نفسه يصاب بحالة من الفزع جعلته يحتمي بجسد جعفر الذي كان يحمله فوق ظهره . شعر بالرصاص وهو يصيب جسد جعفر الذي تأوه متألماً ثم غاب عن الوعي . استطاع الرجال ركوب السيارة والانطلاق بها بسرعة فائقة ، وبسرعة اختفت السيارة الثانية بينما السيارة الزرقاء ظلت تسير بأقصى سرعة حاملة ثلاثة رجال جرحى أحدهم بدا ميتاً . كان لخضر جالساً بجانب السائق الذي يلهث بصوت مفزع . نظر السائق إليه نظرة مليئة بالخوف وهو يقول :

- هل نذهب إلى المستشفى؟

واستغرب السؤال الذي بدا غير منطقي . . ابتسم بينه وبين نفسه وهو يكتشف أن القدر يساعده على التخلص من شيء مقرف ومؤذ . لم يشعر قط بالتعاطف مع جعفر الذي كان شبه ميت داخل السيارة ، بل شعر بفرحة غريبة تنفجر في نفسه ، ولأول مرة ينتابه إحساس بالفخر الشديد . لقد أدى عملية ناجحة! رد لخضر بصوت أراده صارماً :

- سوف نعود إلى قواعدنا طبعاً ، ومن هناك يمكننا نقله إلى مستشفى المركز!

هل كان ليجد فرصة أجمل من تلك الفرصة ليتخلص من جعفر جعفر الذي كانت إصابته بليغة ، فكل رصاصة تلقاها جسمه كانت عذابا كاملاً له ، هكذا فكر لخضر وهو يحمد الله أن لا أحد رآه وهو يتحد الرصاص بجسد جعفر ، فقد شهد الجميع له بالشجاعة لأنه رغم شيء هم لإنقاذ جعفر وحمله على كتفيه! وعندما تم استدعاؤه إلى مكتب المسؤول في الدور الثاني كان قلبه يدق بقوة . فكر في كل الإجابات التي يمكنه الرد بها لو سئل عن العملية التي فشلت ، وفكر أن يضع اللوم

جعفر قائد تلك العملية ، لكن المسؤول لم يتكلم عن العملية ، بل نظر إليه وهو يدخن سيجاره الكبير قبل أن يقول بصوت هادئ وعميق :

ـ قررنا أن تأخذ مكان جعفر ، فكل الآراء ترشحك لتكون خليفته!

ورفع لخضر عينيه مخفياً سعادته خلف نظرة أرادها مليئة بالدهشة ، لكن الرجل القابع قبالته ابتسم ابتسامة ذات مغزى قبل أن يقول له :

ـ ألست سعيداً بهذا؟

ـ بلى يا سيدي!

ـ سوف نقيس قدرتك في العملية نفسها التي فشل فيها جعفر ، ستكررها بنفسك ، وتختار الرجال الذين يرافقونك . الفشل سيكون مخيباً للآمال!

كان يدرك أنه لن يفشل ، ليس لأن الفشل ممنوع ، بل لأنه أراد أن يثبت للجميع أنه الأقدر على القيادة . وكان له ما أراد! ألم يصنع منه القدر يومها شيئا مهماً؟ نجاح العملية جعلته يترقى في عمله ، ويحصل على حوافز جديدة ؛ وكان سعيداً وقتها ؛ ربما لأن موت جعفر خلصه من أحمال كثيرة ؛ أهمها أن الشخص الوحيد الذي كان يقف في وجه طموحه قد انتهى إلى الأبد ، وأن الذين التحقوا بالعمل في ذلك المركز كان أغلبهم من الوجوه الجديدة التي لا تعرف ماضيه ، وجوه كانت تنظر إليه باحترام شديد لأنه هو الذي يشرف على عملهم . كان يدرك أن القتل صار مدفوع الثمن والرتب ، وأن كل جريمة ناجحة ترفع رصيده وتصنع منه بطلا استثنائيا في نظر رؤسائه ، الذين كلما أرادوا مكافأته على إخلاصه رقوه في منصبه إلى أن أصبح نائب المسؤول عن المركز . واكتشف أنه صار مهما أكثر مما يمكن لشخص مثله أن يتوقع! لكنه نسي نفسه في كل هذا الجنون ، ونسي ابنه أيضا . ابنه الذي لم يحمله مرة بين يديه ولم يضممه إلى

صدره . كان يريد لابنه مناخاً مختلفاً وحياة نقية على بساطتها ، خالية من الحقد ومن الجريمة! لهذا لم يفكر أن عليه زيارته ، كان يكتفي بالسؤال عنه عن بعد بين الفينة والأخرى!

-٢٢-

كم سنة؟

يتذكر جيداً ذلك الخريف الذي وكأنه جاء في غير موعده.. كان في مكتبه عندما دخل أحد الرجال ليقول له بصوت مليء بالاحترام:

- سيدي، لقد سألنا عن الأشخاص الذين طلبت منا التقصي عنهم، وهذا التقرير!

أخذ المختصر التقرير دون أن يرد على الرجل الذي خرج من المكتب مسرعاً بخطوات هاربة. فتح الملف ليطلع على ما أراده من معلومات وذهل عندما قرأ في سطر مهمل عبارة «السيد الطيب بن العربي توفي عام....! زوجته العجوز تعيش مع حفيدها..» وتذكر آخر مرة رآه فيها، توسل فيها له بنظراته ألا يأخذ الطفل معه، ولم يأخذه! شعر بشيء غريب ينتابه فجأة. هل كان الحزن؟ شعر بشيء غريب يخزه وهو يفكر في ابنه الذي يعيش مع عجوز لن تكون أمه ولن تكون أبوه. لم يزره منذ كان صغيراً وها قد صار شابا اليوم. كان يتمنى لو يستطيع أن يطلب صورته لمجرد النظر إليها. تساءل: هل يتذكره؟ ودق قلبه وهو يفكر في نوع الكلام الذي قيل له عنه. هل قالوا له إنه كان جباناً وناكراً للجميل مثلا؟ كان يدرك أن غيابه الطويل سوف يجعلهم يطمئنون أن الطفل لن يغادرهم، وأن والده إما مات في خضم القتل اليومي أو هاجر كما يهاجر الناس إلى غير رجعة.

فمن ذا الذي يغادر المكان للعودة إليه؟ كل الذين ظلوا إلى جانب أبنائهم عاشوا الدور الذي أرادوه ، بعضهم ظل يشاهد أبناءه وهم يسقطون ضحية اغتيالات مقصودة أو غير مقصودة ، وبعضهم فقد طعم الفرح من خوفه على أبنائه من الموت في حاجز مزيف ، أو برصاصة ستقتل كل الأبناء الجميلين الطيبين الذين تربوا في بيوت يحرسها أب فقير وشريف وأم حنون لا تنام إلا بعد أن تطمئن على نوم أبنائها . . لم يكن هو ذلك الأب الحنون ، لهذا لم يكن يخاف على ابن لا يعرفه ، ولم يكن يعمل حساب مشاعر يدرك أنها لا تعنيه! كانت تلك الصائفة ساخنة ومروعة ولخضر يتلقى يوميا تقارير القتل ، وصور الضحايا . . بعضهم في ربيع العمر ، وبعضهم في خريفه . كان يفعل ما يبدو للرجال واجبا . وهو يفتح تحقيقات يراد بها البحث عن شخص يمكن أن يقود إلى الجماعة التي ترتكب القتل . كان يدرك أن رجاله الذين يعملون بجدية لا يمكنهم أن يشكوا لحظة في أن بعض العمليات مبرمجة فعلياً ، والباقية تحدث من قبل أشخاص يدور البحث عنهم منذ سنوات! بعضهم يتم التعرف عليه فعلاً . ويتم تحديد مكانه ، وتركه يفر ثانية لتتم ملاحقته من جديد في لعبة القط والفأر . هل كان يجرؤ على قول الحقيقة لرجاله الذين يشتغلون بإحساس من الشهادة؟ بعضهم يصلي قبل الخروج من مكتبه بفكرة أنه قد لن يصل إلى البيت . منذ انتقال لخضر إلى دائرة أمنية جديدة وهو يحاول أن يبدو سيداً محترماً بكل معاني الكلمة ، وكان يدرك أن دوره لم يكن اختياراً منه بقدر ما كان اختيارا من رؤسائه القدامى ، الذين خرج بعضهم على المعاش ومع ذلك ظل يدير الخيوط من بيته ، وبعضهم غادر الوطن خوفاً من أن يكون هو نفسه ضحية الحسابات الجديدة التي لم يعد فيها! يتذكر ما قاله له رئيسه الذي كان يستعد بدوره للخروج على المعاش . قال بصوت لا

يحتاج إلى جدال :

- هل تتصور عدد المواطنين في هذا البلد؟ إنهم لا يراعون النمو الديمغرافي ، يعتقدون أن البلد غني بالنفط والثروات ، فينجبون هذا العدد المهول من الأبناء . أي أسرة لا يقل عددها عن ستة أو سبعة أفراد . هذا نظام غير سوي في دولة تسعى إلى أن تكون متطورة ومتقدمة . يجب أن يفهم الناس أن عددهم لم يعد مرغوباً فيه!

ولم يعلق لخضر . طأطأ رأسه وابتلع ريقه . كان يشعر بالرعب يومها ومسؤوله يعلن سبباً من الأسباب التي تجعل الإرهاب وسيلة للتطهير البشري . ألم تكن تلك لعبة القط والفأر؟ وكانت لعبة الحظ أيضاً ، فمن يبقى على قيد الحياة يحظى بالفتات! يومها شعر أنه اختار الطريق الذي كان عليه اختياره كي لا يكون ضحية بائسة في جريمة غامضة يعتقد فيها القاتل أنه يتقرب إلى الله بالقتل! كل إرهابي كان يعتقد في قرارة نفسه أنه يتقرب إلى الله بجريمته التي يرتكبها ضد الآخرين . يقتلهم ليكون من نصيبه العيش دون ضجيجهم وأحلامهم ووجوههم التي تذكره بمطالبهم القديمة : الخبز والحرية أو الموت دونهما! فلم تعد تعني هذه المطالب شيئا اليوم . أصبح الناس يصرخون «النجدة»! يحلمون بالأمن ويصرخون : سنتنازل لكم عن الخبز والحرية لأجل الأمن! لا أحد أصبح معنياً بالحرية والخبز قبالة جثث من يحبهم وعاش منتظراً أن يموت قبلهم ليجدهم سبقوه إلى النهاية! يومها خرج لخضر من مكتب المسؤول بإحساس من العار وهو يفكر أنه من الصعب تبرير الجريمة ، وأن شجاعته إزاء نفسه أنه يكره نفسه ويحتقرها ، بينما ينظرون هم إلى أنفسهم في المرآة بإحساس من الفخر المطلق! عاد إلى مكتبه منهكا وما كاد يجلس حتى رن الهاتف أمامه . مد يده إلى السماعة ورفعها بهدوء :

ـ سيدي . . جمعنا كل الرجال وننتظر الضوء الأخضر!

تنهد لخضر بعمق وهو ينظر إلى ساعة يده، ثم قال بصوت غير متحمس:

ـ لا تتحركوا. أنا قادم!

لم يكن بحاجة إلى الذهاب إليهم بنفسه، لكنه أراد ككل مرة أن يكون حاضراً. فالرجال يعملون منذ سنوات تحت أوامره، وقد تعودوا على مزاجه وطريقته في العمل. كان يريد أن يتأكد بنفسه من أن الخطة سوف تتبع بحذافيرها منعا لأي خطأ. تناول علبة سجائره من فوق المكتب، وأخذ مفاتيح السيارة وخرج حريصاً على إغلاق مكتبه بالمفتاح كما العادة، وكان الرجال يجدون في حرصه شيئاً مثيراً للخوف، ربما لأنه يبدو دائماً في حالة حذر حتى إزاء نفسه، غير قادر على الثقة بأحد. في البدء اعتقد أن العملية مثل أي عملية أخرى، لن تحتاج في النهاية إلى أكثر من التأكيد على ضرورة الحرص، ليس حرصاً على سلامة الرجال، بل حرصا على ألا يقع أحد منهم جريحاً أو في الأسر، بحيث كانت الأوامر شديدة للبقية بإعدام الجريح في حال عدم استطاعتهم إنقاذه. تلك الأوامر تكفي لتجعل الرجال حذرين خوفاً من الإعدام! تعوّد لخضر على الانتظار ساعات حتى اتصالهم به، لكنه شعر هذه المرة بالتوتر وهو ينظر إلى ساعته، ويدخن سيجارته بنهم. . كان الشخص الذي وقع عليه اختيار تصفيته نقابيا بدأ يسطع نجمه وسط العمال والإعلام، فلم تكن تخلو صحيفة من صورته وتصريحاته النارية التي تثير غضب الكبار، خاصة أنه كنقابي يطالب بالعدالة الاجتماعية وبحق الشعب بأن يكون ثرياً! تلك مطالب تكفي لتضع رأسه في قائمة المحكوم عليهم بالقتل! وإن لم يخف حرص رئيسه المباشر على أن يقتل الضحية ذبحاً، إلا أنه لم يكن ليجا

في طريقة القتل ، ذبحاً أو سلخاً ، فالقتل واحد ، والعملية لن تخرج عن كونها روتينية بالنسبة للجميع! كان يعي أنه لا يعمل موظفاً لدى الدولة ، بل يعمل موظفاً لدى أشخاص يعتقدون أنهم الدولة ، وإن استطاع في السنوات الماضية أن يستوعب أن الدولة أكبر بكثير من هؤلاء الأشخاص إلا أنه لم يكن قادراً على الاعتراف بذلك علانية . لقد استطاع أن يكتشف جيلاً جديداً من الضباط يرفضون الخطأ ويؤمنون بالعدالة والقانون ، مثلما اكتشف جيلاً جديداً من رجال الأمن والدرك والجيش يرفضون الظلم ويرون أن لكل جريمة عقاباً ، وهم بهذا يشكلون الدولة الحقيقية التي لم يكن بإمكانه الانتماء إليها ، لأنه ينتمي إلى الأشخاص الذين صنعوا ثرواتهم وسلطتهم على حساب الدولة! حتى هو استطاع أن يكوّن ثروته الخاصة ، وأن يكون محترما في أعين الذين يقابلونه معتقدين أنه يستحق الاحترام! كان لخضر متوتراً يومها دون سبب ، أشعل سيجارة ثانية امتصها بنهم وهو يراقب من سيارته الطريق الخالي . كان النقابي المراد تصفيته مدعواً إلى حفل زفاف إحدى قريباته في منطقة بعيدة عن المدينة ، وكانت فكرة اصطياده في طريق العودة أمراً سهلاً ، ومرتباً ، لكنه فكر ماذا لو قرر المبيت هناك؟ فكر أن رئيسه المباشر ينتظر مكالمة منه ، قال له قبل ساعة : «لن أنام حتى أسمع منك الأخبار السعيدة!» تنهد بعمق وهو ينظر إلى الطريق في ظلمة الليل ، غير بعيد من هنا نصب رجاله حاجزاً ليوهم الضحية أن ثمة نقطة تفتيش روتينية ، وهو الفخ الذي طالما نجحوا في نصبه للضحايا لاصطيادهم بسهولة ويسر! نظر إلى ساعته ؛ كانت تقارب الواحدة والنصف ليلاً . تسلل البرد إلى عظامه ، وقبل أن يستغرق في التفكير جاءه اتصال عبر هاتف السيارة من أحد رجاله يقول له :

ـ سيدي السيارة تقترب من الحاجز!

خفق قلبه وهو يوقظ محرك سيارته وينطلق بها . كان يريد أن يتابع العملية ولو من بعيد لينقل تفاصيلها إلى رئيسه المباشر الذي أحياناً يسأله :

ـ هل جابه المقتول قاتله؟

وعندما يقول له إن الضحية استسلمت للقتل بوجه شاحب مليء بالذهول والخوف ينفجر بالضحك ويقول :

ـ أرأيت؟ إنهم لا يستحقون الحياة! فهم لا يدافعون حتى عنها!

لمح السيارة أخيراً وهي تخفض من سرعتها ، ولمح السائق وهو يضيء النور الداخلي للسيارة كما يفعل أي سائق عند اقترابه من حاجز أمني ، واكتشف لخضر أن السائق لم يكن وحده ، كان معه شخص جالس بالقرب منه ، وامرأة تجلس في المقعد الخلفي . شعر بالعرق يتصبب منه وهو يفكر أن الجميع سيقتلون الليلة ، فلن يسمح بترك شهود عيان! ولم يكن وحده من ظهرت علامات الارتباك على محياه ، بل حتى الرجال نظروا إلى بعضهم بعضاً بحذر واضح ، كانوا يفكرون في الشيء نفسه ، في الرجل الثاني والمرأة . فتح الراكب الثاني باب السيارة ونزل وهو ينظر إلى الرجال قائلاً بصوت لا يخلو من استعطاف :

ـ من فضلكم لدينا امرأة مريضة وينبغي نقلها إلى المستشفى حالا . !

قالها وهو ينتظر رداً من الرجال الذين ظلوا ينظرون إلى بعضهم . نظر لخضر إلى الرجل الذي ظل واقفاً أمام باب السيارة المفتوح . ثم . . .

إلهي . . وجد نفسه يترجل من سيارته ويدنو من رجاله . قال بصوت أراده صارماً :

ـ ماذا هناك؟

وإن استغرب الرجال اقترابه منهم إلا أن الرد جاء من الرجل الذي نزل من السيارة :

ـ لدينا امرأة مريضة وينبغي نقلها إلى المستشفى بأسرع وقت ، ومن المفترض أن تساعدونا في ذلك كرجال أمن!

قال لخضر بصوت حاد مخاطباً أحد الرجال :

ـ افحص أوراقهم أولاً ، وعلى الرجل الثاني الخروج من السيارة!

خرج الرجل الذي كان في العقد السادس من السيارة . لم يتكلم قط ، كأنه كان ينتظر نهاية لهذه الوقفة التي بدت له طويلة . مد أحد الرجال بطاقات الهوية نحو لخضر الذي بيد ترتعش حدق فيها . يا إلهي . قالها بينه وبين نفسه ثانية . لم أخطئ ، هذا هو فعلاً . . سي منصور رئيس العمال في الميناء؟؟

ياه! كم سنة يا سي منصور ؟ فكر أنه لم يتغير كثيراً على الرغم من الشعر الذي كساه البياض تماما والهالة السوداء تحت عينيه . لكنه ما يزال يحتفظ بنظراته الواضحة ورأسه المرفوع أثناء الحديث . . كان قلبه يخفق بشدة وهو يفكر أن عليه قتل الرجل الوحيد الذي لم يؤذه ، والذي كان سبباً في ما وصل إليه اليوم . ألم يكن السي منصور اليد الوحيدة التي ربتت على كتفه أيام كان وحيداً ومنبوذاً؟ هل يمكنه قتل الشخص الوحيد الذي كان يتقاسم رغيف خبزه مع الآخرين ، مصراً على أنه جزء منهم؟ قالها في نفسه وهو يعيد النظر إلى البطاقة أمامه . فكر فجأة في أسرته . في زوجته التي تنتظره ، وأبنائه الذين كبروا بقناعاته القديمة نفسها . هل يمكن قتل رجل كهذا؟ قالها في نفسه وهو يضغط على أسنانه . فكر في أن رأسه ينتظر مكالمته المهمة لينام قرير العين ، وفكر في الذين سيكتشفون يتمهم في غياب رجلين أحبا الوطن وكرها اللصوص فيه! تنهد بعمق

وهو يعيد الأوراق إلى الرجل، قال بصمت خافت يخاطب أحد رجاله:

- لا تستعملوا السلاح الأبيض!

قالها وابتعد خطوات قصيرة، ودوت طلقة الرصاص الأولى، ثم تلتها طلقة ثانية وثالثة وساد صمت عميق. دخل سيارته وأغلق الباب وتدثر بمعطفه جيداً. كان يشعر بالبرد يسري في كل أوصاله. رفع عينيه إلى المكان الذي تركه للتو، فرأى الرجلين ممددين على الأرض. استطاع أن يلمح وجه السي منصور فاتحاً عينيه وخيط من الدم ينز من أنفه وفمه. لمح المرأة مسندة رأسها على المقعد الأمامي. كان الدم ينز من رأسها بشكل رهيب. أدار لخضر محرك السيارة وانطلق عائداً إلى مكتبه ليخبر رئيسه بالجملة ذاتها التي تعود قولها له.

- نم مرتاحاً يا سيدي. فكل شيء على ما يرام!

كانت تلك العملية سبباً في ترقية لخضر الذي صار بعد شهر مدير المركز!

كم سنة؟

يذكر جيدا اللحظة التي صافح فيها الرئيس مصافحة حارة وهو يقلده وسام الشرف كرجل شجاع، استطاع أن يؤدي بشجاعة دورا مهما لحماية البلاد من الأعداء الافتراضيين.. أعداء صنع بعضهم مثلما وفر لبعضهم المجال للقضاء على بعضهم باسم الأمن القومي! كان يدرك أنه لم يكن أكثر من أداة بين أيدي الكبار الذين خرج أغلبهم على المعاش، وتوفي واحد أو اثنين منهم بنوبة سكري حادة، كان يشعر أن موتهم خلصه منهم إلى الأبد! لم يكن يحضر جنازتهم لأنه كان مشغولاً بالأحياء! استطاع في السنوات الأخيرة أن يتحول إلى شخص محترم فعلاً، تلك أشياء يستطيع قراءتها في عيون الآخرين الذين يسعون إلى لقائه، ومصافحته والحديث

معه ولو لدقائق، مثلما يراها في العناوين الصحفية التي تتكلم عنه بطريقة وقورة حد التقديس! وإن كان يعرف أن الذين يكتبون عنه في الصحف يحصلون على دعمه لهم للبقاء في مناصبهم، إلا أنه كان يبدو محترماً وقوياً! استطاع أن يصنع قوته من ضعف الآخرين ومن الظروف التي ساندته دون أن تمنحه راحة بال كتلك التي كان يملكها أولئك الذين خدمهم. كانوا سعداء بحياتهم وبذخهم وثرواتهم التي يهرب أغلبها إلى الخارج. سعداء وهم يحضنون أبناءهم المحظوظين بالثروات التي سوف تبقى لهم بعد عمر طويل، وكان لخضر يحضر أحياناً زواج أبنائهم المحاطين بالورد والأحضان والابتسامات الكثيرة، في قاعة أفراح يتنافس الأثرياء لإغاظة بعضهم في طريقة إقامة العرس، والمطربين الذين ينشّطون الحفل إلى الفجر. وصل الأمر ببعضهم إلى استدعاء فرق السيرك من روسيا وألمانيا لتسلية الحضور. خارج القاعة يقف الأمن حريصاً على توفير الحماية لأصحاب السعادة والثراء والحظ. بينما في الجهة الثانية من المدينة يوجد دائماً أولئك الذين يتذكرون حبيباً أو قريباً، أخاً أو ابناً أو أباً، يتذكرون الفراغ الذي خلفه رحيله بتلك الطريقة البشعة، ينظرون إلى أشيائه بإحساس من الفقدان، ويتركون كرسيه شاغراً عن وفاء لذكراه البسيطة والحارة! فهل يمكنه القول إنه كان محترماً؟ حتى وهو يحقق المجد الذي حلم به، ويرتقي في سلم الترقيات بسرعة مذهلة إلى أن أصبح جنرالاً! يتذكر يوم ارتدى بذلته الجديدة، انتابه إحساس عجيب من الخوف. خاف أن يتأمل شكله الجديد في المرآة، ويرى شخصاً يدينه في نظراته وبرودة وجهه.. لم يعتد على النظر إلى نفسه في المرآة، بل كان يرى نفسه في عيون الذين كانوا يرتعشون في حضوره، ويركضون في كل اتجاه لإرضائه. حتى السائق البائس بدا وكأنه على وشك الإغماء حين

نظر إليه وهو بالبذلة الجديدة . . فتح له الباب وهو يطأطئ رأسه . . كل من رآه في بذلته الجديدة بدا مبهوراً ومرعوباً في الوقت ذاته ، كان في عينيه العميقتين كلام كثير يثير الحذر والتوجس والخوف ، ربما لأنه وقتها أصبح السلطة نفسها!

هل ينكر أنه أصبح السلطة نفسها؟ تاريخ من الخيبات والبؤس والخوف والرعب والقتل والخيانة والترويع ، ليصل إلى ما وصل إليه . لم يشعر أنه نادم على شيء فعله ، لأنه كان يجب فعله ، ولأن البلد كانت بحاجة إلى الأقوياء مثله وليس إلى العاطفيين ، الذين يعتقدون أن التحكم في الأوضاع سيكون بقصائد الشعر الغزلية وبالإلياذة والأناشيد التي لم يعد أحد يؤمن بها!

كان يرى في السلطة إجبار الآخرين على الطاعة! شعر أنه لا يختلف عن أولئك الذين سبقوه إلى السلطة ، وجروه إلى الكارثة ليكون ناطقا باسمها ، لكنه في لحظة يأس إزاء نفسه فكر أن عليه أن يختلف عنهم وقد صار في تلك الرتبة الرفيعة . فكر أن سنوات من الرعب تحتاج إلى هدنة إزاء الناس ، وقد نقص عددهم فعلاً ، وتوقفت أحلامهم عن النمو . فكر أن يخرج رأسه من نافذة مكتبه ليسأل المارة في الشارع عما يريدونه؟ سيقولون بصوت واحد : لم نعد نريد شيئا الآن وقد ضاع من كنا نريد لأجله! ضاع الحلم الأول والبدائي والندي . .! ألم تكن المرحلة تحتاج إلى هدنة؟ الذين أرادوا ضمان حياتهم ضمنوا معها ثروات أحفادهم أيضاً ، ... الأثرياء الجدد ضمنوا ثروتهم داخل العنف ، وصار من الصعب محاسبتهم بالقول لهم : «من أين لك هذا» لأن القانون لا يحمي الفقراء! شعر ... أنه مدفوع بقوة خرافية كي يفعل شيئا مغايرا لما تعود عليه ، لأنه اكتشف أن الضباط الشباب مدفوعون بوازع الوطن ، للدفاع عنه . . كانوا يرون ...

موت العديد من الضباط على أيدي الإرهابيين مسارا يجب أن يكون حماية للوطن ودفاعاً عنه . كانوا يرون في الوطن السبب الوحيد للبقاء ، وكان يشعر في حماستهم شيئاً قابلاً للتصديق . قال لهم في أول اجتماع جمعه بهم في زي الجنرال :

ـ لقد ضحى الرجال لأجل البلد ، ولن نسمح أن تصبح البلد ألعوبة بين أيدي متطرفين دمويين! إننا لا نمارس وظيفة لأجل الراتب ، بل نؤمن أن البلد يجب أن تنتصر على الظلاميين . الوطن ولد ليبقى ولن نتنازل عن خيار بقائه . هذا شرف الرجال!

وشعر أنه أصاب صميم الضباط الذين كانوا ينظرون إليه بإعجاب شديد . كان يرى في خطابه سبباً جاهزاً للنفاق الذي عبره استطاع أن يدير وجه سترته ويلبس الوجه الثاني منها ، لقد صار أقوى من ذي قبل والضباط أكثر انحيازاً لرؤيته الواقعية ، حتى الضباط الكبار الذين لم يستسيغوا رتبته الجديدة التي اعتبروها أشبه بعملية اختلاس جهراً أيدوا نظرته القادمة للأوضاع ، لأنهم كانوا بحاجة إلى «السلم» إذ لم يعد من الممكن الإبقاء على المصالح الخاصة في ظل تزايد رقعة العنف . كانوا يرفضون الهرب الجماعي للمستثمرين الأجانب ، ويريدون إقناعهم أنهم استطاعوا تخليص البلد من الإرهاب ليعودوا ، ويستثمروا في بلد الشهداء كيفما شاءوا! تلك هي الواجهة الجديدة التي كانت تسمح للكبار بتبييض أموالهم التي جمعوها في سنوات العنف . شعر أن حربه الجديدة على الإرهاب تخدم الأسياد أيضا وتحمي مصالحهم . أضاف يخاطب الضباط بالصوت نفسه :

ـ سنطارد الإرهابيين حتى نتخلص من آخرهم . لن نسمح باستمرار هذه المهزلة . هذا واجبنا الذي عليه نحيا وعليه نموت!

يا للشعارات المترفة بالنفاق! قالها في نفسه وهو يفكر في عبارة «عليه نحيا وعليه نموت»! أليست هي نفسها عبارة «فريد وإبراهيم» قبل أكثر من عشرين سنة؟ ما الذي تغير منذ ذلك الوقت؟ لكنه قرر مواصلة قراره عملياً بمطاردة الإرهابيين في الجبال والغابات، وكان يعرف أن أغلبهم صعد عن يأس بعد أن فشل في الحياة وفي الهرب من البلد، وبعضهم صعد لأنه لم يجد أين يصعد في غياب الأمل. كان يعرفهم، ويعرف مواقعهم. فكر وقتها في أن أفضل طريقة لخلق سقف من العدالة يكمن في إيهام الآخرين أنه القادر على فعل الأشياء التي يفعلها، وعندما بدأت تنشر الصحف أخبار الاقتتال الدائر بين كتائب المجاهدين بسبب الصراع على الإمارة والخلافة، قال الناس: الله لا يردهم! وتمنى البعض أن يتواصل الاقتتال بينهم لينتهوا إلى الأبد! كان يجد في تلك اللعبة الكبيرة متعة غريبة وهو يحس يوما بعد يوم أنه يتجاوز بمخيلته الممكن واللا ممكن. كلما استطاع أن يقضي على خلية إرهابية ويجتمع بزملائه الضباط ليخبرهم بانتصاراته التي يحققها. بالقول لهم:

- نحن جميعنا شركاء في هذه الانتصارات لأننا نحب الوطن ولأننا نريد له الخير. الناس تعبت من الموت والعنف، وما كنا لنترك الأبرياء يموتون بلا سبب..! نحن رجال هذا البلد ويجب أن نحبه إلى درجة الموت في سبيله!

تلك الخطب التي تقال على شرف الأغبياء عن واجب! كانوا يصفقون بحماسة شديدة وهم يؤيدون كل كلمة قالها، ويرون في النتائج التي حققتها خططه مجالاً كافياً للأمل والحياة! في ظل سنة تراجع العنف بشكل غريب. صار بإمكان الناس التنقل من منطقة إلى أخرى. فجأة قلّت عمليات الاغتيالات التي كانت تطال الجميع، حتى الصحف لم

تعد تتكلم كما في السابق عن الجماعات المسلحة ، مكتفية ببعض الحوادث التي تقع هنا أو هناك . في ظرف سنة استطاع أن يوهم الجميع أنه انتصر على العنف الذي كاد يودي بالبلد إلى الهاوية ، وأنه منذ تولى منصبه الجديد كجنرال مسؤول تحسنت الظروف الأمنية . استطاع أن يوهم الجميع أنه الأقوى والأصلح للبقاء في السلطة!

-٢٣-

رفع عينيه إلى السقف وتنهد بعمق وهو ينظر إلى ساعته! ياه . . كل هذا الوقت وهو يتأمل في الملف؟ كل هذا الوقت قضاه في تأمل صورة؟ صورة أعادته إلى جرحه القديم وجعلته ينظر إلى قلبه في المرآة، بعد كل هذا العمر، وبعد كل هذا الجنون! من عادته ألا يقع في هذا النوع من العاطفة، وقد عاش طوال سنوات دون رغبة في التعاطف مع شيء أو مع أحد، لكن ما شعر به لم يكن تعاطفاً، كان شيئاً آخر، أقوى من التعاطف وأقرب إلى الحب . .! الحب؟ أليس الحب من طرده من البيت مشرداً، وحيداً وبائساً! الذين أحبوا كان لهم قلب يعرفون كيف يقودهم نحو مصائر يختارونها، لكنه لم يكن مثلهم لأنه لم يكن له قلب يقوده نحو شيء، سوى ما كان يراه هدفاً سامياً في حياته؛ وقد وصل إليه على حساب قلبه ونفسه وحياته . أمام صورة واحدة، اكتشف كم أصبح وحيداً كما لم يكن من قبل، وقبالة وجه بسيط وجد نفسه يتلمس حزنه العميق حتى كاد يجهش بالبكاء! فكر أن يعيد الملفات إلى السكرتير كما لو أن شيئاً لم يكن، لكنه كان يرتعش عاجزاً عن التحرك من مكانه . أيعقل أن يكون هو بالذات؟ هو الذي لم يقم بعناء البحث عنه، يظهر له كمارد أتى من ألف عام، ليواجهه مباشرة قائلاً له :

ـ أنت من لا يشرفني أن ألتقيه!

فكر : ها هو هذا الشاب يأتي من مكان تعلم فيه أصول العمل العسكري ، ولم يأت من دهاليز المراكز السرية التي صنعها أصحابها لترويع البسطاء باسم الأمن القومي! تنهد من جديد وهو يقرب الصورة من عينيه . شعر بالذهول وهو يتنفس بهدوء وروية . . رن جرس الهاتف بالقرب منه ، فأعاد الملف فوق بقية الملفات ونظر إلى ساعته من جديد . وبيده ضغط على الجرس الذي يليه بالسكرتير الذي دخل مسرعاً :

ـ غداً صباحاً موعدي مع هؤلاء الضباط . أريدهم في مكتبي في العاشرة صباحاً!

ـ حاضر يا سيدي!

قالها السكرتير منتظراً أوامر أخرى ، وعندما لم يضف غادر المكتب مسرعاً . شعر لخضر بشيء يخزه وهو يفكر في الغد . . سيكون صعباً واستثنائياً!

هل يمكنه تبرير العمر بالاعتذار؟ لا شيء يمكنه أن يعيد البهجة الخالية من الخيبة إلى القلوب التعيسة ، ولا شيء يمكنه أن يضيء بيتاً تركه أهله مطفأً ، والذين يختارون الحياة يعرفون أنهم استطاعوا النجاة بالإيمان . هل يمكن القول إن البلد نفسه لم ينج من النهاية لو لم يكن ثمة إيمان في قلوب الذين كانوا يصلون لأجل أبنائهم ، ولأجل أشياء صغيرة وضرورية كان يجب الاحتفاظ بها؟ كل أم تضرعت إلى الله ألا يموت ابنها في حاجز مزيف أو في تفجير إرهابي . . كانت تؤمن أن الله قريب من دعائها ، وأن ابنها سيكون بخير لأن الله يسمعها ، فقط الذين تخلوا عن إيمانهم فقدوا القدرة على الحياة . كان يفكر في ذلك وهو يعود إلى البيت متعباً غير قادر على فعل شيء سوى التجرد من بذلته ، كما يتجرد المرء من كذبة كبيرة ، ثم ارتمى على سريره واستغرق في صمت طويل انتهى به

إلى النوم . وعندما استيقظ صباحاً بدا أكثر تعباً كما لو أنه لم ينم . كان يشعر بألم في داخله يصعب تشخيصه ، مع ذلك بدا هادئاً وهو يتناول فنجان قهوته . كان يشعر بتوتر شاب سيدخل إلى امتحان بعد قليل . تحرك من مقعده بحركة سريعة واضعا فنجان القهوة دون أن يرتشف منه شيئا . تنفس بعمق وخرج . كانت الشمس حارقة في هذا النهار الصيفي ، تنفس بعمق وهو يتناول سيجارته وينفخ دخانها ، وبينما السائق مستغرق في القيادة بصمت كما في كل يوم . قال له بصوت خال من المزاح :

- افتح الراديو ، نريد أن نسمع شيئاً جميلاً!

بيد مرتبكة فتح السائق الراديو الذي انبعثت منه أغنية قديمة . أغمض لخضر عينيه وتنفس بعمق . كان يصغي إلى صوت «الحاج العنقا» بإحساس مختلف ، إحساس غريب ممزوج بالتعاسة القديمة التي بدت وكأنها طفت على السطح! وعندما دخل إلى مكتبه ركض السكرتير ليحمل عن السائق الحقيبة ككل يوم . جلس لخضر ونظر إلى السجادة التي وعد نفسه بنقلها إلى مكان آخر . تنهد وهو ينظر إلى سكرتيره الواقف .

- سيدي موعدكم مع الضباط في العاشرة ، وبعده لديكم موعد مع السيد ال . . . .

- فيما بعد ذكرني بمواعيدي المتبقية . . المهم أريد ملفات الضباط على مكتبي!

- حالاً!

ولم تمض لحظات حتى كانت الملفات فوق مكتبه ، بالترتيب نفسه الذي تركه أمس . مد يده إلى الملف الأول ليعود إلى الصورة نفسها ال . . هزته بعمق . . قرأ التفاصيل التي يشعر أنه أصبح يحفظها عن ظهر قلب ثم عاد ينظر إلى الصورة ، وإلى العينين العميقتين الواثقتين . شعر بشيء

يشبه الفخر وهو يكتشف أنه يملك وجهاً جميلاً ووقوراً . من الصعب النظر إليه كبائس أو تافه ، إنه وجه يمكنك أن تنظر إليه باحترام مسبق ، وبإحساس قريب إلى المودة ، قالها في نفسه وهو يبتسم رغما عنه . فكر في شيء بدا له مهولا وجميلا في الوقت نفسه . لمس الصورة بحافة إصبعه وهو يردد في نفسه :

- إنه ابني!

قالها وهو يستوعب معنى أن يقولها ، ومعنى أن يشعرها . هل يمكنه القول إن هذا الشخص الذي التقاه في صورة هو ابنه؟ ابنه الذي تركه خلفه متناسيا وجوده عن رغبة في الابتعاد أطول مسافة ممكنة؟ هل يمكنه القول له عندما يراه وجها لوجه : «مرحبا ، أنا أبوك! كيف حالك؟» ابتسم وهو يتلمس حدة الإهانة في جملة كهذه ، وشعر بألم في صدره جعله يمد يده إلى مكان الألم ويضغط . اكتشف أنه يرتعش . نظر إلى الساعة في الوقت الذي دخل فيه سكرتيره ليقول بصوت مليء بالاحترام :

- الضباط في القاعة المجاورة يا سيدي!

- أنا قادم!

قالها وهو يقف . بطريقة آلية عدل ربطة عنقه ، وتناول قبعته العسكرية المحاطة بالخيوط المذهبة ، وبنظرة سريعة نظر إلى السجاد وخرج! كان يشعر أن خطواته تثاقلت في ردهة الممر المؤدي إلى الصالة التي ينتظره فيها ضيوفه من الضباط ، ويحاضر فيها أحيانا على شرف الوطن الذي يستحق الحياة! كان سكرتيره خلفه حاملاً الملفات بوجه خال من التعبير ، وبمجرد أن اقتربا من القاعة حتى نهض الضباط بالإيقاع نفسه ، بادلوه بتحية عسكرية رد عليها بحركة سريعة . وبإيماءة من يده طلب منهم الجلوس ، بينما جلس على المقعد الذي تعوّد الجلوس عليه في مثل هذه

اللقاءات . مقعد يمنحه حرية النظر إلى الجميع ، في الوقت الذي لا يجرؤ أحد على النظر إليه مباشرة . وجد نفسه يبحث عنه ، وكان قلبه يدق بقوة . ثم رآه . كان جالسا في الجهة الثانية ، وشعر بالخيبة لرؤيته جالسا هناك ، بعيدا كيد نحتاج إلى تلمسها ، كان يبدو هادئا وهو ينظر إلى الأوراق أمامه . تمنى فجأة أن يخاطبه قائلا : انظر إلي من فضلك! لكنه اعتدل في جلسته وبدأ في الحديث عن أهمية وجودهم ها هنا . كان يشعر أنه يريد مخاطبته هو تحديداً قائلاً له : لستم هنا للتسلية ، أنتم هنا لأنكم أردتم خدمة بلدكم ، ولأنكم تشعرون أنكم تحملون أسباب ذلك بالتضحية . وشعر أن صوته بدأ يخونه وهو يكتشف حدة الرياء في كلماته . هل يمكنه قول هذا الكلام لضباط يعرفون جيداً أنهم قد يموتون في عملية اغتيال مفاجئة؟ صحيح أن العنف تراجع ، لكنه لم ينته . فكر فجأة أن كلماته تبدو خالية من الجدية ، فاقدة للقوة قبالة وجوه شابة تنظر إليه بقداسة كبيرة . نظر إليه من جديد ، كان مستغرقاً في النظر إلى شيء على الطاولة المستديرة التي يجلسون حولها ، وشعر أن ذلك يهينه قليلا . طرق على الطاولة بحافة القلم وهو يضيف :

- المسؤولية ليست سهلة . نحن هنا لأن قدرنا أوصلنا إلى هنا ، ولا مجال للصدفة في عملنا!

لكم كان خاطئاً في جملته الأخيرة . أليست الصدفة من جاءت .. إلى هنا ليجد نفسه قبالة شخص اعتقد أنه تركه خلفه إلى الأبد؟ الصا.. التي جعلت ابنه يختار هذا المكان دون مئات الأماكن التي ... باستطاعته العمل فيها بعد تخرجه . أليست الصدفة من جعلته ينظر إ... ويكتشف فجأة كم كانت مؤلمة لعبة القط والفأر التي عاشها طوال حيا... معتقداً أنه انتصر على سوء الطالع ، كان يظن ألا شيء يمكن أن يربـ... ا

يكسره بعد كل الذي عاشه . نظر من جديد إليه ، كان ينظر نحوه نظرة غريبة ، أشعرته بالارتباك ، شعر أن ارتباكه يبدو واضحاً ، وأنه لسبب لا يعرفه لم يعد قادراً على مواصلة الكلام ، تنهد بعمق وهو يضيف :

ـ عليكم أن تثبتوا لأنفسكم أنكم رجال هذا المكان . العمل ليس سهلاً ، لكني متفائل بكم . أنتم مستقبل هذا الوطن . أنتم أمله!

الخطاب الجاهز للسخرية . قالها في نفسه وهو ينظر إليه من جديد ، وتفاجأ به يبتسم ابتسامة بدت له ساخرة ، وإن لم تظهر تلك الابتسامة بوضوح إلا أنه شعر بالغضب فجأة ، ولعل غضبه بدا واضحاً وهو يقف من مكانه ليقف الضباط في اللحظة ذاتها ، حياهم تحية سريعة وغادرهم بالخطوات المتعبة نفسها عائدا إلى المكتب . تساءل كم استغرق الاجتماع؟ ربع ساعة؟ أقل؟ أكثر؟ ظل أغلبها صامتا يتأمل الوجه الوحيد الذي كان يعنيه ، وتينك العينين المليئتين بالثقة حد الغرور ، والابتسامة الساخرة حد الأذى . تمنى لو دنا منه ليقول له غاضباً :

ـ ما الذي يدعو إلى السخرية في نظرك؟ أنا أم كلامي؟

نظر إلى السكرتير الذي كان يمشي خلفه وقال بصوت حاد :

ـ استدع الضابط حسين زرياب إلى مكتبي!

ـ حالا يا سيدي . .!

وكاد ينادي السكرتير كي لا يفعل ، لكنه تراجع . أحس أنه بحاجة إلى سماع صوته ، والنظر إليه وجها لوجه . كان يشعر أنه بحاجة إلى ذلك لأجل نفسه على الأقل ، لأجل قلبه الذي يبدو فارغا من ضجيج الأشياء الحميمة ، وخاليا من الحب!

الحب . .! هل يمكنه القول إنه يتمنى لو كان قادرا على الحب؟ تمنى لو كان يستطيع أن يشعر بالحب دون أن تتساقط جدران قلبه . نزع قبعته

ومسح على رأسه وجلس على المكتب، وما هي إلا لحظة حتى دخل السكرتير ليعلن عن الضابط الذي دخل بخطوات سريعة ومتوازنة. حياه تحية عسكرية ردها له الجنرال بحركة سريعة، ثم أشار إليه ليجلس على المقعد المقابل لمكتبه. تظاهر لخضر بتصفح ملفه وحمحم قليلا قبل أن يقول:

- لماذا اخترت العمل العسكري؟

وتفاجأ الشاب بالسؤال الذي لم يتوقعه، وشعر لخضر أنه استطاع أخيراً أن يربك نظراته وأن يثير فيهما خوفاً صغيراً. رد بصوت بدا له واثقاً:

- لأني أحب بلدي يا سيدي. من يحب بلده يجب أن يختار العمل الذي يناسب مشاعره!

- المجال العسكري لا يعرف المشاعر! لن تدخل المعركة لتموت عن حب!

- لأجل البلد يمكنني أن أموت عن حب يا سيدي! أنا واحد من أبناء هذا البلد. وجودي هنا ليس ترفاً، بل عن رغبة ودراسة واجتهاد، وأعرف أنني قادر على أن أكون مخلصاً لوطني حد الموت!

تنهد لخضر وهو ينظر إليه نظرة طويلة قبل أن يرد:

- ربما هذا الكلام ليس غريباً على حفيد السي الطيب!

وبدت الدهشة على الشاب الذي لم يتوقع أبداً أن يسمع هذا الكلام من جنراله. كان يشعر بالخوف فجأة ربما لأن جلسته تلك تؤلم ركبته التي أصيبت في التدريبات أمس. كان يتمنى لو ينتهي هذا الحوار ليتمكن من الوقوف. واستغل لخضر ذلك الذهول في عينيه ليضيف:

- لقد تعرفت على جدك في السنوات الماضية. كان شخصا جديرا بالاحترام!

ولم يرد الشاب الذي ظل مطأطئ الرأس . قال لخضر بالصوت نفسه :

ـ هل والدك على قيد الحياة؟

ـ لا يا سيدي . والدي متوفي!

وبدا له الرد كرصاصة موجعة . شعر بالألم وهو ينظر إلى الشاب نظرة مجروحة . كان سيقول شيئا لكنه تراجع . وبعد صمت استغرق أعصابه قال وقال أخيرا :

ـ يمكنك الانصراف!

نظر الشاب إلى الجنرال نظرة سريعة وهو يهم بالوقوف ، ثم بتحية عسكرية رسمية انتهى اللقاء! ضغط لخضر على أسنانه وهو يشعر بالخيبة من هذا الحوار الذي دار بينهما ، تمنى لو استطاع القول له : والدك لم يمت لأنه ببساطة قبالتك الآن! هل سيصدقه؟ سيعتبر الأمر نكتة عسكرية لا تدعو إلا إلى ابتلاعها بصمت . ظل ينظر إليه وهو يغادر دون أن يجرؤ على فعل شيء!

-٢٤-

فجأة بدأ لخضر يستغل أدنى سبب لينزل إلى ساحة التدريبات في الوقت الذي يكون فيه الضباط يتدربون على القفز. في السابق عندما كان يتأملهم من نافذة مكتبه يشعر بالرغبة في الضحك، لكنه يشعر اليوم أنه معني بما يفعلونه. فجأة أصبح أكثر حضوراً في كل مكان، ينزل فجأة إلى المطعم وقت الغذاء ليتناول الأكل معهم، وكانوا يجدون في ذلك سبباً آخر لاحترامه، لكنه لم يكن معنياً سوى بذلك الشاب الذي يبدو مؤدباً وخجولاً. كان يستغل أحياناً بعض المزاح الذي يحدث في أوقات الراحة ليبدو أكثر قربا منهم، وليحدثهم كما يمكن لوالد أن يحدث أبناءه. استطاع أن يكوّن علاقة إنسانية مع الضباط كلما اقترب منهم، وكلما سألهم عن أخبارهم وأخبار أسرتهم. تلك المسحة الإنسانية التي كانت تصيبه بدهشة غريبة وهو يكتشف أنه يتنازل عن وقاره يوما بعد يوم، إلى أن أصبح يوجه الكلام إلى حسين مباشرة، فيرد بثقة تجعله يبتسم رغما عنه. تمنى لو استطاع أن يسأله مباشرة: كيف كبرت يا بني؟ هل يمكن لأب أن يسأل ولده كيف كبرت؟ كيف أصبحت رجلا في غمرة العمر الذي تسرب تحت جسر الأشياء الصعبة والجاهزة للبكاء؟ كان يشعر أنه يشبه أباً قضى حياته يعمل في الخارج لأجل توفير الخبز لأبنائه، وعندما عاد إليهم لم يعرفهم، فظل ينظر إليهم متسائلاً كيف كبروا؟ ما هي أوا

طعنة وجهت إليهم في غيابه ، وأول البكاء الذي انتابهم حاراً دون أن يجدوه حاضراً ليسندوا رأسهم على صدره .

كان يجلس أحياناً متمنياً أن يسمعه يتكلم ، لكن حضوره يعطي دائماً الانطباع أنهم في جلسة رسمية ، فيضطر إلى مغادرتهم تاركاً إياهم ينزعون قناع الجدية ويتحولون إلى أطفال كبار! ثم ذات مرة من دون أن يتوقع الصدفة ، وجده جالساً في قاعة المكتبة الخالية من القرّاء . كان يطالع بصمت مثير للإغراء ، وجد نفسه يدخل متظاهراً أنه جاء هو الآخر بحثاً عن كتاب! كانت كذبته مفضوحة ، لأنه قادر على الحصول على أي كتاب دون أن ينتقل إليه بنفسه! الجميع لاحظ كم صار الجنرال اجتماعياً مع الضباط ، يحيطهم بعناية بدت لهم أبوية خالصة ، وكانوا يرون في ذلك سبباً آخر ليشعروا بالولاء والطاعة له . عندما رآه وقف بسرعة لتحيته ، لكنه أشار له بيده ليجلس . قال بصوت أراده بسيطاً :

ـ أنا هنا مثلك ، للبحث عن كتاب!

قالها مبتسما ، لكن الشاب لم يبتسم ، بل ظل ينظر إليه بحذر منتظرا منه أمرا ما . ابتعد لخضر قليلا متظاهرا بالبحث عن كتاب في صفوف المكتبة ، وبسرعة انتبه بعض الضباط إلى وجوده فهرعوا نحوه لمساعدته في البحث . قال لهم بالصوت العادي نفسه :

ـ سأجد الكتاب بمفردي . . شكرا على تعاونكم!

وابتعدوا بسرعة تاركين له المجال . كان يشعر بالغضب في داخله وهو يبدو كطفل لا يعرف ماذا يريد . فكر أن يسحب كتابا حربيا بدا عنوانه مقنعا «كيف تصنع جيشا قوياً!» وابتسم بينه وبين نفسه وهو ينظر إلى العنوان الذي بدا له مليئاً بالسخرية! سحبه وفتحه متظاهرا بالبحث فيه ، قبل أن يعود إلى طاولة الشاب نفسه الذي نهض من جديد بسرعة لاقترابه :

ـ اجلس! أنت الآن في فترة الراحة ، اترك التحايا العسكرية إلى وقت العمل!

رمى لخضر بعينيه إلى الكتاب الذي كان الضابط الشاب يطالع فيه لكنه لم يقدر على قراءة العنوان ، مع أن الضابط بدا فاقداً للتركيز والجنرال بالقرب منه . قال له فجأة :

ـ هل الكتب الموجودة هنا تلبي حاجتكم للقراءة؟

نظر إليه الشاب نظرة عميقة وقبل أن يرد أخذ نفساً عميقاً وقال :

ـ الكتب التي نجدها غالباً ما تكون ضمن ما ندرسه عمليا يا سيدي ، فهي كتب عسكرية من الدرجة الأولى!

ـ مع هذا أتمنى لو كانت ثمة زاوية للكتب المتنوعة ، من حق الضباط الاطلاع على كتب أخرى غير الكتب الحربية والعسكرية ، ككتب الأدب والشعر!

لاحت ابتسامة خفيفة على شفتي الضابط سرعان ما كتمها ، وقبل أن يرد قال له لخضر مستطرداً :

ـ في زماني كنت أقرأ الأدب الفرنسي وروائع الأدب الروسي! وأستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية بنهم!

قالها وهو يتفادى النظر إليه ، ربما لأنه خشي أن يرى كذبته الواضحة! صمت قليلا ثم أضاف :

ـ ألا تحب الأدب؟

ـ بلى يا سيدي ، من لا يحب الأدب ، لكن وقتنا لم يعد يسمح بقراءة أشياء خارج تخصصنا ، مع ذلك ، أحب القراءة كثيراً في وقت الفراغ!

ـ وماذا تقرأ في وقت الفراغ؟

ابتسم حسين ابتسامة واضحة وطأطأ عينيه وقال :

ـ أقرأ روايات بوليسية!

ابتسم لخضر ابتسامة كبيرة وهو ينظر إليه بعمق ، واحمر وجه الضابط معتقداً أنه يسخر منه . كان ذلك الحوار على بساطته مثيراً للبهجة بالنسبة إليه ، شعر بقلبه يخفق والشاب يتكلم معه عن أشياء يحب فعلها . سأله عن هواياته فارتبك قبل أن يقول بصوت مليء بالهدوء :

ـ أحب السباحة والفروسية وأمارسهما كلما كان الوقت مناسباً!

قبل أن يسأله ، رن الجوال في مكان ما قبل أن يكتشف أن الجوال الذي رن كان في جيب حسين ، الذي ارتبك قبل أن يتناول الجوال في يده وينظر إلى رقم المتصل ويحمر وجهه أكثر . لم يرد . ابتسم لخضر بينه وبين نفسه وهو ينظر إليه . كان يبدو كطفل قبالة أبيه ، مرتبكا وخجولا . . قال بصوت أراده صادقاً :

ـ هل تعلم أنني لا أملك جوالاً؟

ولاحت في عيني الضابط نظرة استغراب سرعان ما أزاحها دون أن يجرؤ على السؤال ، أضاف لخضر وهو يحدق في نقطة بعيدة :

ـ دائماً أقول إن الجوال صالح للشباب الذين يختصرون الوقت بوسائل تكنولوجية جديدة ، أنا من زمن آخر لم تكن فيه وسائل للحوار سوى الهاتف الثابت أو «الهاتف العربي»! قالها وهو يضحك فجأة قبل أن يضيف :

ـ جيلكم أكثر حظاً من جيلنا يا بني!

قالها ودوت عبارة «يا بني» في أذنيه مليئة بالحزن . هل يجرؤ على القول إنه لم يكن حزيناً لحظتها . خيل إليه أنه أضاع الكثير من الأشياء الجميلة التي كانت قابلة للاحتفاء بها في خريف العمر ، أشياء يصنعها

الرجال عادة ليعودوا إليها عندما يتركهم الناس وتحاصرهم الوحدة . أشياء تحمل الدفء على بساطتها ، لكنه لم يصنع لنفسه شيئاً من هذا ، قبالة عمره البارد ، يكتشف أنه حزين حتى وهو يدير حواراً غريباً مع ابنه في مكتبة لم يدخلها من قبل! كان يشعر أنه وحيد كما لم يكن من قبل . عاد الجوال يرن من جديد فنظر لخضر إلى حسين وقال :

- إن كان وجودي يمنعك من الحديث فيمكنني الذهاب!

ارتبك الضابط أمام هذه الجملة التي لم يتوقعها من جنراله الموقر ، قال بصوت عميق :

- لا يا سيدي ، يمكنني الاتصال بها فيما بعد ، وسوف تتفهم!

ودق قلب لخضر بقوة وهو يسمع عبارة «بها» . تساءل من تكون هذه التي تتصل به؟ صديقة أم حبيبة؟ نظر بعمق إلى عيني الشاب وقال مفتعلاً البراءة :

- إن كانت صديقة عزيزة سأنهض لأتركك تحكي معها .

- إنها خطيبتي ، ويمكنها الاتصال بي في وقت آخر!

خطيبته؟ شعر بوخز في قلبه وهو يقف ، ووقف الشاب في الوقت نفسه فأشار له أن يجلس . فكر لخضر في الخطيبة التي يمكن لابنه أن يرتبط بها ، من تكون؟ وشعر بغيرة تقرص قلبه . ها هي امرأة تسرق قلب ابنه! قالها غاضباً ، ثم فكر أنها امرأة لن تشعر بالخجل منه ، ولن تقول عنه بائساً ، امرأة ستنظر إليه بحب وفخر ، لأنه سيلبس لأجلها البذلة العسكرية التي تجعل منه محترماً وقوياً! كان يمشي على طول الممر مفكراً مطأطئ الرأس . انتابته رغبة ملحة لمعرفة من تكون الفتاة التي خطبها ابنه فجأة تحركت راداراته الحذرة ، وعندما دخل إلى مكتبه رفع السماعة واتصل بأحد رجالاته المخلصين ، وطلب منه تقريراً مفصلاً عنه و...

خطيبته . قال له بصوت مليء بالحدة :

ـ أريد التقرير غداً صباحاً!

وأغلق الخط دون أن ينتظر رداً . من مدة طويلة لم يشعر فيها بهذا الشعور من الفوضى والقلق والارتباك إزاء شخص صادف أنه ابنه الذي تركه منذ ستة وعشرين عاما خلت! تساءل كثيرا هل يمكنه الرد عليه لو سأله لماذا تركه من دون أن يسال عنه؟ هل يمكن الرد على الأسئلة التي يتوقعها ويشعر أنها ستؤلمه . كان يجهل ما الذي قاله جده عنه؟ أي الآباء وصفه به؟ الأب الذي يذهب دون رجعة أم ذلك الذي يذهب بحلم العودة ذات يوم؟ تمنى لو يمكنه القول له بصوت صادق : أنا هو والدك يا بني . والدك الحقيقي! فماذا بإمكانه فعله لو رد عليه قائلاً :

ـ آسف! لكن والدي قد مات!

ألم تكن تلك هي الحقيقة في نهاية الأمر!؟ قالها في نفسه وهو يغلق باب مكتبه ويغادر!

-٢٥-

كان يعرف أن التفاصيل التي طلبها عن الفتاة لن تخرج عن التفاصيل التي يمكن أن يتخيلها ، عن عائلة عادية وبسيطة وشريفة! ليس لأن الصورة تحتاج إلى هذا الوصف ، بل لأن الوزارة قبل أن تقبل شخصاً في الكلية العسكرية تقوم بالتحقيق حول حياتهم وسيرتهم ليكون لهم حق الدراسة في مؤسسة يعتبرها الجميع قلب الدولة! كل ضابط يتحول إلى رقم في ملف ، يضم تفاصيله الأدق ، ونقاط ضعفه ونقاط قوته ، تلك هي الطريقة التي ظل يدافع عنها لصناعة أشخاص مخلصين وطائعين عن ولاء مطلق لأنه يعرف عنهم كل شيء ، بما في ذلك الأسرار التي يعتقدونها خاصة وحميمة جداً! وعندما فتح الملف الذي حمله رجله المخلص صباحاً ، لم يستغرب أن يقرأ أشياء عن فتاة يحبها ابنه! فتاة من عامة الشعب ، من أسرة شعبية ، والدها ضابط شرطة اغتيل على أيدي إرهابيين! نظر إلى الصورة التي جاءت مع الملف ، ورأى فتاة ذات عينين جميلتين ، واضحتين وابتسامة مبهرة جعلت قلبه يقفز في صدره . فجأة خيل إليه أنه رأى هذا الوجه المرسوم بعناية شديدة ، وتلك الابتسامة المليئة بالصراحة والبهجة . ابتسامة تقول إن الحياة لا تستحق في النهاية أكثر مما أخذته منا! مسح على شعره وهو ينظر إلى الصورة من جديد . . كأنه رأى هاتين العينين المليئتين بدهشة طفولية مليئة بالدفء . شعر

بعاطفة غريبة وهو ينظر إليها . عاطفة ذكرته فجأة أن قلبه ما يزال حياً، قادراً على التألم كلما تذكر وجهاً يشبه وجهها الأول، لكنه صدم وهو يتابع قراءة تفاصيل التقرير، عندما اصطدمت عيناه بصور والدها المغتال وصورة أمها! يا الهي! قالها وهو يعيد النظر إلى الصور . ضغط على صدره بحركة آلية . ابنة نجاة؟ قالها في نفسه وهو يعيد التدقيق في التفاصيل . . يا إلهي! تساءل هل عرفت نجاة من يكون ذلك الشاب الذي منحته يد ابنتها؟ هل لمحت في عينيه تلك النظرة التي يعرف أنها تتوارث ابنا عن أب! مع أنه لم يرثها عن السي عثمان، لكنه أورثها لابنه! ياه! قالها في نفسه وهو يضغط على أسنانه بغضب! أيعقل أن يحدث هذا على أرض الواقع؟ هل يمكن أن تبدو الحياة سخيفة إلى هذا الحد؟ قالها وهو يقف على قدميه، تشبث بحافة المكتب وهو يخطو نحو النافذة المطلة على ساحة التدريبات الغارقة في صمت الساعات الصباحية . ياه! قالها من جديد وهو يفكر . أيعقل ألا يجد ابنه فتاة في هذا الوطن إلا ابنتها؟ ولماذا هي بالذات؟ لماذا من دون ملايين الفتيات الجميلات الباسمات الحميمات يختار ابنتها؟ وكيف يمكنه أن يقبل بذلك؟ قالها وهو يضغط على حافة النافذة بكلتا يديه . كيف يسمح بهذا؟ لاحت ابتسامة عفوية على شفتيه وهو يتذكر أن ابنه صار رجلا الآن، يحب ويُحَب! لكنه كان رافضا هذه القسمة! رافضا أن تكون الفتاة الوحيدة التي أوجدت على سطح الأرض هي ابنتها! قالها في نفسه وهو يتناول قبعته العسكرية ويغادر المكتب بخطوات غاضبة! لاحت في رأسه كلمات أغنية اسبانية غجرية قديمة سمعها قبل عشرين سنة تقول كلماتها : «هل تعرف أن الحظ لا يمكن أن يتقاسمه شخصان في الوقت ذاته؟ إما لك وإما لي!» . . شعر منذ سمعها أنها كتبت على شرفه! صحيح أن الحظ خانه في الأول، لكنه استعاده في

الأخير . . استعاده قبل أن يكتشف أن له ابناً ، وأن لابنه حظ يعارض حظاً! كان حزيناً وهو ينزل إلى حيث يتلقى الضباط دروسهم النظرية على القتال . تعود على النزول إلى هناك لمراقبة الضباط وهم يؤدون التدريبات العملية على استعمال الأسلحة الجديدة . عندما دخل القاعة وقف الجميع . حياهم تحية سريعة وهو يطلب منهم مواصلة الدرس! جلس في آخر الصف يراقبهم بصمت حزين . . بدا متعباً وهو يتابع الدرس دون أن تكون له رغبة في التركيز فيه ، على الرغم من ارتباك المدرس الذي أخطأ مرتين في وصف بعض القطع الحربية! نظر إلى الطلبة بعينين حازمتين ، ووقع نظره عليه . كان مستغرقاً في متابعة الدرس ، غير آبه بأحد أو بشيء . شارك في الإجابة عن بعض الأسئلة التي طرحها الأستاذ ، بدا متحمساً للحياة التي يريدها لنفسه ، وللبذلة الخضراء التي يعرف أنها تزيد في أناقته وفي إعجاب حبيبته به! كل فتاة تحب البذلة أكثر مما تحب صاحبها في النهاية ، إذ عندما يغيب صاحبها تحتفظ ببذلته! ألم تفعل نجاة الشيء نفسه؟ ألم تحتفظ ببذلة زوجها الزرقاء التي أبهرها بها؟ تلك البذلة الزرقاء التي اعتدت على كرامته أول مرة باسم السلطة! ها قد رحل زوجها ، وما زالت ترى في بذلته سبباً لتحفظ ذكراه . وها هي ابنتها تنبهر ببذلة خضراء! تراها جميلة ومليئة بالسحر والوقار! بذلة ينظر إليها البسطاء باحترام لأنهم يعرفون أنها ستذلهم ذات يوم! انتبه إلى نفسه على وقع الجرس الذي دق معلنا نهاية الحصة . لم يجرؤ أحد على الحركة قبله ، ولا المدرس الذي ظل واقفاً مكانه كأنه في امتحان عسير ، تنهد لخضر بعمق وهو ينظر إليهم . كان يشعر أن جسمه لم يعد قادراً على حمله ، ولسبب غامض رفض فكرة أن يتعرض لوعكة هنا بالذات ، وإن انتبه بعض الضباط إلى ذلك إلا أن أحداً لم يتجرأ على الاقتراب منه . رفع رأسه نحو

الضباط وهو يشير إلى المدرس ليسمح لهم بمغادرة الفصل . نهضوا في اللحظة نفسها ، وبدأوا يغادرون واحداً تلو الآخر! وقف متشبثاً بحافة إحدى الطاولات ، وفجأة سمع صوتاً يقول :

ـ سيدي الجنرال . هل أنت بخير؟

نظر جهة الصوت وإذ به يقف أمامه ثابتا مستعداً لأي توبيخ قد يأتيه لسؤال كهذا!

ـ لا أعرف إن كنت بخير أو لا يا بني!

قالها وهو يقف . نظر إلى حسين الواقف أمامه نظرة طويلة قبل أن يقول :

ـ رافقني إلى الخارج!

ومشى بجواره دون أن يتجرأ على شيء آخر ، مع ذلك شعر ببهجة غريبة وهو يمشي إلى جوار ابنه بخطواته الواثقة والمغرورة . خطوات يعرفها جيداً ، ويعرف قوتها النابعة من الداخل ، خطوة يعرف كيف يترجمها إلى كلمات يمكن نطقها بالصوت ، كرسائل مشفرة ترسل عبر اللاسلكي إلى جهات بعيدة . ألم يكن شعوره هذا شعور أب يمشي إلى جوار ابنه فخوراً من حيث لا يدري؟ تمنى لو أن الممر لم ينته ليظل يمشي بجواره هكذا إلى آخر العمر ، قال وهو يضغط على صدره :

ـ اتصل بالطبيب!

كان يشعر أن صدره يضيق وأن تنفسه صار صعباً ، أحس فجأة أنه يغيب عن الوعي! ولعله سقط فعلاً ، إذ شعر وكأن الأرض لمست جسمه . كان البلاط بارداً ، ولكن عندما حاول تحسسه اكتشف أنه ليس بلاطاً ، بل فراشاً ، سمع أصواتاً غير بعيدة عنه ، وعندما فتح عينيه صدمه الضوء الحاد ، أغمضهما من جديد . وعاد يفتحهما . «أين أنا» تمتم قبل أن يقترب

منه أحد الأطباء بسرعة وابتسامة عريضة .

ـ الحمد لله على سلامتك يا سي لخضر . أقلقتنا عليك يا رجل!

قالها له بصوت ودي وهو يبتسم بلطف . طبيبه الخاص الذي يشرف على صحته منذ أربع عشرة سنة من بين الأشخاص الذين يحق لهم الحديث بهذه الطريقة الودية . حاول لخضر أن يبتسم لكن صدره آلمه . ولعل الطبيب لاحظ ذلك إذ قال :

ـ لا تقلق ستكون بخير!

قالها له بالصوت الودي ذاته ، قبل أن ينتبه لخضر أن ثمة رجالاً آخرين كانوا في الجهة الثانية من الغرفة ، كان واضحا أن حالته كانت حرجة وإلا لما تجمع كل هؤلاء الأطباء في غرفته! لم يذكر أنه أصيب بأزمة قلبية في حياته ، ولا بوعكة صحية حقيقية منذ سنوات ، كان يعتبر صحته مهمة لأنها تقيه المستشفيات التي يكره زيارتها حتى للاطمئنان على أشخاص يمرضون ، فينتظر حتى يغادروا المستشفى ليزورهم . فكر فجأة أنه صار تعباً ، وأن العمر تثاقل عليه . أغمض عينيه وهو يفكر أنه بحاجة إلى الراحة!

الراحة! أليست هي بالذات ما ظل يبحث عنه طويلا؟ لم يكن ثمة سبب ليبحث عن الراحة لأجله ، لهذا بحث عن بديل عنها في عمله ، في بحثه المستمر عن السلطة . ها هو يجسد السلطة في أعلى مراتبها . سلطة منخورة القوى ، خالية من الجدوى ، وحيدة ، ومريضة! سلطة تبدو اليوم بأمس الحاجة إلى مصالحة مع ذاتها ، مع ذاكرتها لأجل أن تجد الراحة! هل هو الذي كان يفكر في كل ذلك؟ قالها في نفسه وهو يبتسم بينه وبين نفسه . تساءل في سره : هل يفكر في هذا لأنه تعرض إلى أزمة صحية أم لأنه وجد ابنه؟ لا يدري ، لكنه يشعر بشيء جديد في حياته لـ

هدف أنبل، شيء أصبح يحرك في داخله أشياء كثيرة كالفضول، كالفرح الخفي. ألا يستحق ذلك فرصة ليفكر في الغد مع ابنه. فكر أنه بحاجة إلى أن يقول له حقيقة تحمي ذاكرته من العطب، وكرامته من الأذى. يريد أن يقول له إنه والده فقط، دون أن يبرر هذه الأبوة التي حطت من السماء فجأة، ودون أن يبرر الأسباب التي جعلت الأب يترك ابنه خلفه ويختفي عن الأنظار! كل التفاصيل الممكنة ستجرحه، ولم يكن يريد أن تولد علاقتهما مجروحة. كان يريد أن يتصالح مع نفسه عبر ابنه دون أن يبرر ماضيه الغريب، وما فعله في طريق المشي إلى المجد! الليلة الثانية في المستشفى بدت حافلة بالزوار من كبار المسؤولين الذين لم ينسوا إحضار زوجاتهم معهم، وباقات من الورد أغرقت الغرفة بروائح كثيرة. كانوا يعرفون أنه بحاجة إلى الراحة، لهذا لم تكن زيارتهم طويلة، ولم يقل فيها شيئا طوال وجودهم، كأنهم جاءوا لزيارة شخص يشبهه! لكنه بدا أكثر حيوية عندما جاء بعض الضباط لزيارته، ليجد نفسه يصاب بالخيبة لعدم حضور ابنه معهم. اعتقد أنه سيكون أول من سيأتي، لكنه ابتلع خيبته وهو يشكر الضباط على شعورهم النبيل. شعر بما يشبه العزاء وهو يكتشف أنهم لم يأتوا لزيارته عن واجب فقط، بل عن حب أيضاً. قالوها له في لوحة اشتركوا جميعا في شرائها، بدت له جميلة، مطرزة بالخطوط المذهبة كتب عليها: «قلوبنا تحيطك بالحب» وتحت العبارة نهر يتدفق نحو منحدر ما! شعر ببهجة وهو يشكرهم على نبلهم. قال لهم بصوت متعب وصادق: أنتم المستقبل يا أبنائي، وأنتم الأمل الجميل! شعر أنه يقصدها تماما، وأن الضباط المبتسمين كانوا يصدقونها كما هي. وبعد خروجهم ساد صمت يشبه الكآبة في غرفته! هل كان يحلم حقا؟ لا.. حتى الحلم قابل للتحقيق! قالها وهو يحاول التفكير في أشياء يمكن أن تحول تفكيره عما

يشغله . فكر في الأشياء التي يفكر فيها المرضى حين يمرضون ، في ذلك الهم الذي يعتقدون أنهم سيخلفونه وراءهم . كان يعرف أن ثمة مرضى لا يشفون حتى بعد خروجهم من المستشفى ، لأنهم يظلون يشعرون بالمرض في قلوبهم وذاكرتهم وحياتهم . قال له ذات يوم أحد الضباط اضطر إلى المعاش بسبب وضعه الصحي الحرج : «فقط المرض من يهز عروشنا يا صديقي!» تمنى وقتها أن يصحح له الجملة بالقول :«المرض لا يفعل سوى أنه يرتب الأشياء في فوضانا ، لأن ما يهز عروشنا هو الموت!» . تنهد واسترخى في عتمة الغرفة مستسلماً للنوم! في صباح اليوم الثاني ، في وقت لا يتناسب مع الزيارات جاءه ابنه . كان يبدو حزينا ومرتبكا وهو يدخل بعد أن أذن له بالدخول . حاول أن يبدو هادئاً وهو يطلب منه الجلوس على المقعد القريب من السرير . ابتسم ابتسامة صغيرة وهو ينظر إليه . قال الشاب بصوت مرتبك :

- كنت سآتي لزيارتك أمس يا سيدي ، لكن طارئا منعني! أردت أن أكون أول من يأتي لولا . . .

- خير يا بني! عسى خيرا!

- والدة خطيبتي أصيبت بوعكة صحية ، تم نقلها إلى المستشفى ، كان وضعها مقلقاً وكنت مضطراً للبقاء إلى وقت متأخر في المستشفى منتظرا أخباراً عن وضعها!

أحس لخضر أن أنفاسه تصدر صوتاً في صدره وهو يستمع إلى الكلام الذي قاله له . شعر بحزن غريب وهو ينظر إلى ابنه ، ليس لأن والدة خطيبته مرضت ، بل لأن ابنه فضل البقاء معها على البقاء معه! لقد اكتشف أنه قادر على تبرير ذلك ببساطة أن ابنه ليس ابنه بعد! سيظل ينظر إليه بصفته الجنرال قبل أن يستوعب أن الأبوة أهم من السلطة!

ـ هل يمكن المساعدة في شيء لصالحها؟

قالها وهو ينظر إلى نقطة بعيدة . واستغرب أن يقول ذلك في رقدته تلك .

ـ شكرا جزيلاً يا سيدي . أعتقد أنها ستكون أفضل في المستشفى الذي هي فيه!

ـ ولماذا لا يتم نقلها إلى هذا المستشفى العسكري؟ الرعاية جيدة وستكون قريبة منك أيضاً!

ـ هنا؟

ـ لم لا!

ـ أتمنى لو بقيت في المستشفى الذي نقلت إليه يا سيدي!

ـ لماذا؟

وبدا صمته مستفزاً قبل أن يقول :

ـ لأنني لا أختلف عن المدنيين في شيء يا سيدي ، والمكان الذي يعالج فيه عامة الناس هو الذي يمكنني العلاج فيه أنا أيضاً! نحن جزء من الآخرين!

قالها حسين وهو ينظر إليه نظرة مليئة بالثقة جعلته يشعر برغبة في الابتسام فجأة . اكتشف أنه لم يغضب كما خيل إليه . اكتشف أنه لم يصرخ في وجهه «أغرب عن وجهي أيها البائس ، كيف تجرؤ على الحديث مع جنرالك بهذا الشكل»! لكنه كان هادئاً وهو ينظر إليه نظرة مليئة بالحنان ، ثم بعد أن تنفس بعمق قال له :

ـ افعل ما يحلو لك يا بني . لن أفرض عليك رأيي . لكن تذكر أنني أردت مساعدتك فقط!

ـ أنا ممتن لك لقاء هذا يا سيدي!

قالها وهو يقف من مكانه مبتسماً ومرتاحاً . . ثم بعد تحية عسكرية رآها واجبة غادره بخطوات سريعة وخفيفة . استلقى لخضر على ظهره وراح يتأمل سقف الغرفة . فكر قبل أن يغمض عينيه أن شيئاً ما تغير في داخله! شيئاً حقيقياً وكبيراً . لقد تغير قلبه! هل ينكر أنه تغير فعلاً؟ لقد غيره الحب كما يغير المطر لون الأرض . صار أكثر ليونة وقدرة على تقبل الآخر بإحساس مختلف . فكر كثيراً في ما قاله حسين له ، واكتشف أن ذلك الشاب لا يشبهه في طموحه . ولم يزعجه ذلك . ها هو يكتشف أنه يشبه والدته المنتمية إلى الآخرين أكثر مما انتمت إلى نفسها ، أو ربما يشبه جده الذي قضى حياته يلقي النصيحة على الشباب في الجامعة ليكتشف أنهم تمردوا عليه باسم التغيير! لكنه لم يشعر بالغضب ، بل بالفخر فجأة وهو يكتشف أن ابنه لا يمكنه أن يؤذي أحداً ، وأنه بإمكانه الوثوق في أحلامه المبنية على حب الآخرين . لم يكن الآخرون أكثر من الناس البسطاء إذ يرفض التملص منهم . في سنه ، كان يتمنى أن يخرج من وضعه ، وينفصل عن هؤلاء البؤساء الذين كان ينتمي إليهم ، لكن ابنه يأبى إلا أن يكون حيث لم يقدر أن يكون هو! فكر أن ابنه يحق له الوجود في ضفة الحب ، حيث يشعر أنه أكثر إنسانية مما كان عليه هو نفسه . أليس هذا دليلاً آخر أنه تغير؟ أجل تغير! حتى وهو يفكر في نقل ابنه ليكون قريباً منه . . بدا النقل عادياً ، فالقسم الجديد الذي استحدثه يحتاج إلى واحد من الضباط الجدد والجيدين ليشرف عليه ، وكان حسين الشخص المناسب لتميزه في الأداء . . كان الاختيار بالنسبة للشاب شيئاً مدهشاً ورائعاً ، فأن يشرف على قسم مستحدث في الوزارة لهو شيء رائع لشاب في مثل سنه ، ومسؤولية أراد أن يكون مخلصاً لها ، وكان يرى في إخلاصه وتفانيه في العمل تعبيراً عن امتنانه للجنرال على الثقة ، حتى أنه

كان الجنرال يعرف أن امتنانه لا يكفي ، وأن عليه أن يحوّل ذلك الامتنان إلى علاقة كاملة واضحة كتلك التي يمكن لابن أن يقيمها مع أبيه! فكر في الجملة وتنهد . متى يستطيع أن يخبره بالحقيقة؟ قالها في نفسه وهو يسترخي على سريره! كان يعرف أن الأيام القادمة ستكون حاسمة!

-٢٦-

خروجه من المستشفى ملأ البيت بالضيوف . زاره كل الذين يرون في الزيارة فرصة سانحة للحصول على دعم لأجل مكاسب أغلبها خاصة ، حتى الوزراء زاروه ليتمنوا بقاءه في منصبه عن حاجة إلى خدماته وليس إليه ، كانوا يرون في صداقتهم الوهمية معه جسر عبور إلى السلطة المطلقة ، حتى بعد انتهاء مهامهم الوزارية يظلون على اتصال به ، لأنهم يكونون قد أخذوا مراكز اقتصادية في شركات يؤسسونها باسم زوجاتهم أو أبنائهم ؛ لتساهم في تبييض الأموال التي تأتي من أكثر من جهة ، بما في ذلك أمواله التي يريد استثمار بعضها في صفقات يعرف أنه لن يتعب فيها وسيكسب كثيرا منها . ذلك أصبح يسمى «البزنس» في لغة العصر . السلطة مقابل المال ، والمال لأجل السلطة ، لا فرق! كان يشعر أنه غير راغب في إطالة زيارة أحد منهم له ، لهذا استقبلهم بحضور طبيبه الخاص الذي ظل يذكرهم بحاجة المريض إلى الراحة والهدوء! يجد في طبيبه واقياً جيداً ليتخلص من زواره دون نظرة حقيقية إليهم . فقط الضباط الذين جاءوه جماعياً أسعدوه . وجاءه ابنه في اليوم التالي يحمل إليه ورودا جميلة ، ليكتشف أنه لم يكن لوحده ، بل كانت ترافقه فتاة جميلة وخجولة في ابتسامتها وفي عينيها ، وخفق قلبه وهو يراها . . نجاة؟ قالها في نفسه والشاب يقترب منه بارتباك واضح وهو يقول :

ـ سيدي الجنرال ، خطيبتي «حياة» أصرت على أن ترافقني لتطمئن عليك!

قالها منتظراً ردة فعل الجنرال الذي بدا شاحباً وهو ينظر إليها بدهشة قريبة إلى النحيب . حياة ؟ ياه! ألهذا الحد يمكن لابنة أن تشبه أمها في عينيها وابتسامتها ومشيتها وغرورها؟ قالها في نفسه وهو ينظر إلى الضابط الذي بدا مرتبكا أمام صمته . ابتسم أخيرا وهو يقول موجها كلامه إلى الفتاة :

ـ اقتربي أكثر يا ابنتي لأراك!

واقتربت بخطوات هادئة ومرتبكة . ياه! قالها في نفسه من جديد ، نظر إلى عينيها . . ابتسم وهو يرى في عينيها خجلاً كبيراً وبريقاً يكاد يتلمسه بيديه . قال أخيراً :

ـ أشكرك على الورود الجميلة ، وعلى الزيارة!

ـ عفوا يا سيدي . . حسين يتكلم عنك كثيراً وعندما أخبرني بوعكتك فكرت أن من واجبي زيارتك برفقته!

طأطأ لخضر رأسه وهو يصغي إلى تلك الجملة التي بدت له مهذبة حد القسوة ، أشار بيده إليهما للجلوس ، وظل ينظر إلى نقطة بعيدة بإحساس غريب من الوحدة ، لم يجرؤ أحد على مقاطعة صمته ، قبل أن يقول بصوت أراده طبيعياً :

ـ وكيف هي والدتك؟ هل تحسنت حالتها؟

ومع أنها لم تتوقع سؤاله ، لكنها ابتسمت ابتسامة سعيدة وهي ترد :

ـ لقد غادرت المستشفى قبل أيام ، تبدو أفضل ولله الحمد!

ـ أرجو أن تبلغيها تمنياتي لها بالصحة!

ـ سأفعل يا سيدي ، شكراً!

قالتها وهي تشعر بسعادة غريبة لاهتمام الجنرال بوالدتها، حتى حسين بدا سعيداً لسؤاله عن والدتها. فكر أن الجنرال إنسان رائع، قالها في نفسه وهو يحاول ألا تتسع ابتسامته في حضور مسؤوله.

ـ ربما نكتشف أهمية الصحة حين نكبر! نعي كم أضعنا الفرصة. لم نستمتع بالحياة ولا بالصحة! هكذا نشعر بالحزن ونحن نكتشف أننا خسرناهما في النهاية!

قالها بصوت هادئ كأنه يخاطب نفسه، ثم وهو ينظر إلى ابنه أضاف:

ـ وأنت؟ متى سنفرح بك مع هذه الفتاة الجميلة؟ ألم يحن الوقت بعد؟

ابتسم حسين مرتبكاً وقد احمر وجهه ووجه فتاته التي كانت جالسة غير بعيدة عنه. ابتسم لخضر وهو ينظر إليهما. بدا شكلهما كطفلين يعرفان طريق الحلم، كان واضحاً من نظرات الفتاة إلى خطيبها أنها فخورة به. وعرف من نظرة ابنه لها أنه سعيد بها. باه! لكم تمنى أن يعود الزمن إلى الوراء ليجلس قبالة نفسه جلسة كهذه خالية من الضغينة، ليبدأ حياته من أول السطر. ليحب عن حب ويعيش عن رغبة في الحياة، وينجب أطفالاً يعلمهم أبجدية المشاعر خطوة، خطوة!

ـ إن شاء الله قريباً يا سيدي!

قالها حسين ليقطع حبل أفكاره. نظر إليه وابتسم من جديد، وقبل أن ينطق أضاف الشاب بالصوت نفسه:

ـ أنا ليس لي لا أب ولا أم، وأتمنى أن أتشرف يوم العرس بحضورك يا سيدي، سأشعر وكأن والدي حضر عرسي!

قالها بإحساس صادق وهو يطأطئ رأسه احتراماً لجنراله الذي ظل

ينظر إليه . خيل إليه أنه يجد صعوبة في ابتلاع ريقه . مسح على شعره بحركة سريعة وعاد للنظر إليه ، في تلك اللحظة تمنى أن يقول له الحقيقة كلها!

الحقيقة! هل من السهل إخباره بالحقيقة حقاً؟ وما الحقيقة أصلاً؟ هل يقدر على سرد تفاصيله دون أن يسمح لمخيلته بالتدخل لتلوين الجمل وإعادة صياغة الأحداث ثانية؟ يعي بمجرد أن يقول لابنه أنا أبوك سوف يفتح باب الحقيقة على مصراعيها ، ولن يتمكن وقتها من الهرب . سيكون مضطراً إلى قول الحقيقة كاملة من الألف إلى الياء ، ويسرد أسماء كل الضحايا الذين خلفهم في طريقه ، والقتلى الذين قتلهم لأنه كان مضطراً إلى قتلهم ليعيش ، وليعيش الأسياد الذين أوصلوه إلى المجد! فكر أنه لن يقدر على قول الحقيقة أبدا بهذا العري الفاضح ، وأنه سيضطر إلى الكذب لأجل بلوغ هدفه دون أن يتنازل عن كرامته المتبقية! فكر في ذلك وهو ينظر إلى الحديقة من نافذة غرفته ، كان البستاني يرش الزهور التي رآه قبل أيام يغرسها وبدت وكأنها تتفتح بسرعة لا تحتمل التأجيل . كان لونها أصفر بهياً ، ورائحة التربة تصله حميمة . فكر أنه تغير فعلاً ، وأن تغييره يشفع له كل ما حدث من قبل! فكر أن قلبه لم يعد يصلح للكراهية بعد أن دخله ابنه وفتح شبابيكه على مصراعيها . سجرد فكرة أنه أب لهذا الشاب الجميل يثير غروره ويجعله أكثر رغبة بالفرح . كان سعيداً وهو يتخيل سعادة ابنه بعمله وبحبيبة تراعي أحلامه التي يتقاسمها معها . سعيد وهو يتخيل لقاءاتهما معاً في أي مكان يذهبان إليه ، سعيدين وفخورين ، يتبادلان كلمات يقولها رجل عاشق لفتاته الجميلة ، وتقولها فتاة عاشقة لرجلها الوسيم . ألم يحلم بذلك قبل أكثر من ثلاثين عاماً؟ ها هي الأمنية تتحقق في شخص ابنه! ها هو ابنه يحظى بما عجز هو عن الحصول عليه!

فكر أنه سعيد لأن ابنه حصل على ما عجز هو من الحصول عليه! ابتسم بغرور وانسحب من أمام النافذة!

ـ هل عملك الجديد يعجبك؟

قالها لحسين الذي حمل إليه تقريراً طلبه منه . رد بصوت صادق :

ـ أتمنى أن أكون عند حسن ظنك يا سيدي!

ـ المهم أن تؤدي عملك بإحساس من الوفاء لضميرك يا بني!

ـ أجل يا سيدي!

دعاه للجلوس متظاهراً بالاطلاع على التقرير الذي وضعه أمامه ، سأله فجأة :

ـ وكيف حال خطيبتك؟

ـ بخير يا سيدي . . ستحتفل بعيد ميلادها الاثنين القادم ، و . . .

قالها وارتبك لأنه قالها ، تدارك الأمر وهو يضيف :

ـ سألتني أمس إن كنت ستقبل دعوتها لعيد ميلادها يا سيدي ، و . . . .

نظر لخضر إلى ابنه نظرة مليئة بالذهول جعلت الشاب أكثر ارتباكاً وهو يضيف :

ـ آسف يا سيدي!

ابتسم لخضر ووضع الملف جانباً . وقال :

ـ أشكرها أنها فكرت بدعوتي . . وقل لها إنني سألبي دعوتها بسعادة!

هل هو الذي قال ذلك؟ فكر كثيراً لا بد أنه أصيب بجنون ليقبل دعوة كهذه! كان مرتبكا طوال المساء على الرغم من أن ابنه خرج من عنده سعيداً . أيعقل أن يذهب ويقابل نجاة بعد كل هذا العمر؟ بعد كل تلك السنين؟ فكر كثيرا أنها لا تعرفه ، ولن تتذكر لخضر البائس حين تستقبل

في بيتها لخضر الجنرال! هل يمكنها أن تشك لحظة واحدة أنهما واحد؟ لا طبعاً لن تشك . .! آذته هذه الفكرة وهو يتمنى لو يستطيع أن يقول لها بمجرد أن يلتقي بها : هل تذكرينني؟ وإن تأخر ردها يصفعها بقوة ليعيد إليها ذاكرتها! شعر أنه دخل إلى ورطة غريبة بكامل إرادته . تمنى لو يتصل بابنه ليقول له : آسف جاءتني دعوة أهم! في اليوم التالي قال له بصوت مليء بالامتنان :

ـ حياة سعيدة جداً أنك قبلت دعوتها يا سيدي! لم تصدقني وطلبت مني أن أقسم لها لتصدق!

قالها وضحك ضحكة خجولة وجميلة ، وابتسم لخضر . ليس لأنه كاد أن يقسم لها لتصدقه ، بل لأنه سمع ضحكة ابنه أخيراً ، ورأى في عينيه ذلك البريق الساحر والمدهش . شعر أنه يعرف شكل السعادة حين تستقر في عيني ابنه ، ترى ما شكل التعاسة والصدمة والخيبة!

ـ وهل أقسمت لها؟

ـ أجل يا سيدي ، حياة مجنونة في بعض حالاتها!

قالها بالضحكة نفسها ، وضحك لخضر ضحكة خفيفة وهو يقول في نفسه : أجل أعرف حالاتها يا بني . أعرف جنونها الذي شدني من قلبي قبل ثلاثين عاماً ، وأعرف خسائري بعدها! أحس بحزن عميق وهو يرفع عينيه إلى عيني ابنه الذي اختفت ابتسامته فجأة . طأطأ رأسه وصمت . انتابت حسين حالة من الحزن وهو يرى ذلك الحزن في عيني الرجل الوحيد الذي شعر أنه يثير فيه مشاعر كثيرة أولها الاحترام حد القداسة ، كان يرى فيه شيئاً مميزاً واستثنائياً ، ويرى أن حب الجنرال واحترامه له يكفيان ليشعر أنه لم يعد يتيماً كما كان عليه قبل أن يقابله ، كان يدرك أنه لا يحق له أن يفصح عن هذا الشعور لجنراله خوفاً أن يفهمه خطأ ،

لكنه قالها لخطيبته التي أبدت الشعور ذاته ، قالت له بصوت هادئ وعميق :

ـ طوال جلوسنا خيل إلي أن الجنرال ينظر إليك نظرة دافئة ، نظرة أب نحو ابنه!

وشعر حسين بسعادة عميقة وهو يسمعها تقول ذلك . كان في قرارة نفسه يتمنى لو كان الجنرال والده! وإن كان يعرف أنه حلم مستحيل المنال إلا أنه اكتفى بهذه العلاقة الطيبة التي تحسسه أن جنراله ينظر إليه نظرة دافئة فعلا ، وأنه يعامله كما يعامل الأب ابنه . وكان يشعر بالفخر إزاء كل هذا ، لا لشيء سوى لأن جنراله يعامله معاملة الأب!

وجاء الاثنين سريعاً ، كانت الساعة السابعة عندما وصل حسين إلى بيت جنراله ليذهبا معا حسب اتفاقهما . لكم تمنى لخضر أن يعتذر في آخر لحظة ، وأن يقول بصوت حازم لا يقبل الجدال :

ـ أنا متعب الليلة وأرغب في الراحة!

ليته كان قادراً على قولها حقاً ، قالها في نفسه وهو ينظر إلى ابنه الذي بدا له وسيماً في بذلته السوداء . كم هو أنيق وفخور بنفسه . قالها في نفسه ونظر إلى حذائه بشكل آلي . كان حذاؤه جديداً ولامعاً ، وابتسم لخضر فجأة دونما سبب مقنع . قال حسين يحاول كسر الصمت :

ـ سيدي ، أفضل أن نذهب دون حراسك الشخصيين ، حياة تقيم في حي شعبي ، والذهاب إلى هناك أبسط مما تتوقع!

هل يمكن لضابط أن يقول له هذا الكلام لو لم يكن قد تغير فعلاً؟ قالها في نفسه وهو ينظر إلى الشاب الوسيم أمامه . وابتسم من جديد وهو يرد :

ـ لا يهم كيف سنذهب ، المهم أنا جاهز!

قالها وهو يعدل ربطة عنقه السوداء . تمنى وقتها أن ينظر إلى نفسه في المرآة ، تنهد بعمق وهو يدخل سيارة حسين أمام أعين الحراس الذين بدوا مذهولين وهو يطلب منهم عدم مرافقته ، ابتسم حسين بسعادة وهو ينطلق بالسيارة بعيدا عن الفيلا الفخمة المليئة بالأسلاك!

هل ينكر لخضر أنه كان سعيدا وقتها والسيارة تنطلق به بعيداً عن ذلك السجن الرسمي الذي سكنه؟ شعر بنشوة والسيارة تنحشر وسط السيارات العامة . كان حسين صامتاً في الأول قبل أن يبدأ لخضر بالحديث عن الشوارع التي لم يسلكها منذ سنين ، وعن المدينة التي تبدو وكأنها استعادت عافيتها ، وتكلم حسين عن الشوارع الجديدة التي أضيفت إلى المناطق لفك العزلة عنها ، وكان يصغي إليه بإحساس نادر من البهجة . فكر : هل كان يتخيل يوما لحظة كهذه من قبل؟ لحظة الجلوس إلى جانب ابنه في سيارة تقودهما إلى امرأتين واحدة كانت له والأخرى صارت لابنه! كان يحاول التركيز على مشاعره ليتحكم فيها ، كي لا تخدعه عيناه أو يداه . فكر أنه لن يسمح لنفسه بأن يضعف لأي سبب كان ، وفكر أن يسترجع الذكريات القاسية لتسانده في سهرته ، ليتذكر ضغينته التي ساهمت في صناعة قوته الكاملة طوال عمر من الزمن . لكنه أحس أنه لم يعد قادراً على استرجاع ضغينته ، فجأة ضعف ، وصار مرتبكاً كطفل يتيم ، وأحس أن العرق يتصبب منه ؛ ففتح نافذة السيارة لتلسعه نسمة الخريف الباردة . وعندما خففت السيارة من سرعتها زاد ارتباكه والشاب يقول : «وصلنا!» لتنحدر السيارة نحو اليمين وتدخل إلى حي شعبي وتتوقف بالقرب من بوابة عمارة . نظر حسين إلى لخضر وقال بصوت مهذب :

- وصلنا يا سيدي!

خرج بخطوة ذكرته أنه لم يعد شاباً ولا يافعاً! صعد درجات السلم الرخامي الذي يؤدي إلى الدور الثالث، واعتذر حسين لجنراله أن العمارة ليس بها مصعد! ولم يرد لخضر بشيء. هل يحتاج المرء إلى المصاعد لبلوغ الكارثة؟! قالها وهو يستند إلى قلبه المتعب ويصعد! ألم يكن قبالة الكارثة؟ هو الذي اعتقد أنه استطاع التغلب على قلبه بكل ما أوتي من ألم. لم يفعل في حياته شيئاً يستحق التوقف أمامه للذكرى، كما يفعل رجل في آخر العمر قبالة ذكرى يعزي بها ما تبقى له من عمر، حتى وهو يعثر على ابنه ظل خائفاً من التفاصيل التي لا يمكن أن تقال، وظل قلبه يرتعش في زاوية العمر أكثر وحدة مما كان عليه. هل صدق أنه نجا من العقاب؟ كان يدرك أن العقاب سيكون قاسياً، وأنه سيصلي في آخر المشهد لرصاصة الرحمة التي ستقتله إلى الأبد! كانت خطواته أقل ثقة مما تمنى، ودقات قلبه أكثر فوضى وهي تتآمر مع ارتعاشة يديه. تساءل في سره: هل تبقت فرصة للهرب؟

توقف حسين أمام باب الشقة، نظر إلى جنراله بابتسامة سعيدة. تنفس لخضر بعمق وهو يراه يضغط على جرس الباب، وانتظر ممسكاً قلبه بين يديه، متمنياً أن تنتهي الليلة سريعاً وإلى الأبد.. عندما فتح الباب، توقع أن يجد نفسه أمام الفتاة التي جاء ليبارك لها ميلادها السعيد، وإذ به أمام امرأة وقورة متوشحة بالسواد ومبتسمة بواجب الابتسامة لقادمين واحد تعرفه والثاني تجهله!

- شرفت بيتي جنرال! تفضل رجاء.

قالتها وهي تشير إليه بالجلوس، بينما جلس حسين بالقرب من فتاته السعيدة.

ياه. كل هذه السنوات لأجل أن يتفضل بالجلوس على أريكة على

حافة الذكرى . نظر إليها يحاول أن يبدو واثقاً من نفسه ، فكر أنها لم تتغير كثيراً ، ما تزال جميلة رغم العمر الذي تقدم بها ، ما زالت عيناها تحتفظان بتلك الدهشة الأولى ، لكن ابتسامتها التي رآها عندما فتحت الباب لم تكن حارة جداً ، ولا صادقة جداً ، كانت عن واجب الترحيب بشخص في مقام الجنرال .

فجأة سأل نفسه : ما الذي أتى به إلى هنا؟ كان يعرف أنه لم يأت لأنه وعده بالحضور ، فقد تجاوز في مثل عمره هذا الحرص على الوعد . في زمن آخر كان سيتناول سيجاره ويدير ظهره لمحدثه كأنه يطرده من أمامه ، لكنه هنا . أدرك فجأة أنه جاء عن فضول ليراها . ليتشفى بها ، وليضحك أمامها قائلا : أصبحت بدينة ومليئة بهموم الأبناء ، حريصة على إسعادهم في غياب الفرح . لكنه شعر بخيبة وهو يكتشف أنها لم تتغير تماما ، وأنها ما تزال جميلة رغم هالة الحزن والتعب التي تحيط عينيها . لسبب غريب انتابه إحساس من الوجع وهو يتذكر أنها أذته من حيث لا تدري . أم أنها كانت تدري؟ سمع حياة تقول فجأة وكأنها تعيد انتباهه إليهم :

ـ أنا ممتنة لك حضورك عيد ميلادي يا سيدي ، رغم تعبك ومشاغلك .

ـ أشكري خطيبك الذي خطفني إلى هنا .

قالها وهو يحاول أن يبتسم دون جدوى ، وإن ضحك خطيبها ضحكة سعيدة لفت الفتاة بحالة من الغرور وهي تنظر إليه بعينيها الجميلتين .

ـ أتمنى أن تكون أمورك الصحية قد استقرت ، فقد أحزنني أنك تعرضت لوعكة صحية .

قالتها نجاة فجأة وهي تنظر إليه نظرة هادئة . تململ في مقعده قبل أن يرد بصوت عميق :

ـ شكرا لك ، وكان من المفروض أن أسألك أيضاً عن وضعك الصحي بعد الوعكة التي تعرضت إليها أيضاً!

ـ أنا بخير . . شكرا لك!

هل هذا هو الحوار الذي تمنى أن يدور بينهما بعد كل تلك السنين؟ كان غريباً قبالة امرأة غريبة . امرأة تعتقد أنها مثالية لأنها ما زالت ترتدي السواد على رجل سرقها منه قبل سنين . تمنى لو يسألها : كيف حالك؟ وتمنى أن تقول له : أين كنت طوال تلك السنين؟ لكن حوارهما ظل رسمياً ، خالياً من البهجة ، ومليئاً بحكايات المرض والعمر الذي يتسرب من بين اليدين كخيط من الرمال . ذلك الحوار الممل جعل حياة تستأذن لتحضر شيئا للضيوف ، ووقف حسين معها ليقول «سأساعدك» كأنه يمارس شيئاً حفظه عن ظهر قلب . كان واضحاً أنه يتصرف في هذا البيت بحرية مطلقة ، فقد تبعته نظرات نجاة بابتسامة دافئة قبل أن تقول أخيراً :

ـ هذان الشخصان مصدر سعادتي!

قالتها بابتسامة يعرفها ، وعينين ينط منهما بريق يعرفه بقلبه ، كأنها كانت تتكلم مع نفسها عن فكرة عبرت رأسها .

ـ منذ رحيل والدها وأنا أحاول أن أغطي غيابه قدر الإمكان ، خصوصا بعد أن سافر شقيقها «الرشيد» إلى الخارج بحثاً عن حياة أفضل!

ظل صامتاً يصغي إلى كلامها متمنياً ألا تتوقف . في حوار سهل وبسيط استطاع أن يعرف عن ابنها «الرشيد» الذي يكبر حياة بعامين هاجر إلى إيطاليا على متن قارب الموت ، وإن لم يمت واستطاع الوصول إلى الضفة الأخرى ، إلا أنه لم يجد عملاً ، فاضطر إلى العمل كنادل في بتزيريا رغم أنه تخرج من الكلية . هل كان يحق له أن يسألها : لماذا لم يبحث عن عمل في وطنه ، أليس الوطن أولى به؟ عرف أن «الرشيد»

رفض العمل في مجال أبيه . . رفض الوظائف التي تصنعها البذل الرسمية . كان يريد أن يكون حرا في اختيار عمله وحياته وأسلوبه في اللبس والأكل والكلام ، فهم من بعض كلماتها أنه لم يكن يشبه أخته في شيء . كان طموحاً وعاجزاً عن تحقيق طموحه . لهذا رحل تاركاً أماً وأختاً تحكيان عنه بضمير الغائب .

ـ عندما يكبر سيفهم أن الوطن لم يكن ناكراً للجميل كما يظن . شباب اليوم يعتقدون ألا مكان لهم في البلد ، مع ذلك تجدين شبابا مثل حسين يؤمنون به وآخرين يكفرون به ، لكنهم سيعودون دائماً ، لأنه وطنهم الذي لن يجدوا غيره في الدنيا!

بدا صوته كأنه يلقي بياناً على شرف كارثة ما . تململ فوق مقعده وهو ينظر إلى عينيها بعمق مضيفاً :

ـ وأنا قادم إلى هنا ، خيل إليّ أن البلد تستعيد توازنها . الناس أقل شعوراً بالكارثة مما كانوا عليه من قبل ، ولم يكن ليتحقق ذلك لو هرب كل الناس من الباخرة . قدر الرجال أن يبقوا حيث يجب عليهم البقاء!

ـ لقد مررنا جميعاً بالكارثة!

ـ أعرف! مر بها كل الناس . ليس ثمة بيت لم يفقد شخصاً عزيزاً عليه . كان قدراً مؤلماً علينا جميعاً ، والمهم ما سيأتي من أمل في الحياة على شكل ابنتك و . . . حسين .

كاد يقول ابني ، وتمنى أن يقولها . فكر أن الحوار يأخذه إلى جهة لا يحبها ، وأنه بدأ يشعر بالتعب وهو في جلسته الخالية من البهجة .

ـ أجل ، إنهما الأمل الذي تبقى لنا!

ـ أملك المتبقي أكبر . فأنت لديك ابنتك وخطيبها ، و«الرشيد» الذي سيعود ذات يوم إليك!

ـ لديك حسين أيضاً!

قالتها وهي تنظر إليه ، وخيل إليه أن شيئا وقع على رأسه وآلمه . تنحنح وهو ينظر إليها بحثاً عما وراء جملة بدت له مقصودة . أضافت وهي تبتسم بهدوء :

ـ وجودك اليوم دليل أنك تحب حسين ، وأنك تعتبره ابنك ، فأنت لن تأتي إلى بيت لا تعرفه لو لم تفعل ذلك إرضاء لشخص تحبه!

ظل ينظر إليها صامتاً ، وكانت تبتسم وهي تنظر إليه منتظرة رده الذي لم يأت . دخلت حياة ممسكة بصينية مليئة بكؤوس العصير بينما كان حسين ممسكاً بصينية مليئة بأنواع الحلوى . نظر إلى ساعته نظرة آلية وهو يبتسم من قلبه . كم مضى من الوقت . لم يكن عيد الميلاد عيداً للشموع ، بل للحديث الذي لم يتوقعه بسيطاً وعفوياً . كان يسمع أكثر مما يتكلم ، وعندما حان وقت المغادرة وقف دون سابق إنذار . شعر أنه بحاجة إلى النوم العميق بعد يوم مجهد . أمام الباب شكرته الفتاة بصوت سعيد :

ـ شكرا على حضورك يا سيدي .

قال بصوت أراده مقنعاً :

ـ قولي لي عمي لخضر لنبقى أصدقاء . .!

قالها وهو ينظر إلى نجاة مبتسماً . خيل إليه أن وجهها أصبح شاحبا فجأة . كان واقفا قبالتها ، يتأمل وجهها الذي بدا قريباً فجأة ، كاد يقول شيئاً لكنه أدار ظهره وخرج .

هل كان حلماً أم حقيقة؟ ظل لأيام يفكر في تلك الزيارة التي قادته إليها ، ووجد نفسه لأول مرة منذ سنين يشعر بشيء مغاير لما كان يشعر به من قبل . فجأة لم يعد يتمنى الانتقام من أحد أو من شيء . فكر أن الحياة أسهل مما كان يتوقع ، وأنه لأجل نفسه يريد أن يعيشها سهلة وممتعة

وقد زاد اقتراب ابنه منه، عن واجب وعن ولاء وعن احترام وامتنان. كان يحس أن وجوده في حياة ابنه لم يكن سيئاً في النهاية، وأنه حتى وهو يجهل أنه والده يبدو سعيداً بالأبوة المهنية التي يوليها له باذلاً جهوده ليكون في مستوى الثقة. أحيانا عندما يستدعيه يوم راحته يأتي مع خطيبته التي تعود على ضحكاتها المفاجئة وعلى شغبها الجميل أحياناً. كان يجد في ذلك الوقت الذي يقضيه معهما سعادة غريبة تجعله يبتسم لفترة طويلة بلا سبب. مع ذلك كان خائفاً من الحقيقة التي يشعر أن وقتها قد اقترب، وخائفاً من رفض ابنه للحقيقة لو قالها له خالية من الكذب. هل سيقبل ابنه الحياة التي عاشها والده بحثاً عن مجد لم يجد فيه سعادة ولا راحة بال؟ هل سيتقبل ابنه تفاصيل الجرائم التي اقترفها باسم الواجب الوطني ضد أناس لا يعرفهم لأجل أن يصل إلى ما وصل إليه، وهل سيتقبل أنه تركه وحيداً وهرب من مسؤوليته عن حياد مطلق بألا شيء يعنيه غير ذلك الهدف المقدس الذي ظل يسميه: السلطة. وعندما حقق هدفه اكتشف أنه فقد نفسه. هل يمكن للسلطة أن تعيد له نفسه التي فقدها؟ قالها طويلاً وقتها، وظل يقولها من بعد بإحساس من الفقد. ابنه المثالي في كل شيء، الصارم عن قناعة بأنه على حق، رافضاً التنازل عن القيم حتى في حالة الحرب يظل يؤمن أن النصر الخالي من القيمة نصر مسروق، وغير مقنع، وأن قيمة الإنسان في ضميره، وفي قدرته على اقتسام النصر مع البسطاء والفقراء والجوعى، ابنه الذي يرفض أن يعيش بعيداً عن الشعب، هل سيتقبل حقيقته لو قالها له مبرراً أسباب ابتعاده عنه كل تلك السنين؟ فجأة لاحت أمامه فكرة بدت له سخيفة أول الأمر ثم تحولت إلى فكرة طاردته لأيام. فكر أن يكتب الحقيقة لابنه في رسالة يسلمها له في الوقت المناسب. رسالة عارية من الادعاء،

واضحة وصريحة وصادقة . شعر أنه سيحتاج إلى قوة فولاذية ليقول كل شيء يريد قوله . فكر أن الصدق أول الطرق إلى اليقين ، وأن ابنه سيعرف بحاسته الخاصة كم أحبه وكم يحبه ، سيقول له ذلك في رسالة بدأ يكرس لها كل ليلة مساحة من الذاكرة ليكاشفه فيها وجها لوجه ، وليقول له : «ابني الحبيب» ، كما يريد أن يقولها صادقة وبسيطة وحارة . تلك الطريقة الوحيدة التي جعلته لأيام يشعر بالراحة مع نفسه ، كأنه وجد الطريق الوحيد الذي يستطيع عبره الوصول إلى قلب ابنه ليصالحه بها كوالده الحقيقي ، دون أن يخسر ما تبقى من كبرياء لديه . متيقنا أن حبه الواضح سيشفع له أمام قلبه . «والدك ليس مثاليا ، لكنه اكتشف أنه قادر أن يكون إنسانيا يا بني ، منذ عثرت عليك أصبحت لي الرغبة على الفرح ، وأصبحت لي أحلام بسيطة كأحلام الفقراء» . قالها وهو ينظر إلى نقطة بعيدة ثم عاد يكتب في رسالته قبل أن يتغلب عليه التعب وينهض للنوم . كم قضى من ليال وهو يكرس وقته للاعتراف؟ لكنه عندما وصل إلى سيرة نجاة شعر أنه يرتعش ، لكنه أراد أن يقول كل شيء ، فقال كل شيء ، وعندما انتهى من كتابتها أغمض عينيه كمن فرغ منه . اكتشف أن الرسالة تحولت إلى دفتر كامل . لم يكن يهمه سوى أن يصل الدفتر إلى ابنه في الوقت الذي يراه مناسباً ، ربما بعد موته! قالها وهو يمسح على رأسه براحة يده : هل يمكن محاكمة ميت على ما اقترفه في حياته؟ وحده الله من سيحاسبنا ، بينما البشر سيكتفون بالإدانة أو النسيان! قالها في نفسه وهو يجابه دموعه . تنفس بعمق واستلقى على سريره ونام!

-٢٧-

هل كان يريد أكثر مما حصل عليه وقتها؟ خيل إليه أنه أصبح هادئا أكثر قدرة على التواضع في وجود الآخرين ، وقد اكتشف أنه صار يتعايش مع الجميع بمن فيهم أولئك الذين كان يكرههم ، أصبح يجد لهم التبرير إزاء وجودهم على أرض كان يرفض مقاسمتها معهم . ثم ذات يوم جاءه حسين ليعرض عليه أسماء الضباط الذين يريد ضمهم إلى قسمه ، وشعر لخضر أنه لن يستطيع مناقشته في اختياراته . كان يعي أنه اختار نخبة من الضباط الذين يحملون مبادئه وقيمه . وبدا سعيداً وهو يستمع إلى تقريره الشفوي عن التقدم الذي أنجزه قسمه في وقت وجيز ، وعندما ذكر له أسماء الضباط الذين يريد ضمهم إلى قسمه لمساعدته في بناء جهاز جديد ، ابتسم ، وظل حسين ينظر إليه منتظراً رده . قال له أخيراً :

ـ أنت تعرف أن ثقتي بك كبيرة ، ولا اعتراض لي على الأسماء ، لكن يجب أن تفهم أنني لن أقبل بغيرك رئيساً عليهم .

وارتبك حسين على الرغم من سعادته بما سمعه . فكر أنه أصبح يخشى من كل هذه الثقة المطلقة التي لم يكن يتوقعها ضابط شاب مثله . قال يحاول أن يوصل الفكرة إلى الجنرال بصدق :

ـ أنا أنجزت أول وأهم خطوة فيما يخص القسم الجديد الذي تم إنشاؤه ، وأعتقد أن ثمة من هو أكبر سنا وخبرة مني ل . . . .

ـ لا . .! أنت من سوف يدير القسم ، والقرار سأوقعه هذا الأسبوع . يجب أن يكون العمل وفق ما رتبت له أنت! مثلك يجب أن يبدأ كبيرا يا بني!

ـ شكراً يا سيدي .

ـ أنا لن أبقى جنرالاً مدى الحياة ، وسيأتي اليوم الذي أغادر فيه منصبي ، ويجب أن أطمئن على وجود ضباط شرفاء قادرين على أخذ زمام الأمور . زماننا سينتهي ليبدأ زمانكم!

ـ أنت قدوتنا يا سيدي!

يا له من رد سخيف . قالها لخضر وهو يبتسم بضجر . هل يمكن أن يقولها له حقاً لو قرأ الرسالة التي استغرق ليالي طويلة في كتابتها؟ هل سيقول له : أنت قدوتي في الحياة يا أبي ، بعد أن يقرأ تلك التفاصيل الصادمة التي كتبها له عن رجل بدأ حمالاً وأصبح جنرالاً؟ قالها في نفسه وهو ينظر إليه ويقول :

ـ ليس هنالك أهم من المبادئ يا بني ، وعليك أن تدافع عن مبادئك كما تدافع عن كرامتك ، وهذا سبب أني أختارك أنت بالذات دفاعا عن المنطق الوحيد الذي يتبقى لنا : الوطن!

قالها بصوت غلبته حشرجة حزينة ، فكر لو سمعه أولئك الذين كانوا قبله لما صدقوا أنه هو لخضر الذي يقول هذا الكلام الجاهز للسخرية . أليس هذا دليلاً آخر أنه يستحق الرحمة؟ قالها في نفسه وهو يبتسم من جديد ، تنهد وهو يضيف :

ـ ثقتي بك كبيرة يا حسين!

ـ لن أكون إلا في مستوى ثقتكم يا سيدي . فأنتم مثلي الأعلى!

هل كان مثله الأعلى حقا؟ قالها بدهشة وهو ينظر إلى ابنه الذي حياه

تحية عسكرية وانسحب . فكر كثيرا وقتها هل كان حسين صادقا في كلامه؟ هل يعتبره مثلا أعلى له؟ قالها في نفسه ببهجة عميقة ، لكنه سرعان ما شعر بالخوف وهو يتذكر رسالته التي كتبها له . هل سيكون مثله الأعلى بعد أن يقرأها؟ وقتها قد لا يكون موجوداً لمعرفة ردة فعله ، ربما لأن الذين يتركون ذاكرتهم في رسالة لا يكونون موجودين لحظة قراءتها ! كان يعرف أن الكوارث التي لحقت به استحق بعضها ولم يستحق أكثرها ، لكنه لم يكن ليتقبل كارثة أخرى في هذا العمر . كارثة تأتيه على شكل خبر وصل على عجل ليقول في سطرين : تعرض الضابط حسين زرياب إلى هجوم إرهابي!

هل كان ليتقبل خسارة كهذه وهو يركض نحو المستشفى العسكري؟ لأول مرة لا يفكر في منصبه وهو في تلك الحالة من الذهول . بدا منهاراً وهو يستفسر من الأطباء عن وضعه ، وكانوا يحاولون أن يطمئنوه بكلمات مقتضبة عن الوضع المستقر والأمل المطلوب! هل ثمة أمل يمكن توقعه لو مات ابنه؟ فكر في ذلك وشعر بالصدمة وهو يفكر أن المعادلة لن تكون عادلة بهذا الشكل . كيف يمكن للشخص الأنسب للحياة أن يموت . ها هو الموت الذي صنعه قبل سنين يحصد ابنه الوحيد ، لكنه يعرف أن هذا الموت ليس من صنعه ، بل من صنع آخرين يرون في اغتيال ضابط انتصاراً لعقيدتهم! نظر إليه الأطباء نظرة مليئة بالشفقة وهو يسألهم ذلك السؤال الذي يسأله أب في مثل حالته : هل سيعيش؟ ذلك السؤال الذي لا يملك أحد الرد عليه! هل سيعيش؟ هو الذي كان بسيطاً كخبز الفقراء ، وصادقاً كفرحتهم ، هل سيعيش؟ رد عليه أحدهم بصوت مليء بواجب التفاؤل : إن شاء الله سيكون بخير . ثق بالله!

هل كان أحد يفهم ما الذي يحضر الجنرال شخصياً إلى المستشفى

ليسأل عن ضابط تعرض للاغتيال؟ لم يفعلها من قبل . كم ضابطاً تعرض للاغتيال؟ لم يكن يأتي ليسأل ، سوى في اليوم الأخير ، يوم يحمل من المستشفى على الأكتاف لينظر إليه أهله النظرة الأخيرة قبل الدفن . كان يأتي لابساً بذلته الأنيقة وواضعاً نظارته السوداء حول عينيه ، ويظل صامتاً مؤدياً واجباً لا يستغرق سوى لحظات . يقول كلمة صغيرة عن الشجاعة ويذهب ناسياً اسم الضابط الذي لم يكن له وقت للنظر إلى وجهه جيداً! ها هو يأتي اليوم ، حاملاً ذهوله وصدمته ، عندما رأى حياة تركض في الممر ومعها أمها وجد نفسه يفتح لها ذراعيه ، لم تتردد لحظة وهي ترتمي بين أحضانه وتجهش بالبكاء .

ـ لا تبك يا ابنتي . . لن يتركك . . إنه يعي أن مكانه معك . .!

ومعي . قالها في نفسه وهو يربت على كتفيها لتهدأ ، ورفع عينيه إلى أمها التي كانت مذهوشة وشاحبة ، قال كأنه يعيد الأمل إلى نفسه :

ـ سيكون بخير . . إنه قوي ولن تهزمه رصاصة جبانة!

كم مضى من الوقت وهو ينتظر . جاء عدد من الضباط بمجرد سماعهم بالخبر ، وجاء مسؤولون عسكريون عندما سمعوا بوجود الجنرال في المستشفى . كان غير آبه بالكلام الذي يقال في مناسبة كهذه ، وغير مكترث بعبارات المواساة التي رددها البعض للخطيبة المفجوعة ووالدتها الصامتة . قال يحاول أن يستعيد صوته الحازم :

ـ بدل أن تقفوا هكذا من الأفضل متابعة القضية ضمن ما يجب أن يؤدي إليه التحقيق .

وسعد أنه قالها أخيراً ، ثم وهو يوجه كلمته إلى أحد الأطباء :

ـ الفتاة تحتاج أيضا إلى رعاية أرجو عمل اللازم!

قالها وهو ينظر إلى حياة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من

الإغماء، وما هي إلا لحظات حتى كانت في غرفة خاصة تتلقى العناية أمام صمت والدتها التي لم تقل شيئا منذ جاءت، كأن الصدمة أخذت لسانها. ولأول مرة منذ رآها يتفاجأ بها تجهش بالبكاء!

هل يغسل البكاء عمراً عابثاً يا سيدتي. كأن كل هذه الفجائع التي مرت لم تكف ليضاف إليها هذا الألم الجديد. قالها في نفسه وهو غير قادر على عمل شيء، سوى النظر إليها وهي تبكي، ثم عندما هدأت أخيراً قالت:

- هل سيعيش؟

فكر أنه مستعد لأي شيء ليعود ابنه مبتسماً كما رآه آخر مرة. كان رافضاً الخسارة ورافضاً أن يعود إلى قلعته فارغ اليدين حتى والطبيب يؤكد له أن حالته مستقرة، وأن إحدى الرصاصات ما تزال في جسمه، ولن يقدروا على نزعها الآن على الأقل، وإن مات سيأخذها معه إلى قبره كتذكار من مدينة لن تصدق حكاية السلام ثانية! قال يوجه كلامه إلى كبير الأطباء:

- لن تهمني هذه الفلسفات السخيفة، ما يهمني أن يعيش...!

قالها بحدة أرعبت الطبيب الذي غادره مهرولاً. كان غير قادر على البقاء مكتوف اليدين. فكر أن يذهب إلى غرفة الفتاة ليطمئن عليها، استقبلته الطبيبة بابتسامة أشعرته بالضجر، قالت بصوت هادئ:

- أعطيناها مهدئاً لتنام، لن تصحو قبل الصبح!

نظر إلى نجاة نظرة سريعة، كانت عيناها محمرتين. قال لها كأنه يكمل حواراً قديماً:

- لن تستطيعي فعل أي شيء الآن. يجب أن ترتاحي أنت أيضاً!

- هل يمكنني أن أرتاح حقاً!

ـ يجب أن تحاولي لتكوني قادرة على مواجهة الغد!

قالها بصوت تعب وهو يضيف :

ـ سأطلب من السائق أن يوصلك إلى البيت!

ـ لن أهدأ بينما ابنتي وخطيبها هنا!

ـ بقاؤك هنا لن يفيد ابنتك في شيء يا سيدتي! عليك أن ترتاحي أيضاً!

قالتها الطبيبة كأنها تطلب منها أن تغادر الغرفة . . نظرت نجاة حولها ثم مشت نحو الباب . وجد لخضر نفسه يلحق بها . اقترب منه مدير المستشفى ليقول بصوت حذر :

ـ سيدي الجنرال ، يمكنك أن ترتاح في مكتبي إلى أن يطلع النهار!

ولم ينظر إليه ، إنما نظر إليها وهو يقول بصوت هادئ وحزين :

ـ هيا!

مشى معها على طول الممر قبل أن يدعوها نحو اليمين حيث كافيتريا المستشفى الخالية! كان يجد في خلو المكان من الناس والكلام سبباً مقنعاً ليجلس قبالتها . كانت تبدو مستسلمة لحزنها بشكل قريب إلى الإحباط ، وكان أكثر حزناً منها ، مع ذلك رفض الاستسلام لفكرة أن ابنه لن يعود . نظرت إليه وقالت فجأة :

ـ لن أحتمل فقدانه!

قالتها وبكت ، وظل صامتاً يتأمل دموعها . تمنى أن يسألها سؤالا خارج إطار اللحظة الكئيبة ، كأن يقول لها «ما رأيك في عصير ليمون بارد!» في زمن آخر لم يكن له المال ليدعوها لشيء ، وكانت تكتفي بترك كيس الذرة في يده ليأكله نهماً وجائعاً . في زمن آخر كان يحلم أن يجلس قبالتها ليقول كلاماً يقوله شاب لفتاته الجميلة . لكن الزمن تغير ، فقد لونه

وطعمه . مع ذلك تفاجأ وهو يرى شخصاً يدخل إلى الكافتيريا ويدنو منهما حاملاً في يده العصير! كان هنا سيداً في كامل سلطته! دون أن ينظر إلى الرجل الذي وضع كوبي العصير أمامهما قال يخاطبها :

ـ سندعو الله لأجله . .!

الله . فكر أنه طوال حياته لم يدع الله دعاء حقيقياً . كان يرى في نجاحاته نتيجة ما كان يبذله لأجل بلوغها . فكر أن الله سيتقبل دعاء شخص آثم مثله ، وأن عليه أن يصلي لأجل ابنه ، كي يعيده له حياً! فكر أن الله الذي يتشبث بنوره الفقراء والبسطاء أقرب منهم إلى الأثرياء والمتسلطين الذين في غمرة الحياة ينسون وجوده ، ويتذكرونه في المآسي ، وفي المآتم ، وفي النهايات فقط! حتى إن بعضهم لا يتذكره معتقداً أن الحظ أو سوء الحظ فقط من ساير حياته! أليس الله هو الأقرب إلى المفجوعين من غيرهم؟ قالها في سره وهو يتأمل كوب العصير أمامه ، ثم رفع عينيه إليها يتأملها وهي تنظر حولها بعينين مرهقتين . كأنها لا تفهم جلوسها ها هنا قبالة رجل لا تعرف هل هو الواجب الذي أخرجه من سريره الدافئ أم أنه الشعور الإنساني بشخص تبناه مهنيا وقربه إلى نفسه؟ لم تكن تفهم ذلك الحزن الدفين في عينيه وهو ينظر إلى كوب العصير . حزن تكاد تعرفه وبريق لطالما فكرت أنها رأته في عيني شخص ما! وإن لم تسعفها الذاكرة إلا أن وعيها أسعفها لتسأله بصوت خال من المجاملة :

ـ ما الذي يجعل جنرالاً يخرج من بيته ليلاً ويأتي راكضاً إلى المستشفى لأجل ضابط يشتغل عنده؟

هل كانت تكلم نفسها أم كانت تكلمه؟ نظر إليها وبدل أن يرد أدار كوب العصير بين يديه وتنهد بعمق ورد أخيراً :

ـ ذاته السبب الذي جعلك تأتين فزعة بعد سماع الخبر!

ـ أنا أمه!

قالتها وهي تنظر إليه نظرة مليئة بالغرور . . تمنى لو يبتسم ، لكنه
يرتعش في داخله . مدت يدها إلى كوب العصير وشربت منه دفعة
كأنها تستعيد ريقها الذي جف فجأة . قالت تنظر إلى نقطة غا

ـ عندما رأيت حسين لأول مرة ، شعرت بالفرح لأن
رائعاً ، جميلاً في بساطته وبسيطاً في ثقته وإنسانيته . مع
كان صدفة في مكان عام ، لكنه بدا لي وكأنه جاء إلى
فبعد أسبوع من تعارفهما جاء يطلب يدها! قال لي يومها : الحب
إلى الشمس لينمو!

تنهدت بعمق وأضافت :

ـ شعرت أنه يستحق ابنتي التي خيل إلي أنها صارت أجمل وأكثر قدرة على الفرح من ذي قبل! منذ وفاة والدها في حادث إرهابي بدا لي وكأن قلبها قد كسر . . كانت قريبة من أبيها جداً ، أكثر مما كان عليه ابني «الرشيد» الذي كان قادراً على تقبل القضاء بهدوء نفس! حتى وهو يقرر الرحيل فعلها بهدوء نفس! بينما «حياة» ، فكانت أكثرنا وجعا لغياب والدها . خيل إلي أن دخول حسين في حياتها أنقذها من الانكسار ، وأنه عوض شعور اليتم الذي أحست به . فجأة أصبح حسين والدها وخطيبها وحبيبها وشقيقها في الوقت ذاته!

صمتت من جديد لتأخذ أنفاسها .

ـ لم أفكر أن أفعل ما تفعل أم يتقدم شخص إلى ابنتها فتلجأ إلى السؤال عنه . كنت بطريقة ما واثقة أنه من بيت محترم ، وعندما أخبرني حسين أن والديه متوفيان وأنه تربى مع جديه شعرت بحنان غامر نحوه . إحساس غريب لم أشعر به من قبل ، وعندما أخبرني أن اسم والدته «نجاة»

شعرت وقتها أن ذلك الشاب الجميل سيكون ابني الأحب!

قالتها وهي تجهش بالبكاء من جديد! هل كان يحتاج إلى هذه التفاصيل ليواجه بها جرحه القديم؟ شعر أنه لا يملك شيئا ليقوله ، كأنه فرغ من ذاته فجأة!

ـ لهذا مشاعري نحوه هي مشاعر أم حقيقية!

أصدقك يا سيدتي . قالها في نفسه وهو يتنفس بعمق . أصدق أنك تملكين لهذا الشاب مشاعر جاهزة ، من امرأة تراه الأفضل لابنتها . أصدقك أنك لم تكوني لتشعري بأمومة نحوه لو كان حمّالاً ، أو ابن حمّال! قالها في نفسه وهو يطأطئ رأسه فجأة . هل كانت ستقول ما قالته الآن لو لم يكن حسين ضابطاً ناجحاً؟ كان مشروع عريس لأفضل العائلات في البلد ، وكانت لبذلته الخضراء السلطة المطلقة في البلد! هل كانت ستشعر بأمومتها نحوه لو كان بائساً ، فاقدا للأمل والحلم كأي شاب يتأبط ذراع فتاة يعرف أنه لن يتزوجها لأنه لا يقدر على الزواج ، ولأن الفتاة لن تمشي معه طول العمر ، لهذا ستضطر إلى القبول بمن يستطيع إليها سبيلاً! حتى لو لم تكن تحبه ستقبل به لأن الجميع سيراه الأنسب لها ، والأقدر على فتح البيت الذي لا يستطيع حبيبها أن يفتحه!

أليست هي نفسها البلد التي صنعت هذه التراكمات النفسية لأجيال كثيرة؟ جيل بعد جيل يرث الخسارة كاملة ، ويرث الخطاب نفسه الذي يقول له : هنيئا لك ، فأنت تنتمي لبلد العزة والكرامة! جيل يصدق قليلا هذا الشعار الجاهز للسخرية ، لكنه سرعان ما يهرب في أول قارب يركبه نحو الضفة الأخرى ، تاركا بلد العزة والكرامة للأثرياء واللصوص الرسميين! لا شيء تغير تماما منذ ثلاثين سنة ، والحكاية تتكرر في أكثر من شكل ومن وجه! أعادته دموعها إلى جلسته ، اعتدل على كرسيه وقال :

ـ سوف نتمسك بالأمل لأننا نحبه!

وبدت له الجملة سخيفة مع ذلك أضاف :

ـ ابنتك تحتاج إلى قوتك كي لا تنهار ، عليك أن تتماسكي أكثر!

ـ لو كان والداه على قيد الحياة لفعلا أكثر مما أفعله!

ياه وأنت تمارسين الأذى على قلبي . قالها ومسح على شعره بيد متشنجة . كان يشعر بالألم في ذاته وهو يسمعها تقول ما قالته ، أحس أنه أصيب في كبريائه في الصميم ، وانتابه غضب وهو يقول بصوت لم يفقد وقاره :

ـ أنا أبوه!

رفعت إليه عينين محمرتين بالدموع ، وسرعان ما ابتسمت ابتسامة صغيرة .

ـ أعرف أنك أبوه! أنت تحبه أكثر مما كان سيحبه والده الحقيقي ، واعتقد أنه لن ينسى لك هذه الرعاية أبداً!

ضغط على أسنانه وهو يتمنى الصراخ فيها لتكف عن هذا الهراء . كانت تنظر إليه بالابتسامة نفسها المليئة بالعرفان . قال بصوت هادئ وبارد :

ـ أنا لا أحبه كما لو كنت والده ، أنا أحبه لأني والده الحقيقي!

وعادت الدهشة إلى عينيها وتوقف نحيبها . بدت شاحبة جداً وهي ترفع عينيها إليه . كطفلة فاتحة فمها بذهول :

ـ ماذا قلت؟

ـ مثلما سمعت!

ـ والده الحقيقي؟ كيف!

كيف؟ تمنى لو يستطيع الابتسامة من باب السخرية . فكر أنه سؤال

مليء بالحيرة والوجع في الوقع ذاته، ربما لأنه هو نفسه لا يعرف كيف لشخص مثله أن يكون أباً لشاب جميل مثل حسين!

ـ هذه الـ«كيف» تحتاج إلى عمر لأشرحها لك!

ـ هل أنت جاد في ما تقوله؟

ـ كل الجدية يا سيدتي!

ـ وهل يعرف أنك أبوه!

ـ لا!

ـ يا لقلبك . . . .!

لو لم يكن متوجعا بتلك الدرجة من الوجع لصفعها ملء حزنه . هل كان جاداً حقاً وهو يصارحها بما عجز عن قوله لابنه؟ تساءل كيف يمكن أن يعترف لها بسر اضطر إلى كتابته في رسالة ليقرأه ابنه بعيداً عن عينيه؟ كيف يصارحها هي بسر لا يخصها؟ هي التي تمعنت في جرحه . نظر حوله بإحساس من الكآبة . . فجأة وقفت وهي تغمض عينيها :

ـ أنا في كابوس!

وجد نفسه يجذبها من يدها بقوة لتجلس . كاد يسقطها على كوب العصير القريب منها . بدا غاضباً وهو ينظر إليها بحدة قائلاً :

ـ أنت آخر من يحق له أن توجه اللوم لي!

ـ مشاعري نحوه كانت دائماً واضحة ، ولو سألته أينا أقرب منه أنا أم أنت سيختارني . . لأني لم أكذب عليه!

ـ لكنك كذبت علي!

قالها وهو يخفي وجهه براحة يده . كان في حالة تشبه الهذيان وهو يضيف بالصوت ذاته :

ـ كذبت على لخضر الحمّال الذي أوهمته بالحب وتركته لأجل ضابط

أبهرك ببذلته الزرقاء!

ـ ....؟

هل كان يهذي؟ كانت نجاة على حافة الصراخ وهي تنظر إليه ، ثم اتسعت عيناها كأنها تراه لأول مرة . يا إلهي . . قالتها وهي تقف من جديد . ترنحت وكادت تسقط أرضاً لولا أن أمسكها وهو يقول بصوت هادئ :

ـ إياك أن تلوميني على شيء فعلت أنت أفظع منه!

ـ لخضر؟

قالتها كأنها تكلم نفسها ، ودون أن تنتظر ركضت بعيداً عن الكافتيريا كمن يهرب من شبح عاد إليها من الماضي!

شعرت أنها لا تقوى على المشي ولا على الوقوف ولا على الجلوس . فكرت أنها لم تعد تستوعب ما يجري ، واقشعر بدنها وهي تتذكر نظرة لخضر لها وهي تغادره هاربة . يا إلهي . قالتها وهي ترتعش من رأسها إلى أخمص قدميها . هل يمكن أن يكون العالم ضيقاً إلى هذا الحد؟ قالتها في نفسها وهي تغطي وجهها بكلتا يديها وتجهش بالبكاء . دخلت إلى غرفة ابنتها وجلست على كرسي قريب من السرير . سمعت ابنتها تتأوه في نومها . يا إلهي . . قالتها في نفسها غير قادرة على استيعاب ما يجري . فكرت أنه كابوس وستستيقظ منه حالاً لتجد نفسها في سريرها ، فتتعوذ الله من الشيطان الرجيم ثم تعود إلى النوم العميق! أغمضت عينيها بقوة وفتحتهما من جديد لتجد نفسها في غرفة المستشفى! نظرت إلى النافذة الموصدة ، من خيوط الشمس الواضحة عرفت أنه الفجر ، ستشرق الشمس بعد قليل . قالتها في نفسها وهي تحاول الضغط على يديها كي لا ترتعشا . فكرت في لخضر . تركته هناك وحيداً وبائساً ، كما آخر مرة منذ دهر!

-٢٨-

ـ من الذي يدعوك إلى القول إنني ارتكبت أكثر مما ارتكبته أنت في حق ابنك؟

قالتها وهي تعود للجلوس على مقعدها نفسه في الكافتيريا . كان واضعا يديه على وجهه وعندما أزاحهما اكتشفت أنه يبكي . هل يمكن إدانة رجل يبكي على ابن لم يحتضنه بين ذراعيه؟ تنفست بعمق كي لا تجهش بالبكاء بدورها . قال يتجنب النظر إلى عينيها :

ـ آذيتني مثلما آذاني الجميع . . . حتى الظروف آذتني!

ـ لكني لم أقصد إيذاءك . . طريقنا كان مسدوداً من البداية . . كان عليك أن تعرف ذلك من تلقاء نفسك!

ـ لهذا تزوجت من الضابط!

ـ زواجي به كان قدري . . ألم تفكر أنه لو كنت قدري لتزوجت بك؟

أشاح عينيه عنها من جديد ، تمنى لو يغادر هذا المكان الكئيب .

ـ ألا ترى أنك نجحت بعيداً عني أكثر مما كنت ستنجح لو بقيت معي!

تمنى لو يضحك ملء ثغره ، لكن كان الحوار مفتوحا على السخرية!

ـ هل ترينني ناجحاً؟

ـ أجل . . لقد أصبحت شيئاً مهماً في البلد!

ـ كنت أتمنى أن أكون شيئاً مهماً في قلوب من أحببتهم!

ـ إنه قدرك الذي مشيته حتى النهاية!

ـ وقدرك أن تنظري إلي كشخص بائس ومتشرد كما قلتها ذات يوم ؟ هل تذكرين؟

أزاحت خصلة من الشعر إلى الخلف بيدين مرتعشتين . ياه! يا لقلبك الأسود . .! قالتها وهي تنظر إليه نظرة طويلة قبل أن ترد :

ـ فعلت ذلك لأنقذك منه! ما الذي كان سيفعله شاب نحيل في وجه ضابط يخفي مسدسه تحت سترته؟ يومها خفت أن يؤذيك!

وضحك بهدوء ضحكة مليئة بالسخرية! عاد للنظر إليها وهو يقول :

ـ كل هذا لا يهمني الآن! لكني ما كنت لأستوعب أن يحمل القدر ابنتك إلى ابني! ما كنت لأستوعب أن يختار ابني ابنتك من دون كل بنات البلد!

ـ قدرهما أن يلتقيا بدلا منا ، وأن يستمرا إلى الأخير . .! لا أنت ولا أنا كان لنا يد في ذلك سوى في إنجابهما إلى الحياة!

مسح على شعره بكلتا يديه وهو يحاول الوقوف على قدميه . فكر أن يبتعد ليتنفس الهواء ملء رئتيه ، لكن صوتها أبقاه جالساً :

ـ لو تزوجنا لما أنجبناهما عاشقين! لكسرنا قلبه وقلبها معاً!

بدت له الجملة حميمة وهو يصغي إليها . لو تزوجنا؟ ياه . . قالها في نفسه . هل كانت ستنجب له حسين لو تزوجا؟ كانت ستنجب له شاباً يجد في واقعه سبباً كافياً ليهرب بجلده نحو المنفى كما هرب ابنها دون عودة! بدت له الحقيقة كبيرة وجميلة وهو يتذكر ابنه . كم هو رائع ذلك الشاب الذي جعله لأول مرة يكتشف أنه قبالة كل هذه السلطة يبدو كفقير بحاجة إلى صدقة من الحب! نظر إليها نظرة عميقة قبل أن يبتسم

أخيراً ابتسامة حزينة وحارة . . قال :

ـ عندما رأيته أول مرة ، خيل إلي أنني أستعيد أسباب الحياة أخيراً! بدا لي رائعاً وجميلاً ، كهدية عيد لم أتوقع أن يكون لي حظ فيها! إحساس لا يمكنني وصفه ، لكنه أنقذني من نفسي!

وحكى لها الحكاية . كان يريد أن يتجرد من الشعور القاتل بالذنب إزاء ابنه وإزاء الذين توقعوا منه شيئاً ولم يحصلوا على أكثر من الخيبة ومكان لن يجلس عليه أحد بعدهم! كان يحاول أن يبدو وقوراً وهو يتجنب الحديث عن الأشياء الصادمة ، مكتفياً بما رآه قابلا للحديث ، وكانت تصغي إليه صامتة . لم تحاول أن تقاطعه قط ، تركته يحكي ويحكي ويحكي حتى قال أخيراً!

ـ بعد كل هذا العمر العبثي أجدني وجهاً لوجه مع ابني! ابني الذي تمنيته بكل قوة وتركته مجبراً على تركه ، كي لا آخذه معي إلى جهات كانت مليئة بالخوف والخطر! تركته ليكبر خالياً من الأذى ، سليم العقل كحبيب!

ـ هل ستخبره؟

نظر إليها بذعر متذكراً أن عليه أن يخبره ، ومسح على شعره من جديد بحركة بدت له مجهدة . هل كانت تلومه؟ فكرت أنه يبدو مثيرا للشفقة وهو قاب قوسين أو أدنى من الانهيار! ولسبب غامض شعرت بتعاطف معه . قالت تحاول أن تبدو صادقة .

ـ ستخبره حين يكون الوقت مناسباً لكلاكما ، وثق أنني سأساندك وقتها ، مثلما سوف تساندك حياة !

ابتسم من جديد . هل توقع أن تقول له هذا؟ كان ممتناً لها لقاء نظراتها الهادئة وذلك البريق الذي خيل إليه أنه صار أكثر دفئا مما كان عليه من

قبل . لم يكن يهمه شيء بعد الآن سوى ابنه! نظر إلى ساعته . السابعة؟ قالها وهو يتلفت حوله . ياه! كل هذا الوقت مضى . خيل إليه أنه فرغ تماما من ذاته ، وأنه بحاجة إلى قوة خرافية ليقف على قدميه . وقف وترنح فجأة وإذ بيدها تمتد نحوه . يد لمست ذراعه قبل أكثر من ثلاثين سنة كوعد أزلي . نظر إليها وابتسم تلك الابتسامة التي صارت تعرفها جيدا . قال أخيراً :

ـ يجب أن نطمئن على الأبناء الآن!

أشارت برأسها موافقة وهي تتبعه نحو باب الكافتيريا . كانت الشمس قد أشرقت دافئة وممتعة . فكر وهو يمشي في الممر الطويل . لا يهم شيء الآن سوى أن يعود ابني كما كان ، قريباً وحاراً!

قالت فجأة وهي تنظر إليه نظرة صادقة :

ـ لا أريدك أن تظن أنني أحاول تبرير ما جرى ، لكني لطالما تساءلت أين أنت؟ من باب الخوف على شخص شعرت نحوه قبل سنوات بشعور أمومة غريب . كنت أصلي لأجل أن تكون بخير!

قالتها وهي تضغط على أسنانها كي لا تخونها دموعها . نظر إليها طويلا قبل أن يقول بصوت أراده صادقاً :

ـ سيكون لنا وقت لنحكي في ذلك . .!

ثم وهو يحاول أن يبتسم رغماً عنه أضاف :

ـ المهم بمجرد شفاء حسين سوف نحيي زواجه بحياة . لا وقت للانتظار . يجب أن نفرح بهما!

وابتسمت ابتسامة صغيرة وهي توافقه بإشارة من رأسها . تنفس لخضر بعمق . أحس أنه صار أبا فعلا! قالها وهو يمشي نحو غرفة ابنه . كان يدرك أنه سيتجاوز الخطر ، وألا شيء يهم بعدئذ!

L A K H D A R

رواية
NOVEL

لخضر

رفع عينيه إلى السقف ، وتنهّد بعمق وهو ينظر إلى ساعته ! ياه .. كلّ هذا الوقت وهو يتأمّل في الملفّ ؟ كلّ هذا الوقت قضاه في تأمّل صورة ؟ صورة أعادته إلى جرحه القديم وجعلته ينظر إلى قلبه في المرآة ، بعد كلّ هذا العمر ، وبعد كلّ هذا الجنون ! من عادته ألاّ يقع في مثل هذا النوع من العاطفة ، وقد عاش طوال سنوات دون رغبة على التعاطف مع شيء أو مع أحد ، لكنّ ما شعر به لم يكن تعاطفًا . كان « شيئًا » آخر أقوى من التعاطف ، وأقرب إلى الحبّ ! الحبّ ؟ أليس الحبّ من طرده من البيت « مشرّدًا » « وحيدًا » و « بائسًا » ! الّذين أحبّوا كان لهم قلب يعرفون كيف يقودهم نحو مصائر يختارونها . لكنّه لم يكن مثلهم لأنّه لم يكن له قلب يقوده نحو شيء سى ما كان يراه هدفًا ساميًا في حياته ، وقد وصل إليه على حساب قلبه ونفسه وحياته . أمام صورة واحدة اكتشف كم أصبح وحيدًا كما لم يكن من قبل ، وقبالة وجه بسيط وجد نفسه يتلمّس حزنه العميق حتّى كاد يجهش بالبكاء !

◆ من الرواية

ISBN 978-9953-36-362-5